موسوعة
تاريخ مصر
N
نوبليس

موسوعة

التاريخ المصري

(٣)

الدكتور الفرد ج. بتلر

موسوعة

التاريخ المصري

المجلّد الثالث

فتح العرب لمصر - ١ -

تعريب

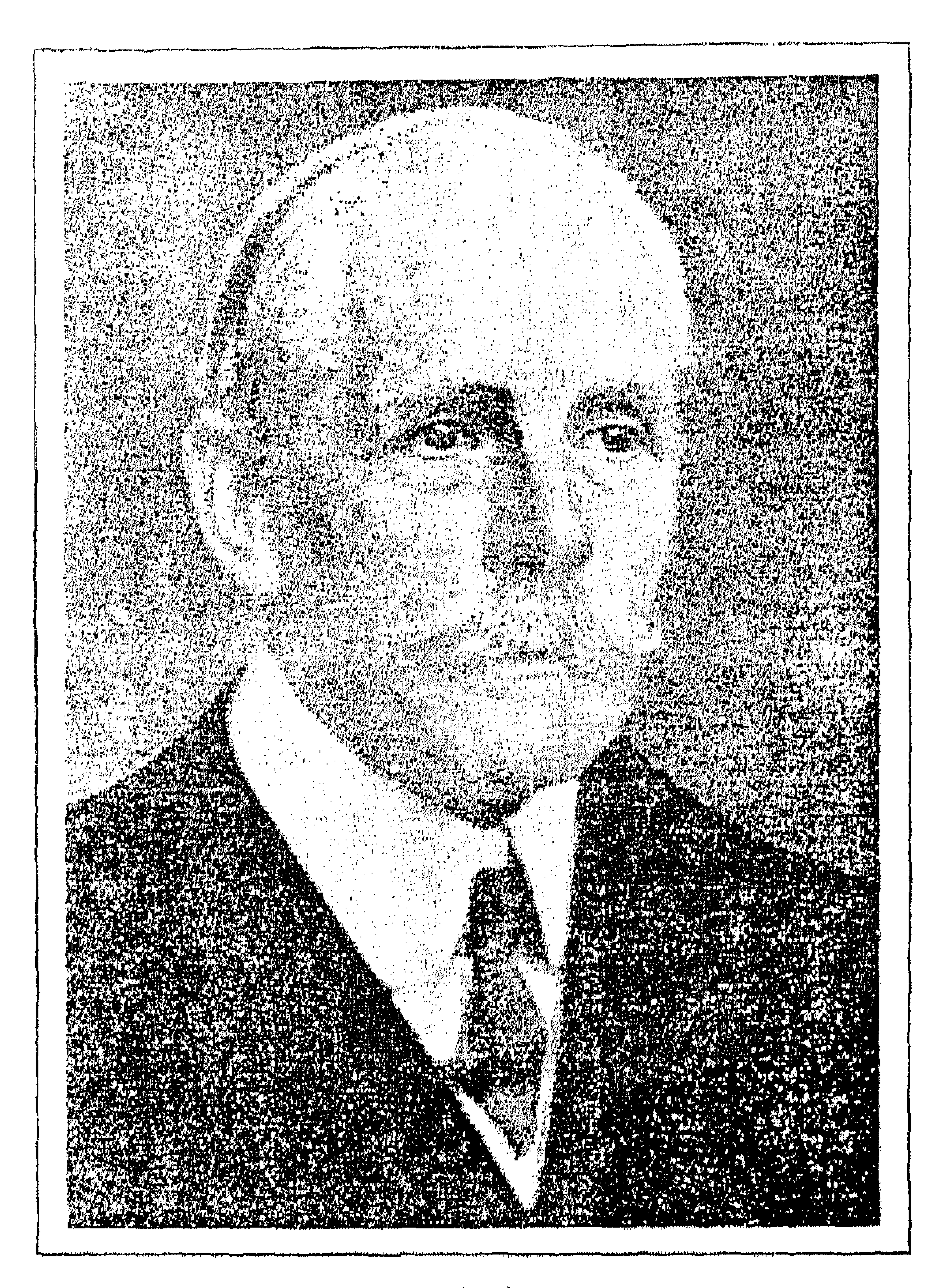
محمد فريد أبي حديد بك

دار نوبليس

اسم الموسوعة:	موسوعة التاريخ المصري
اسم الكتـــاب:	فتح العرب لمصر - ١ -
اسم المؤلـف:	الدكتور الفرد ج. بتلر
اسم المعـرب:	محمد فريد أبو حديد بك
قياس الكتـاب:	١٧ × ٢٤
عدد الصفحات:	٢٠٠
عدد صفحات الموسوعة:	٨٨٤٠
مكـان النشـر:	بيروت
دار النشر والتوزيع:	دار نوبِليس
تلفاكس:	٧٥ ٣٤ ٥٨ (١) ٩٦١
هاتـف:	٢١ ١١ ٥٨ (١) ٩٦١ - ٢١ ١١ ٥٨ (٣) ٩٦١
صندوق بريـد:	٧٠ ٦٩ ١٦ بيروت لبنان
بريد إلكتروني:	info@nobilis-int.com
الطبعة الأولى:	٢٠١٢

EAN 9786144031339

ISBN 978-614-403-133-9



المؤلف
الدكتور ألفرد . ج . بتلر

فهرس الكتاب

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

مقدّمة المعرّب
(الطبعة الأولى)

ألف الدكتور « ألفرد .ج . بتلر » هذا الكتاب منذ ثلاثين عاماً ، وعرفته منذ عشرين، فكان من الكتب التي خلفت في نفسي أثراً كبيراً ، يمتزج فيه الإعجاب والتقدير بالرغبة في أن تتملك اللغة العربية بحثاً قيماً مثله ، والأسف على أن يخلو تراثنا الأدبي من كتاب نظيره . وأي شيء أعجب من أن تكون لغتنا هي العربية ، وأن يكون الفتح العربي حداً فاصلاً في تاريخنا يفتح صفحة جديدة في حياتنا ، ثم مع هذا لا نجد وصفاً عربياً لذلك الفتح يمكن أن يعتمد على دقته ، ويوثق بتحريه . فكانت النفس تتطلع إلى ضم كتاب الدكتور بتلر إلى ثروتنا الأدبية ، غير أنه كان يقعدها التفكير في مشقة ذلك العمل، ومظنة العجز عن إنجازه ، وقلة الثقة بالقدرة على نشره . ثم أتيح لي أن أحقق ذلك الحلم بأن ناطت بي « لجنة التأليف والترجمة والنشر » ترجمة ذلك الكتاب إذ إختارته من بين الكتب القيمة التي تسعى أبداً في إظهارها ونشرها، فوجدت في تكليفها سرور الساعي إلى تحقيق أمنية طالما تاقت نفسي إليها ، وأرى أن هذا مكان لائق لكلمة أقولها عن تلك اللجنة المباركة التي ما سعت إلى أن يعرف أحد عملها وهي دائبة لا تفتر عن العمل في خدمة العلم والأدب ، وما قصدت قط أن تظهر للملأ فضلها ، وهي ماضية قدماً في جهادها في ميدان التثقيف والتنوير ، لم تقف خدماتها عند حد سياسي ولا عند وطن، بل كانت خدمتها للناطقين بالعربية أجمعين ، بادئة بالكنانة المحروسة ، مصرنا المحبوبة . ولو كنت من غير أعضاء لجنة التأليف لوجدت مجال القول بعد فسيحاً ، ولكن حسبي ذلك القول .

وبعد ، فقد كان من حق هذا الكتاب أن ينقل إلى العربية منذ ظهر فإنه يسد ثلمة في تاريخ العرب ما كان ينبغي لها أن توجد ، وما كان أجدر بأن ينقله إلى العربية مضري إذ أن الكتاب يتعلق بتاريخ مصر .

غير أن الذي عاقني عن ترجمته قد عاق أمثالي عنها ، ولم يكن أحد ليستطيع مثل ذلك العمل الكبير في مصر إلا إذا شدت أزره هيئة علمية قوية . ولكن الخير إذا جاء متأخراً فليس ذلك بناقص من قدره . ولعل تأخر ظهوره في العربية إلى يومنا هذا كان عن قدر وحكمة ، فإن للكتاب معنى كان لا يظهر في الماضي ظهوره اليوم ، فهو اليوم في إبانة وأوانه، والأحوال ملائمة له، ومجرى الأهواء مستعد لقبوله وتلقيه . ذلك بأن مؤلف الكتاب رجل باحث لم يقصد من تأليف كتابه إلا بيان الحقيقة ناصعة ، فلم يكن ممن يذهبون في التأليف إلى غرض من دعاية دينية أو سياسية ، ولا ممن يتسترون بالعلم من أجل غرض يخفيه ، أو شهوة يسترها ، بل كان نزيهاً في بحثه ، قاصداً في قوله إلى اللباب . ومثل هذا البحث لا يدركه القراء حق إدراكه، ولا يقدره الناس حق قدره، إلا إذا كان الجوّ المحيط بهم جوّ بحث وراء الحق ، ودرس لإجلائه ، والإبانة عنه . ونحمد الله إذ قد بدت في مصر هذه الأيام حركة جدية نحو البحث والدرس ، ولسنا نشك في أن هذا الكتاب ممتزج بها ، سائر في مسيرها ، جار في مجراها .

غير أن الأمر غير قاصر على ذلك ، فإن الوقت الحالي أسعد الأوقات لظهور هذا الكتاب من ناحية أخرى ولعلها أجل شأناً وأبلغ خطراً :

ذلك بأن العرب لما دخلوا مصر كانوا فئة قليلة ،. وجعلوا يتخذون لهم في مصر نظاماً ينتزعونه مما سبق من نظم الحكم في البلاد ، وجعل عددهم يتزايد ممن دخل في الإسلام من أهل البلاد طوعاً أو كرهاً ، فإذا مصر بعد قرن فيها عدد كبير من المسلمين، وبعد أن كانوا فئة قليلة حاكمة أصبحوا فئة كبيرة تشترك وأهل البلاد في أعمال الحياة . فنشأ بين أهل مصر ما ينشأ بين الجيران المختلفي المشارب من المنافسات والمنازعات ، وزادت تلك المنافسات على

مر الزمن حتى كانت أحياناً تتخذ شكل ثورة من أهل البلاد المسيحيين ، وكان ردّ ذلك قاسياً من جانب الحكومة القائمة التي ما كانت لتدع الثورة يندلع لهيبها من غير أن تقضي عليها . ثم مضى الوقت وكان عدد المسلمين يتزايد وعدد المسيحيين يتضاءل، وتغيرت الدول وتبدّلت نظرتها إلى واجبها في الحكم وداخل المسيحيين ما يداخل الأقلية عادة من الإنطواء على نفسها .

كانت مصر قبل الإسلام أمة واحدة يحكمها الروم ، واحتفظت بقوميتها وحاطتها بمذهب ديني مستقل حافظت عليه أشدّ المحافظة، وما كانت محافظتها على مذهبها الديني إلا صورة من صور الحرص على بقاء شخصيتها ودوام إستقلالها . فلما جاء الإسلام أصبح أهل مصر بعد بضع قرون قسمين كل منهما منفصل عن الآخر رغم تجاورهما ، وصار فيها شعبان متنافسان يحمل أحدهما لواء الكثرة والسيادة ، ويحمل الآخر سلاح الراغب عن الإمتزاج والفناء .

وقد نكون على حق إذا نحن قلنا إن الأمر بقي على تلك الحال إلى العصور الحديثة . غير أن ذلك الإنفصال طور متوسط في حياة الشعوب ، وما كان لشعب أن يبقى على ذلك إلى الأبد ، فإن سنة الطبيعة أن يمتزج سكان القطر الواحد ، ويشتركوا في المصالح ، ويشعروا بأنهم أهل وطن واحد ، تجمعهم الحياة نفسها ، وتقرب بينهم أواصر الجوار والإشتراك في سراء الظروف وضرائها . على أن بلوغ ذلك لا يكون إلا إذا مهدت له الظروف وعملت على إحداثه الأحداث . والأحداث لا تخلق ، وإن سعى الناس إليها، بل إن الناس ينساقون فيها ، وقد يؤثرون فيها بعض الأثر أثناء إندفاعهم في تيارها القوي . وقد تهيأت الظروف إلى ذلك الإمتزاج منذ عهد قريب ، فقد يمكن أن نقول ـ وفي قولنا كل ما يدعو إلى الوثوق ـ إن سنة ١٩١٩ كانت حدّاً فاصلاً بين عهد قديم وعهد حديث ، بين عهد لم يكن الشعب المصري يحس أنه شعب مرتبط مشترك ، وعهد آخر يشعر فيه المصريون جميعاً أنهم أهل بلاد واحدة . وها نحن اليوم نشهد جيلاً جديداً من المصريين آخذاً في الإمتزاج والإشتراك على أساس وطنية صادقة ، ووحدة لا تفصم عراها . فلو ظهر هذا الكتاب من نحو عشرين سنة لما قدّره أهل مصر قدره ، ولما تبينوا فيه روح مؤلفه

العادل ، ولما أدركوا ما في صدره من سعة ، وما في عقله من رجحان، وأما اليوم فإنهم لا شك يقدّرونه ويدركون ما فيه من عدالة ونفوذ رأي . فمؤلف الكتاب معجب بالعربي ، ومعجب بالقبطي، فهو يذكر حوادث التاريخ ذكر القاضي الناقد، لا يعبأ أين تميل به الحجة ، لأنه لا يقصد إلى نصر فئة ولا الدعاية لشعب، بل يذكر ما كان في الماضي، ويوضح ما فيه من المسائل من غير أن تكون في نفسه مرارة ، أو يكون في حكمه زيغ . فهو إن رأى الحجة مع العرب أبان عنها بياناً شافياً ، وإن رأى الحجة مع القبط كشف عنها كشفاً صريحاً، وفي نفسه سرور الباحث عن الحقيقة إذا وفق إلى كشفها ، إذ ليس في قلبه ما يسخطه على تلك الحقيقة إذا هي تبدّت في جانب دون جانب . فالمصريون في هذه الأيام يستطيعون أن ينظروا إلى الماضي نظرة إلى تاريخ جرت حوادثه جرياناً طبيعياً ، ساقتها إليه الظروف التي كان لا بدّ من أن تسوقها إليه . ويستطيعون إذا رأوا ما يؤلم في ذلك الماضي أن يتخذوا منه عبرة من غير أن تثور حفيظتهم ، إذ أن الأخ لا تبعده عن أخيه ذكريات ما كان بين الجدود من إحن أو منافسات . فلنا أن نعتقد أن قيمة هذا الكتاب تبدو على حقيقتها اليوم ، وما كانت لتظهر من قبل مثل ظهورها هذا إذ كانت تتنازع القلوب عوامل الحياة نفسها فتغلب على حكمها .

كان للمؤلف فضل التعرّض لبعض مفتريات التاريخ ، وكانت شائعة بين الناس يأخذونها تلقفاً بغير تمحيص . وطالما كانت تلك المفتريات عضداً لمن أراد البغي على المصريين ، إذ يسوقها حجة عليهم . وكان المظهر التاريخي الذي يبدو عليها يخدع القارىء عن حقائقها .

وإليك مثلين لتوضيح ذلك ، فقد تناول المؤلف في أول بحثه مسألة طالما ردّدها المؤرّخون وهي إتهام المصريين القبط بأنهم كانوا دائماً يرحبون بالغزاة الأجانب ، فرحبوا أوّلاً بالفرس، ورحبوا ثانياً بالعرب ، يريدون بذلك أن يتخلصوا من نير ليضعوا نيراً آخر على رقابهم . وقد أظهر المؤلف في حادث من هذين الحادثين كذب ما آدّعاه المغرضون من المؤرخين ، وخلص إلى أن القبط

إنما كانوا أمة شاعرة بوجودها، متماسكة فيما بينها مستمسكة بمذهبها الديني ، وقد اتخذت ذلك المذهب الديني رمزاً لاستقلالها ، فضحت في سبيله بكل شيء ، وكانت ـ وهي تفعل ذلك ـ تحافظ على إستقلالها وشخصيتها من أن تندمج في أمة أخرى . أظهر المؤلف أن تلك الأمة التي حافظت تلك المحافظة المرّة على شخصيتها، لم تكن لترضى بأن تفتح ذراعيها لكل سيد جديد ، وتقف معه في وجه السيد القديم ، بل كان كل ما فعلته أن بقيت مكانها لا تحرك ساكناً برغبتها ، تاركة ميدان النضال بين المتنافسين ، إذ لم يكن لها مصلحة في الدفاع عن سيد أذاقها مر العذاب في محاولته القضاء على إستقلالها . وهكذا أظهر المؤلف أمة القبط في ثوب العزة والأنفة ورمى عنها ما كان المؤرّخون قد ألقوه ظلماً عليها من التهم الشنيعة بإظهارها في مظهر الدناءة والذلة .

ولكن هذه الروح العادلة التي حدت بالمؤلف إلى نصرة الحق في جانب أمة القبط ، حدت به كذلك إلى نصرة الحق في جانب أمة العرب ، فلم يحاول أن يخفي من فضائلها شيئاً . أو يعكر من صفو سيرتها في مدّة فتح مصر ، بل كان عادلاً في وصف الأفراد والمجموع ، نرى إعجابه بقائد القوم عمرو بن العاص، كما نرى إعجابه بروح البساطة والطهارة التي كان عليها غزاة العرب إذ ذاك . ثم نراه تعرض لمسألة خاض فيها المؤرخون المتأخرون ووجدوا فيها سبيلاً للطعن في سيرة العرب ، وهي إحراق مكتبة الإسكندرية ، فأبان هناك عن الحق راجعاً إلى أسانيد التاريخ ، حتى أظهر أن العرب عندما غزوا الإسكندرية لم يجدوا هناك مكتبة كبرى ، إذ كانت مكاتب تلك المدينة قد ضاعت ودمرت من قبل غزوتهم بزمن طويل .

وبعد، فإن هذا الكتاب له قيمة خاصة لسبب آخر فوق ما سبق لنا بيانه ، وذلك أن تواريخ العرب وفتوحهم لم يتناولها إلى الآن كاتب حصر همه في ميدان محدود وبحث فيه بحثاً مستفيضاً ، كما فعل مؤلف هذا الكتاب . فنجد كثيراً من الكتب تصف سيرة العرب إجمالاً، وتتعرض إلى فتح مصر في قول موجز لا يزيد على عشرات من الصفحات ، وأكثر هؤلاء المؤرّخين إنما يرجعون إلى ما كتبه العرب في دواوين أخبارهم . غير أن هذا الكتاب الذي بين أيدينا لا يتناول

إلا فتح العرب لمصر ، وهو في أكثر من خمسمائة صفحة ، وقد رجع مؤلفه إلى أسانيد القبط والأرمن والسوريان واللاتين وغيرهم ، كما رجع إلى مؤلفات العرب ، فكانت نظرته من غير جانب واحد ، ولهذا نراه أقرب إلى التمحيص ، وأحرى بأن يكون قد أصاب القصد .

والحق أن تاريخ الفتح في أشدّ الحاجة إلى ذلك التمحيص ، فكم به من مسائل غامضة يجب على المؤرّخ أن يجلو غموضها ، نضرب لذلك مثلاً شخصية المقوقس ، فإنا نسمع ذلك الاسم يتردد في كتب التاريخ عند ذكر رسالة الرسول ﷺ إلى حاكم مصر، ونجده مذكوراً في أثناء الفتح عند ذكر المفاوضة بين العرب والروم ، ونجده كذلك مذكوراً عند تسليم الإسكندرية ، وقد سماه بعضهم جورج أو جريج بن مينا ، وسماه بعضهم ابن قرقب أو قرقب ، وجعله بعضهم من أهل مصر ، وقال آخرون إنه يوناني وهو بين كل ذلك يلوح في وسط ظلمة من الشكوك لا يكاد الإنسان يعتقد أنه شخص طبيعي وجد حقيقة في تلك الأحداث . غير أن المؤلف ما زال يقارن ويناقش ويفحص حتى خرج إلى أن المقوقس لم يكن سوى قيرس البطريرك الملكاني بالإسكندرية ، الذي جمعت له ولاية الدين والدنيا معاً في أيام هرقل وخلفائه ، على أن المؤلف قد إستدرك الأمر فأظهر أن ذلك الاسم قد أطلقه العرب على سبيل التعميم على الذي كان بطريرك الروم قبل قيرس ، كما أطلقوه على بنيامين بطريرك القبط الذي كان طريداً وعاد بعد أن استقر العرب في مصر . وقد كان يخالفه في هذا الرأي كتاب أكبرهم الأستاذ ستانلي لين بول ، غير أن ذلك الأستاذ لم يسعه بعد أن اطلع على ما كتبه المؤلف في بحوثه المختلفة عن شخصية المقوقس إلا أن يذعن للحق ، فكتب إليه في يوم عيد ميلاده يقول : (وإني جاعل هديتي في عيد ميلادك شهادتي بالرجوع عن رأيي في معارضتك في شخصية المقوقس ، إذ ثبت لديّ أنه لم يكن قيرس) .

وقد رأينا أن نورد أبحاث المؤلف في هذا الشأن تفصيلاً ، فأضفنا إلى الكتاب ذيلاً جديداً ضمناه ما كتبه المؤلف عن المقوقس في رسالة أصدرها بعد إصداره هذا الكتاب وهي : (معاهدة مصر في الطبرى) .

وقد عانينا كثيراً في أثناء ترجمة هذا الكتاب إذ أن المؤلف يقتبس فقرات كثيرة عن كتاب العرب ، وبعض تلك الفقرات نصوص لا بد للمترجم أن يرجع إلى أصولها في اللغة العربية ، وقد وفقنا ولله الحمد إلى الوصول لتلك النصوص في أغلب الأحوال ، ولكن عجزنا عن بعضها بغير تقصير منا ، ولنضرب لذلك قطعة منقولة عن هشام بن الكلبى وهي عبارة عن مناظرة لعمرو بن العاص في حضرة معاوية[1]، فقد بحثنا في كل ما استطعنا الوصول إليه من كتب التاريخ والأدب فلم نجد ذلك النص ، ثم سألنا كثيراً من المتأدبين في مصر فلم يهتدوا إليه ، وأرسلنا في طلب ذلك إلى المؤلف نفسه ولكن طول العهد قد أنساه من أين أتى بذلك النص فأرسل يعتذر وله العذر قائلاً (لعلي أخذت ذلك النص من بعض مقتطفاتي من مكاتب باريس ومدريد) . فاضطررنا أمام هذا أن نترجم النص الإنجليزي بقدر ما استطعنا من التقريب إلى أسلوب عصر معاوية وعمرو .

وقد وردت في الكتاب مقتطفات كثيرة عن اللغتين اليونانية واللاتينية ولم يكن لنا حظ العلم بهاتين اللغتين فاستعنا ببعض من لهم إلمام بهما ، فأما النصوص اليونانية فقد ترجمها لنا صديقنا المسيو كلونارس ، وأما النصوص اللاتينية فقد ساعدنا صديقنا المستر وير المدرّس بمدرسة الأمير فاروق بأن أرسلها إلى صديق معروف بالتفوّق في تلك اللغة وهو (القاضي بربكهيد) فترجمها . فلهم جميعاً عميق الشكر على خدمتهم الجليلة . وكان لا بد لنا مع هذا من إثبات الأصل ، فأما النصوص اللاتينية فقد كان من السهل إيرادها في هوامش الكتاب ، وأما النصوص اليونانية فقد تعذر علينا ذلك فوضعنا علامة نجمة في موضع النص مع كتابة رقم مسلسل بجوار النجمة ثم ألحقت كل النصوص اليونانية في آخر الكتاب مسلسلة بأرقامها ، ليطلع عليها من شاء .

محمد فريد أبو حديد

---

(١) وقد وفقنا بعد ذلك بالمصادفة إلى العثور على النص الأصلي لتلك المناظرة وأثبتناها في هذه الطبعة الثانية .

مقدمة المؤلف

لعلنا لسنا في حاجة إلى الاعتذار عن تأليف هذا الكتاب فيما يمس الغرض منه فإنما الغرض منه أن نبني تاريخاً واسع المدى مفصل الأخبار لفتح العرب مصر . ولم يسبق لأحد أن كتب مثل هذا التاريخ اللهم إلا رسائل متفرّقة ألمّ كاتبوها ببعض هذا الأمر إلماماً . أمثال (جبون) ومن جاء بعده . وتلك الرسائل ما هي إلا بعض أبواب أو فصول موجزة داخلة ضمن مؤلفات مكتوبة عن دولة الروم أو عن دولة العرب. وفي الحق أنه لَمِمَّا يسترعي النظر ألا يكون في أية لغة من اللغات بحث مفصل له قيمة يصف تاريخ ذلك الفتح . وقد كان ذلك من سببين اثنين . أولهما قلة ما لدينا من الأخبار التي يمكن أن يعتمد عليها الباحث العادي . وثانيهما ذلك الخلاف الواسع بين الرواة والمصادر سواء منها المشهور وغير المشهور وسواء منها الشرقي والغربي .

وعلى ذلك فقد لف هذا الموضوع ظلام دامس فكان الوالج فيه مقدماً على تيه حالك من الخلاف والتناقض . وقد يلوح قولنا هذا كان فيه مبالغة ومغالاة ، ولكنه الحق لا شك فيه ويعززه رأي كاتب معروف وهو المستر (E. W. Brooks) إذ يقول : « وقل أن نجد حادثاً هاماً من حوادث التاريخ قد خفيت أخباره واختلف في رواياتها كما هو حال تاريخ فتح الإسكندرية . حقاً إن تاريخ غزو العرب للدولة الرومانية كله تاريخ مظلم غامض ؛ ولكن تاريخ مصر أشدّه ظلمة وحلوكة »[1] .

(١) (Byzantinische Zeitschrift. 1895) صفحة ٤٣٥ .

وقد أقدمنا على تأليف هذا الكتاب وقصدنا منه ـ على الأقل فيما اختططنا لأنفسنا ـ أن نجلو بعض تلك الظلمة التي تلف الأمر لفاً ، وأن ندخل إلى الموضوع نتائج البحث الجديد وأن ننتفع بما صار في متناول اليد من الأخبار الجديدة ، وأن نقرن ما جاء في كتب مؤرّخي الشرق بعضه إلى بعض ثم نعالجه بالفحص والتمحيص حتى نقيم تاريخ هذا العصر على أساس علمي . ولم يخف عليَّ ما في عملي من تقصير عن الخطة التي رسمتها له ، بل إني عالم به حق العلم فقد أخفقت طريقتي في بعض الحالات ولم أفلح فيما قصدت منها فكنت في ذلك عند قول (Maeterlinck) كمن يضع عدسة منظاره المكبر على سكون وظلمة » . غير أني أقر أن إخفاقي كان في حالات أخرى راجعاً إلى عجز فيّ أنا لضعف علمي باللغة العربية ، ومشقة السير في عملي في فترات قصيرة من أوقات الفراغ ، وهو عمل يتطلب إستقرار الذهن والبحث الدقيق المتواصل . على أنني أرجو أن عملي هذا سوف يبعث على زيادة البحث ويحفز إلى المضي في الدرس . والحق أنني ألفيت نفسي مضطراً إلى مخالفة جل ما آستقرت عليه الآراء في موضوع الفتح العربي فإنك تجد سيرة الفتح حتى فيما كتبه أحدث المؤرّخين وأقربهم عهداً لا تزيد في مجملها عما يلي :

أنه قبل غزوة العرب ودخولهم فعلاً في البلاد كانت مصر قد وضعت عليها الجزية مدة ثلاث سنين أو تزيد ، وضعها عليها قيرس (المقوقس) ، ثم منع منويل تلك الجزية فجاء العرب يغزون البلاد من أجل ذلك ، وأن المقوقس كان من القبط وانضم إلى العرب وأن القبط عامة رحبوا بالغزاة ورأوا فيهم الخلاص وأسدوا إليهم كل مساعدة ، وأن الإسكندرية فتحت عنوة بعد حصار طويل مليء بالحوادث العجيبة والمخاطرات المثيرة .

مثل هذه السيرة هي التي أثبتها هؤلاء المؤرّخون . ولعل القارىء يظن أننا نغالي ونبالغ إذ نقول إن تلك القصة لا حقيقة لها من بدئها إلى ختامها ، ولكننا لا نرى رأياً غير هذا . وإنا إذا بحثنا الأمر وفحصنا هذه العبارات جميعاً وعرفنا منشأها وأساسها لاح لنا أنها تقوم على أساس من الحقيقة أو من شبه الحقيقة .

ولا شيء أدعى للنظر ولا أروح للنفس من أن نفحص تلك الحقائق ، ونرى كيف حوّرت وحرفت حتى أمكن أن تلفق منها قصة تاريخية كاذبة وإن شئت قلت خرافة . وقد لا يُعجب القارىء أننا أطلنا في الهوامش والحواشي في بعض المواضع . وجوابنا على ذلك أننا قد رأينا واجبنا أن نثبت المراجع التي رجعنا إليها والأسباب التي حملتنا على الذهاب مذهبنا الذي سلكناه . ورأينا الإفاضة والإطالة أولى بنا في مثل هذا الموضوع وحيالنا ميدان فسيح مليء بالأخبار المتناقضة والخلافات العظيمة . فأطلنا وأفضنا وما كان ينبغي لنا ذلك لو كنا نعالج أمراً أقل رقعة وأضيق ميداناً . وكذلك قد أطلنا في ملحقات الكتاب ولكن لقد كان من أوجب الواجبات أن نقيم لأنفسنا بناء لتاريخ ذلك العصر ونتخذ نظاماً لتسلسل تواريخه وضبطها . فمثلاً لم يكن من الممكن أن نكتب تاريخ الفتح إلا إذا جلونا حقيقة المقوقس . ولم يكن لنا كذلك بد من رسم خطة تامة لتسلسل التواريخ فيه . فلم يكن بالمجزىء أن نثبت ما نستخلصه من النتائج وهي في كثير من الأحيان طريفة لم يسبق إليها أحد بغير أن نبين الدعائم التي أقمناها عليها . ولقد كانت تلك الدعائم كثيرة الشعب والوجوه سواء كان ذلك فيما يخص شخص المقوقس أو تواريخ الفتح الفارسي أو تواريخ الفتح العربي .

وأما موضوع الكتاب فقد بدا لنا أن كتابة تاريخ الفتح العربي لمصر يجب ألا يعالج على أنه حادث منقطع العلاقة بسائر حوادث التاريخ ، بل إنه حادث لا يظهر خطره ولا تتضح حقيقته إلا إذا قرن بالأحداث التاريخية الكبرى التي ساقت دولتي الروم والفرس القديمتين إلى الإصطدام بالدولة العربية الناشئة . وقد رأينا أن حكم هرقل علم ظاهر من أعلام التاريخ يليق لأن نجعله مبتدأ تاريخنا . ومن لطائف الإتفاق أنه يبدأ على حوادث ذات شأن عظيم وقعت في مصر وكانت لا تزال مجهولة خافية . فقد حدث في أثناء ذلك الحكم أن تمزق ملك فارس وأن بعث (النبي) محمد وقام برسالته ونشر دينه ، وأن أفلت حكم بيت المقدس والشام من أيدي القياصرة ، وملك كسرى بلاد مصر، كما أننا نطلع منه على الأسباب السياسية والدينية التي مهدت السبيل لإنتصار سيف

الإسلام وصولة القرآن . على أننا في الوقت عينه لم نَنْسَ أن نلقي نظرة على مجرى الحوادث التي كانت تحدث فيما وراء حدود مصر ، في إلمامة قصيرة حتى تكون تلك الحوادث الخارجية ثانوية تابعة لا تغطي الغرض الأول من الكتاب .

ولا غنى لنا عن التعرّض بالقول للمراجع التي رجعنا إليها في تاريخ هذا العصر الذي اخترناه . فنذكر أوّلاً من التواريخ القصيرة التي كتبها أهل الغرب في العصور القريبة (His. of the Saracens) وهو تاريخ عجيب ألفه (أوكلي) وتكاد شهرته بين الناس تعدل شهرة كتاب جبون وهو (Rom. Empire.) ثم نذكر كتاب (شارب) وهو (EG. under The Romans) ، ولكنه ليس بالمؤلف الكبير القيمة . ونجد أخباراً طريفة وبحثاً حديثاً في الطبعة التي أخرجها الأستاذ (بوري) من كتاب تاريخ (جبون) وفي الكتاب الذي ألفه الأستاذ نفسه وهو (La-ter Rom. Empire) ونجد مثل هذه الفوائد في كتاب المستر (ملن) وهو (EG. under Rom. Rule) وكتاب الأستاذ ستانلي لين بول.وهو (EG. in The Mid. Ages) ورسالته عن القاهرة في سلسلة الرسائل المسماة (Mediaeval Towns) . وكتاب ڤيل (Geschichte der Chalifen) مرجع قيم، بل هو لا غنى عنه على أنه قد تقادم عليه العهد ، وكتاب (فون رانكه) (Weltgeschichte) يحوي نبذة عن الفتح ومقالاً عن عمرو في مصر ، وفيها يردّد الكاتب الأخبار المتداولة، ولعلنا نستطيع تلخيص رأي (فون رانكه) في كلماته التي قالها هو وهي «وكان فتح مصر ناشئاً من خيانة خائن قبطي خرج من قومه واستظل بألوية العرب» وذلك لعمري رأي لا تقوم له اليوم قائمة في ميدان البحث. وأما المؤلفات الفرنسية الكبرى فلا بد لنا أن نذكر منها كتاب (ليبو) طبعة (سان مارتان) وهو (Histoire du Bas Empire) وهو كتاب لم يزد عليه المتأخرون إلا قليلاً أو لم يزيدوا عليه شيئاً . وأما كتاب سيديو (Histoire Generale des Arabes) فقد جاءت فيه نبذة عن الفتح ولا يكاد الإنسان يجد بها جملة واحدة دقيقة . ومثل ذلك (ديهل) نفسه فإنه كتب في كتابه القيم (Afrique Bizantine) ما يأتي : « وقد انحاز القبط إلى جانب المغيرين بغير أن يقاوموا مقاومة تذكر وكانوا

بانشقاقهم هذا سبباً في نصرة المسلمين » (صفحة ٥٥٣) . وأما كتاب (رينودو) (His. Patr. Alex.) فمؤلف جليل فيه درس عميق وبحث مستفيض وله قيمة لا ثلمة فيها في الموضوع الذي يعالجه وقد كان (كاترمير) مؤلفاً اشتهر بسعة علمه ودقة حكمه ومؤلفاته لا تزال على قيمتها العظيمة لم تفقد شيئاً يذكر في نظر الباحثين في تاريخ مصر على أن مؤلفات أهل الغرب لا يجوز الإعتماد عليها وحدها حتى وإن كانت خيراً مما هي وأتم . فإن من أراد أن يبحث بحثاً جديداً من هذا النوع وجب عليه أن يعتمد على المراجع الأصلية . أما تلك المراجع فاليوناني منها مخيب للظن والأمل، فمنها كتاب تيو فانز وقد كتبه المؤلف في سنة ٨١٣ ولكنه أساء كل الإساءة في فهم أخبار الفتح العربي . فتاريخه المجمل المقتضب يخلط بين الفتح الأول والفتح الثاني للإسكندرية مع أنه لا يذكر أحد الفتحين . وهو يخترع معاهدة عقدت مع العرب قبل دخولهم لمصر غازين . وليس في كتابه تناسب ولا تناسق وهو السبب في كثير من التاريخ المختلط المكذوب . ومن كتاب اليونان (نيقفوروس) وهو خير من السابق شيئاً ما ، ولكن كتابه لسوء الحظ ليس به شيء من أخبار ما بين سنتي ٦٤١ ـ ٦٦٨ وما بقي بعد ذلك لا يزيد على أنه « ثبت بأسماء القوّاد المنهزمين » ، وهذان الكاتبان كلاهما يورد نتفاً مفردة غير متصلة ويختلف أحدهما عن الآخر ويذكر كلاهما من تواريخ السنين ما لا يستطاع قبوله .

وأما حنا مسكوس وبطارقة بيت المقدس زكرياس وصفرونيوس فقد كانوا كتاباً دينيين في أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع ونستطيع أن نلمح في ما كتبوه بعض إشارات إلى حوادث سبقت الفتح . وقد ترك (ليو نتيوس) النيابولي في قبرص ترجمة لحياة « حنا الرحوم » بطريق الإسكندرية وفيها فائدة لتاريخ مدّة الفتح الفارسي ، وقد نشرها جلزر نشرة بديعة متقنة . وأما كتاب (Chron. Paschale) أو (Alexandrium) فأغلب الظن أنه كتب في أوائل القرن السابع في مصر ولكنه لا يبلغ عهد الفتح ، في حين إن الكتاب اللاتيني (Chhronicon Orientale) الذي ألفه (Echellensis) مؤرخ في سنة ١٢٣٨ بعد الميلاد .

وأما المراجع الأرمنية فإنها تكاد تكون في نظرنا لا فائدة فيها لتاريخ الفتح مع أنها تذكر بالتفصيل العظيم حروب الدولة الرومانية مع الفرس وتصف ضياع الشام . فالأسقف سبيوس له كتاب ظهر باللغة الروسية وقد حرره المستر (كونيبير) مع ترجمة إنجليزية ولكنه لم يطبع بعد ، وفيه أخبار توضح ذلك العصر ولكن ليس فيها ما يتعلق بمصر أو ما أقل ما يتعلق بمصر فيها . وميخائيل السوري يظهر أنه ينقل عن تيوفانز ، وقد نشر كتابه (لانجلوا) . وأما النسخة التي حررها (شابوت) فإنها لم تتم بعد ، وكتاب (اليشع النصيبي) توجد منه نسخة مخطوطة في المتحف البريطاني ولكن جزءاً منه خاصاً بالفتح العربي قد نشر في (بتجن) .

فلنأت الآن إلى الكُتَّاب المصريين . ويجب أن نجعل أوّلهم وعلى رأسهم حنا النقيوسي وهو أسقف قبطي كتب في مصر في أواخر القرن السابع ولعله ولد حوالي زمن الفتح . وكتابه عبارة عن مؤلف في تاريخ العالم ، وقد كتب جزء منه في الأصل باللغة القبطية وجزء آخر باليونانية ، ويظهر أنه قد نقل إلى العربية في زمن متقدّم جداً وعلى أساس النسخة العربية وجدت ترجمة أثيوبية وهي النسخة الوحيدة الباقية من ديوان حنا وقد ترجمها زوتنبرج وحررها . وأخبار هذا الكتاب ذات قيمة عظمى إذا كان نصها واضحاً غير غامض ولم يتطرّق إليه الفساد . ولكن ذلك الكتاب لا يذكر به شيء لسوء الحظ ما بين تولية هرقل وبلوغ العرب حصن بابليون، وعلى ذلك فكل مدّة الفتح الفارسي وعودة مصر إلى الروم قد ضاعت منه . وكذلك قد اختلطت أخبار آخر مدّة الفتح العربي اختلاطاً عظيماً إذ هي مقلوبة رأساً على عقب لا يستطاع إقامتها ولا يكاد النقد يعيد إليها سياقها . على أنه قد ثبتت منه بعض حقائق من الأمهات الكبرى ولا بد لنا من اعتبارها معالم ثابتة لا تدافع ولا يختلف في صحتها مع أنها تخالف ما جاء في الأخبار العربية المتأخرة عنها . فهي على ذلك أسس متينة لمن أراد أن يبحث في تاريخ هذا العصر . والحق أنه لم يكن في الإمكان أن يكتب تاريخ الفتح العربي لمصر لولا عثرت البعثة البريطانية إلى بلاد الحبشة على نسخة مخطوطة من كتاب حنا . وإنا لنرجو أن يعثر يوماً ما على نسخة قبطية أو

عربية من كتاب حنا النقيوسي تكون سابقة للنسخة الأثيوبية التي وجدت[1] . ولقد وجد الدكتور (شفر) في متحف برلين قطعة من ست صفحات مكتوبة بلغة الصعيد وهي كما قال المستر (كروم) تتفق إتفاقاً يسترعي النظر مع ما جاء في ديوان حنا . وقد ترجم (زوتنبرج) كتاب حنا ونشره نشرة فيها عيوب في بعض نواحي الترجمة وفي حسبان التواريخ ولا يزال أهل البحث على شوق في إنتظار ظهور الترجمة الإنجليزية التي اضطلع بها الدكتور (شارلز) .

وأما المخطوطات القبطية المتقدّمة فلا يعرف منها إلا النذر اليسير مما لا علاقة له بموضوعنا ، وقد عنى المسيو أميلنو بنشر قطع من الوثائق البودلية وبها قطعة من حياة بنيامين (وهو بحث منشور في الجريدة الأسيوية لسنة ١٨٨٨ تحت عنوان « Fragments Coptes Pour servir à l'Histoire de la Conquête de l'Egypte » . وقد نشر العلامة نفسه بحثاً عن حياة صمويل القلموني في (Monuments pour servir a l'Histoire de l'Egypte Chret. aux V^{e} - VII^{e} siècles) . وقد نشرت نسخة أثيوبية من حياة صمويل نفسه وهي (F. M. E. E. نشرها Vido do Appa Samuel do Mosteiro do Kalamon) Pereira) . وهو الذي نشر كذلك عن اللغة الأثيوبية رسالة (Vida do Appa Daniel) ونحن مدينون للمسيو أميلنو كذلك برسالة في ترجمة حياة (بيزنتيوس)، وأخرى في حياة البطريق إسحق وكلاهما عن وثائق قبطية كتبت في القرن السابع وبها نبذ ذات شأن عظيم . ولا شك أن الترجمة العربية لحياة شنوده قائمة على أصل قبطي ، وقد نشرها كذلك المسيو أميلنو . ولكن القيمة التاريخية لهذه الوثائق القبطية ليست عظيمة المقدار فقد كان هم من كتبوها ذكر

(١) يعترف المسيو أميلنو في مؤلفه « Vie du Patr. Copte Isaac » (هامش صفحة ٢٤) أنه يعرف وجود نسخة عربية من ديوان حنا ، ولما سألناه عن موضع تلك الوثيقة لم يزد على أن قال : « إنها في أعماق إقليم من أقاليم مصر » وهو جواب لا يجلو ولا يوضح أمراً ، وقد جاء في كتابه ذاك في صفحة ٢٦ نقد عجيب انتقص فيه المؤلف من مقدار حنا ومن تاريخه وهو نقد لا نوافق عليه ، كما أنا لا نوافق المسيو أميلنو على نظام تواريخه لذلك العصر .

الأمور الخاصة بالكنيسة ، وكلما كانت تلك الأمور خارقة للمألوف كانت عنايتهم بها أعظم . وأما أمور الدنيا وحركاتها التي حولهم فقد كانت قلوبهم منصرفة عنها تكاد تكون مقفلة من قبلها . ولا حاجة بنا إلى الأسف على أن هؤلاء الكتاب كانوا يستطيعون أن يدوّنوا لنا الأخبار الكثيرة ، ولكنهم لم يفعلوا فلا يذكرون من تاريخ عصرهم وحوادثه إلا بعض نتف متفرّقة يذكرونها عرضاً ، ويلمحون إليها تلميحاً .

وإنه لأشد لأسفنا أن حنا النقيوسي وسائر كتاب القبط في القرن السابع تفصلهم حقبة طويلة من الزمن عن الكتاب العرب وهي نحو قرنين . وإنا لنأمل بعض الأمل أن نرأب تلك الثلمة إذا ما تم درس أوراق البردى الكثيرة التي كشفت في الفيوم وسواها . وإن ما تمّ منها للآن على أيدي الدكتورين (غرنفل) و(هنت) وعلى يدي المستر كروم ليس له كبير جدوى في تاريخ العرب غير أن أوراق البردى العربية التي ينشرها الأستاذ (كراباسك) لا بدَّ ترسل نوراً يجلو ذلك التاريخ . ولنا على هذا دليل مما نشره في ثبت بيّن فيه نماذج من تلك الأوراق وعرضه في معرض ڤينا ، وقد كان بينها خطابات من عمال اشتركوا في ميدان الفتح وأورد حنا النقيوسي ذكر أسماءهم كما أورد أسماءهم مؤرّخو العرب .

ولسنا نطمع أن نأتي ببيان مستقص لكل مؤرّخي العرب ، وحسبنا أن نأتي هنا بكلمة عن كل من كبارهم فلعل في ذلك فائدة(*) . فقد كان من أوّل مؤرّخي العرب وأعظمهم قدراً الواقدي (٧٤٧ ـ ٨٢٣ للميلاد) . وقد ضاع كتابه ولم يبق

(*) وإنك تجد ما تشاء من المعلومات فوق ذلك في رسائل المستر (E. W. Brooks) وهي :
(١) « في تواريخ فتح العرب لمصر » ، وقد نشرت في (Byzantinische Zeitschrift) لسنة ١٨٩٥ . (٢) « العرب في آسيا الصغرى » وقد نشرت في (Journal of Hellenic Studies) الجزء ١٨ سنة ١٨٩٨ . (٣) البيزنطيون والعرب في أوائل العصر العباسي ونشرت في (Fng. His. Seview) عدد أكتوبر سنة ١٩٠٠ وانظر كذلك مقالة المستر (Guest) في الكتاب الذين نقل عنهم المقريزي وقد نشرت في جريدة الجمعية الملكية الأسيوية عدد يناير سنة ١٩٠٢ .

منه إلا المقتبسات الكثيرة والإشارات العدّة التي بقيت في كتب المؤرّخين الآخرين . وأما تلك الكتب التي تحمل اسمه مثل كتاب « فتوح مصر » فإنها تنسب إليه خطأ ولكنها في العادة تذكر منسوبة إلى اسمه تسهيلاً في القول بدل أن يقال إنها تأليف « المدّعي بأنه الواقدي » .

البلاذري (٨٠٦ ـ ٩٢) ـ تعلم في بغداد ثم تردّد على أبواب الخلفاء وكتب حوالي سنة ٨٦٨ كتابه « فتوح البلدان » وهو كتاب في ذكر الحروب والغزوات مرتبة بحسب الأقطار والأقاليم . وهذا الكتاب إذا لم يكن أوّل الكتب عهداً وأغزرها مادة فهو بغير شك حجة من أعظم المراجع قيمة . ويتضح منه أنه قد كان منذ القرن التاسع خلاف عظيم في الآراء عن تفاصيل فتح مصر . واسمه مشتق من « حب البلاذر » وهو مادة مخدّرة وقد كان موته ناشئاً من أخذه جرعة منه زائدة عن طاقته . والعلامة (Weil) لا يعرف البلاذري .

ابن عبد الحكم (المتوفى بالفسطاط سنة ٨٧٠) ـ مؤلفه موجود في نسخة وحيدة مخطوطة لم تنشر بعد وهي في باريس ولكن قد أعدّت العدّة لنشرها وإن الباحثين في الأمور الشرقية ليتطلعون إلى ذلك تائقين وقد نقل كثير من الأخبار عن ذلك المؤلف نقلها المؤرّخون المتأخرون من الغرب كما نقل عنه (ڤيل) و (كاترمير) ويختلط في كتاب ابن عبد الحكم كثير من قصص الخيال بأخبار التاريخ ولكن لو نشرت منه نسخة منقودة لكانت ذات شأن عظيم .

وثمت الكثير من أوائل من كتبوا في وصف البلدان باللغة العربية وقد نجد في كتبهم كثيراً من الأخبار التاريخية التي لها قيمة عظمى وقد نجد نصوص أكثرهم في كتاب (دي غويه) (Bibliotheca Geographica Arabica) ، ونذكر من هؤلاء الأصطخري (ولعله ممن كتب في القرن التاسع) وأبا القاسم بن حوقل (وكتب حوالي سنة ٩٦٠ للميلاد) وشمس الدين المقدسي وابن رستاه وابن الفقيه (وكتبا حوالي سنة ٩٠٠ للميلاد) وابن واضح أو اليعقوبي (المتوفى سنة ٨٧٤ للميلاد) وهو حجة عظيم القدر غير أن ڤيل لا يعرف عنه شيئاً والمسعودي

(وكتب حوالي سنة ٩٦٠ للميلاد) وهو كاتب دقيق الملاحظة وما كتبه ذو قيمة كبرى في وصف آثار الإسكندرية .

ابن قتيبة (٨٢٨ ـ ٨٩ للميلاد) ـ خلف « كتاب المعارف » وهو عبارة عن قاموس تاريخي لتراجم حياة الأعلام وقد قال عنه (فوستنفلد) « إنه أقدم الكتب التاريخية المحضة التي بقيت إلى الآن من مؤلفات العرب » ولكن الظاهر أنه أخذ أخباره من الرواية الشفوية وحدها بغير أن يرجع إلى المدوّنات وقد أكثر النقل عنه متأخرو المؤلفين العرب غير أنه لم يأت في أخباره عادة إلا بالقليل وأسلوبه غير مفصل ولا مستفيض وذلك أمر غير عجيب بل هو المتوقع منه .

والآن فلننتقل إلى ذكر علم من أشهر الكتاب ومن أجلهم قدراً في أكثر ما كتب وهو الطبري (٨٣٩ ـ ٩٢٣ للميلاد) . وقد ولد في بلاد طبرستان واسمه مشتق منها وتلقى كثيراً من العلم ثم ضرب في البلاد فذهب إلى العراق والشام ومصر ودرس القرآن والحديث والفقه والتاريخ ، ثم عاد إلى بغداد وأقام بها واشتغل بالتدريس والكتابة ، وأخباره في العادة دقيقة ويعني بها عناية كبرى ويفصل فيها تفصيلاً وافياً ، ولكن من أكبر ما يدعو للأسف أن كتابه ناقص نقصاً عظيماً في أخبار فتح مصر فإن روايته في ذلك قلة شديدة وزيادة على قلتها قد دخلها خلط كبير في كل ما يتعلق بوصف البلدان وتواريخ الحوادث وذلك يدعو إلى كثير من التضليل . على أننا نرى أنه من الجائز أن يكون العيب في ذلك عيب النسّاخ وليس عيب المؤلف إذ قد يكون النساخ قد اختصروا الأصل ولم تكن لهم خبرة تسددهم في إختيار ما يجب اختياره وإغفال ما يجمل بهم إغفاله من الأخبار والروايات التي أوردها المؤلف بعضها إلى جانب بعض في ديوانه . ولعل ذلك يوضح لنا العلّة في أمر عجيب في ذلك الكتاب إذ جاء فيه ما قد يفيد أن فتح الإسكندرية قبل فتح منفيس أو مصر .

والمؤرخ المسيحي سعيد بن بطريق معروف معرفة عظيمة باسم آخر أكثر شيوعاً ، وهو (أوتيكيوس) ، وعلى ذلك فلسنا في حاجة إلى الإطالة في ذكره فقد ولد في الفسطاط في سنة ٨٧٦ وتوفي سنة ٩٦٠ للميلاد ، وكان عالماً ممتازاً

في الطب والدين والتاريخ وصار بطريق الملكانية من سنة ٩٣٣ واستمرّ عليها إلى وفاته وينتهي ديوانه في سنة ٩٣٨ ، وقد نسج به تاريخاً سائغ المقرأ غير أنه لم يكن تاريخاً نقدياً ، وقد جمع في نسجه كل ما وجده دونه من خيوط الأخبار في المؤلفات ، وعلى ذلك قد حفظ أخباراً كثيرة ذات شأن كبير وديوانه فيه غلطة ثابتة في التاريخ مقدارها ثمان سنوات سوى ما فيه فوق ذلك من الأخطاء ومخالفة المتفق عليه .

ودوننا كاتب مسيحي آخر وهو الأسقف القبطي للأشمونين نعني ساويرس (ابن المقفع) ، وكتب تاريخ حياة البطارقة وهو كتاب لم ينشر ولا يعرف عنه إلا القليل ، اللهم سوى ما أخذ عنه رينودو في كتابه . وتوجد ثلاث نسخ مخطوطة من هذا الكتاب : إحداها في المتحف البريطاني وهي مما تخلف من نحو القرن الخامس عشر . والثانية في المكتبة الأهلية (بباريس) وهي من نحو القرن الرابع عشر . والثالثة وهي قبل هاتين بمدّة طويلة ولعلها من نحو القرن الثاني عشر وهي في حيازة مرقس بك سميكه (مرقص باشا سميكه) في القاهرة . وكتاب ساويرس عظيم الفائدة فيما يتعلق بتاريخ الكنيسة ، غير أنه ليس فيه كبير غناء فيما سوى ذلك من أخبار الدنيا . وقد كان يعيش في القرن العاشر ولكن لم يتحقق تاريخ وفاته الصحيح . والنسخة الخطية التي في باريس بها مقدّمة من كتابة محبوب بن منصور وهو شماس كان بالإسكندرية في النصف الأخير من القرن الحادي عشر ، وقد كان يحرّر في كتاب « تاريخ حياة البطارقة » . وقد قال ساويرس في مقدّمته التي كتبها بنفسه إنه كان يلجأ إلى بعض القبط ليترجموا له الوثائق القبطية واليونانية إلى اللغة العربية إذ أن اللغتين المذكورتين كانتا عند ذلك غير معروفتين لأكثر المسيحيين . وهذا عظيم الدلالة إذ يظهر الحال من الاضمحلال التي هوت إليها لغة القبط ولغة اليونان ، كما أنه يظهر جهل ساويرس بهاتين اللغتين . والحق أن ذلك الدليل على جهل اللغة القبطية عجيب مدهش حتى ليلوح لنا أنه لا يكاد يصدّق (انظر ثبت الكتب المخطوطة في باريس طبعة دي سلان صفحة ٨٣) .

فلنمض الآن من التاريخ الكنسي الذي كتبه ساويرس المصري إلى الرسالة التي كتبها الماوردي عن الأحكام السياسية وكان الماوردي من بغداد (٩٧٥ ـ ١٠٥٨) ، وقد بلغ أعلى شأو في ميدان الفقه والقضاء والسياسة ، وكان ممتازاً بسعة علمة ودقة حكمه كما كان ممتازاً باستقامته واستقلاله وعزة نفسه وكتابه في « الأحكام السلطانية » مؤلف نفيس فيه قوة في البيان وعمق في البحث ، وهو عمدتنا فيما عن نظام الضرائب في الإسلام كما أنه عمدتنا في كثير غير ذلك من مسائل الشريعة والعرف .

وإذا نحن استثنينا هذا الكتاب لم نجد إلا فراغاً منذ القرن العاشر إلى القرن الثاني عشر حتى نأتي إلى عصر كتاب الإدريسي في الجغرافيا . وكان الإدريسي من أهل الأسفار، ولما بلغ من العمر ستين عاماً نَزل ضيفاً كريماً على بلاط الملك روجر الثاني في صقلية . وكتاب الإدريسي يحوي طائفة من الأخبار القيمة . وأتى بعده بفترة قصيرة كتاب ابن الأثير (١١٦٠ ـ ١٢٣٢) ثم كتاب أبي صالح وكان يعيش في العصر نفسه وكتب حوالي سنة ١٢٠٠ ، ولعله ولد قبل مولد ابن الأثير ببضع سنين . ثم يلي ذلك كتاب ابن خلكان « وفيات الأعيان » . وكان ابن الأثير من أهل ما بين النهرين وكان أكثر درسه للعلم في الموصل وبغداد وقضى معظم حياته في الدرس والأدب ، ولكنا لا نستطيع أن نجعله في الميدان الذي نحن فيه إلا في مرتبة دون مرتبة كبار المؤرخين ، ولعله نقل أخبار الفتح عن كتاب الطبري وما جاء فيه من ذلك لا يزيد الأمر إلا تحييراً . ومن أعجب الأمور أن كتابه الذي يسميه « الديوان الكامل » تزيد قيمته بعد أن نخرج من فترة الفتح حتى إنه ليخيل إلينا أن القضاء جرى بأن يلقي أخبار الفتح في مجاهل النسيان . وأما ابن خلكان فقد كان صديقاً لابن الأثير وخلف كتاباً في تراجم الأعيان ، وقد نقلنا عنه كثيراً من الأخبار وتوجد نسخة قيّمة من ذلك الكتاب في اللغة الفرنسية نشرها (Mac Guckin de Slane) . وكتاب أبي صالح « تاريخ الكنائس والديارات » معروف اليوم والفضل في ذلك يرجع إلى نسخة المستر (B. T. Evetts) التي طبعت في أكسفورد .

وأما تاريخ مصر القصير الذي ألفه عبد اللطيف البغدادي فقد كان معروفاً من زمن طويل والفضل في ذلك راجع إلى نشرة (ويت) مع ترجمتها اللاتينية : وقد ولد عبد اللطيف في بغداد في سنة ١١٦١ ورأى كثيراً من الحروب مع الصليبيين في أيام السلطان صلاح الدين مع أنه لم يكن من الجند ـ على أنه سافر في بلاد الشرق الأدنى وأقام مدّة طويلة في مصر وكان قصده من زيارتها في أوّل الأمر أن يسمع حكمة « الميمونيين »(١) . وقد اشتهر بالعلم شهرة واسعة لما كان عليه من معرفة بالطب والفلسفة والتاريخ ولكن خدمته للتاريخ ينقص منها ما في أخباره من قصر واختصار ومن الإستطراد في كتابته وتنقله من أمر إلى آخر .

ياقوت (١١٧٨ ـ ١٢٢٨) ـ هو كاتب شائق وأكثر ما كتبه موثوق به ، وقد ولد في بلاد الدولة الرومانية ثم بيع رقيقاً في بغداد لتاجر فكان يبعث في التجارة إلى بلاد الخليج الفارسي ثم ترك مولاه لخلاف شجر بينهما وأخذ في تحصيل العلم وكان يرتزق في أثناء ذلك من نسخ الكتب . ثم صالح مولاه قبل سنة ١٢٠٠ ، وعاد إلى الإشتغال بالتجارة وسافر من أجل ذلك إلى جزيرة (كيس) ، ولكنه عندما عاد من سفره وجد أن مولاه قد توفي فاشتغل ببيع الكتب والتأليف والسفر وحوالي سنة ١٢١٣ زار مدينة (تبريز) وبلاد الشام ومصر وبعد ذلك بسنتين سار إلى الشرق من دمشق حتى إذا بلغ مرو ألفى بها مكتبة مليئة بالكتب ، وهناك بدأ كتابه « معجم البلدان » وانتهى من كتابته في سنة ١٢٢٤ ، ولكنه اضطر إلى الرجوع لزيارة الإسكندرية ولم يبدأ في نقل كتابه إلا في سنة ١٢٢٧ في حلب ومات وهو يشتغل في ذلك العمل في السنة التالية . وإنما لمما يؤسف له أنه لم يستطع أن يعيد النظر على كتابه وهو كتاب لا يزال ذا قيمة عظمى في التاريخ والجغرافيا .

وأما ديوان المكين أو ابن العميد أي كتاب تاريخ المسلمين فهو مجموعة من نتف وأخبار قصيرة مرتبة بحسب تاريخ السنين . والكتاب معروف إذ نشر

---

(١) لا شك أنه يقصد الفاطميين (المعرب) .

نصه مع ترجمة لاتينية في سنة ١٦٢٥ نشره (Erpenius) وقد نقل (جبون) عنه كثيراً كما نقل عنه كثيرون غيره ، ولم يكن (لجبون) من المراجع العربية إلا هذا الكتاب مع بضع كتب أخرى قليلة . وقد قال رينودو فيه رأياً غير مشهور إذ قال[1] :

« Qui cinum sequuntur si Arabice nesciant, non ipsm sed interpretem sequi deprehenduntur, qui ut in multis saepe falsus est, ita circa annorum Arabicorum cum Rommanis comparationem saepissime» (His. Pat. Alex. P. 172).

وكذلك قال فيما يتعلق بالتواريخ [2] :

« Infinitis exemplis constat hallucinari eaepissime Elmacinm.

والظاهر أن المكين كما قال رينودو جعل ديوانه أو جزءاً كبيراً منه على أساس ساويرس. وهذه الحقيقة توضح بعض السبب في قلة تحرّيه ودقته . وقد ولد المكين حوالي سنة ١٢٠٥ ولكن تاريخه ينتهي إلى ما قبل عصره بنحو قرن ، وقد كان مسيحياً مصرياً ، ولكن مؤلفه يجب أن يعدّ بين المؤلفات الصغيرة القيمة في نظر الباحث في تاريخ مصر .

أبو الفرج (١٢٢٦ ـ ١٢٨٦) ـ ويسمى كذلك ابن العبري نظراً لأنه من أصل إسرائيلي ، وقد ولد في ملطية بأرمينيا وهو معروف بكتابه تاريخ الدول الذي نشره « بوكوك » مع ترجمة لاتينية وهذا التاريخ مكتوب باللغة العربية ، وقد اختصره أبو الفرج نفسه من كتاب أكبر كتبه باللغة السريانية وقد جاء فيه أوّل ذكر مفصل لإحراق مكتبة الإسكندرية المزعوم ، ولكنه لا يزيد شيئاً على ما نعرف

---

(١) ومعنى هذه النبذة : « إن الذين يأخذون عن المكين بغير أن يكونوا ملمين باللغة العربية لا ينقلون إلا عن طريق مترجم يكون في أغلب الأحوال مخطئاً خطأ عظيماً حتى أنه كثيراً ما يقارن بين تواريخ سني التقويم العربي وبين أخرى من سني التقويم الروماني » .

(٢) ومعنى هذه النبذة « وثمت أمثلة لا عدّ لها تدل على أن المكين كان في أكثر الأحيان يخلط ويضل » .

من أخبار الفتح العربي . وكتابه « تاريخ الكنائس » باللغة السريانية يتعلق بالكنيسة السورية أكثر مما يتعلق بكنيسة الإسكندرية ولكن به بعض أخبار قيمة تتعلق بعصرنا الذي نعالجه ، وكان أبو الفرج مسيحياً يعقوبياً وصار أسقفاً ثم صار بطريقاً لطائفته .

وللنووي معجم في التراجم فيه كثير من الأخبار التي لا تتعلق بعصر خاص ، ولكننا لا نجد به كثيراً مما له علاقة لازمة بالفتح العربي . وقد ولد في قرية (نوا) بقرب دمشق في سنة ١٢٣٢ وصرف حياته في الدرس والتعليم ، ثم مات من الإعياء والجهد ولا يزال قبره محفوظاً وله في نفوس الناس مقام كبير إذ يعدّونه ولياً من أولياء الله .

وأما القزويني المتوفى سنة ١٢٨٣ فقد خلف كتاباً في آثار البلاد وهو يشبه أن يكون دليلاً لوصف الآثار القديمة وقد وجدناه ذا فائدة في المسائل المتعلقة بالآثار . وكتاب أبي الفداء في وصف البلدان لا يسعنا أن نغفله فهو قيم لذاته ، وقد زادت قيمته لما أضاف إليه (رينو) في طبعته الفائقة التي جاءت في مقدّمتها مقالة ذات فائدة عظمى وصفت فيها الموارد العامة لعلم وصف البلدان في العربية .

وقد كان أبو الفداء علماً من الأعلام سليل الأسرة التي أنجبت صلاح الدين الأيوبي ودرج في سننها من سبل الفروسية فكان يهيم بمعمعان الحرب منذ نعومة أظفاره على أن ناحيته العقلية كانت نامية زاكية وصار في آخر عمره سلطاناً لحماة فوق ما كان عليه من سعة العلم والتبريز في الأدب فكان بابه مقصداً للأعلام في كل ضرب من الفنون والآداب ، وكان مولده في سنة ١٢٧٣ ، وكانت وفاته في سنة ١٣٣١ .

ولعلنا لا نكون تجاوزنا الحدود ونحن في صدد قولنا هذا في وصف البلدان إذا نحن عرضنا لكتاب أميلنو (Geographie de l'Eg. à l'Epopue Copte) فهو كتاب عظيم النفع يرجع إليه لمعرفة أسماء البلدان في العصر القبطي والعربي . وكذلك يجدر بنا ذكر مقال المستر « لسترانج » في مؤلفي

كتب وصف البلدان من العرب وذلك في مقدّمة كتابه (Palestine under The Moslems.) .

ابن خلدون (١٣٣٢ ـ ١٤٠٥) ـ يذكرنا اسمه بانتشار الدولة الإسلامية على بلاد المغرب فقد كان مولده في تونس ولكن أسرته كانت قد انتقلت من زمن طويل إلى بلاد الأندلس وأقامت بها ثم تركت أشبيلية وأقامت في سبته قبل ميلاده بنحو قرن . وقدحصّل ابن خلدون العلم في تونس أولاً ثم في تلمسان ثم لحق بسلطان غرناطة وقام بنفسه على عقد المعاهدة مع (الدون بدرو) القاسي ملك قشطالة ، وقد استطاع سلطان غرناطة بتلك المعاهدة أن يعود إلى قصبة ملكه ، وتاريخ ابن خلدون بحالته التي بقي عليها إلى اليوم مختلط تحيط به ظلمة حيث يصف أخبار فتح مصر على أنا نجد به نبذاً ذات قيمة عظمى ظهر صدقها الناصع ظهوراً جلياً .

المقريزي (١٣٦٥ ـ ١٤٤١) ـ نجد فيه مؤلفاً مصرياً إذ ولد بالقاهرة وكتابه « الخطط والآثار » أثر نفيس من آثار العمل المتصل في جمع الأخبار وقد كان كاتباً مكثراً عظيم الإكثار وكان مطلعاً على عدد عظيم من المؤلفات غير أن معظمها قد ضاع ودرست معالمه فهو من جهة مقدار ما كتب أعظم مراجعنا وأكبرهم شأناً على أنه قد رجع فيما رجع إليه إلى بعض مؤلفين ليسوا ذوي ثقة عظمى ومنهم من لا يتضح معنى قوله ومنهم من يشك في روايته . وعلى ذلك فإنه مع شدّة غيرته في كتابته وعنائه في عمله لا نستطيع أن نصفه بالدقة والتحرّي ولا بأنه استطاع أن يحسن بناء ما وجد دونه من الأخبار .

ابن حجر العسقلاني (١٣٧٢ ـ ١٤٤٨) ـ نحن مدينون له بكتابه في التراجم الذي أفادنا في ترجمة حياة « عمرو وسواه من القوّاد في مدّة الفتح » وكان مولده في عسقلان كما يدل عليه اسمه ثم سافر كثيراً في بلاد الشام وبلاد العرب ومصر وحج إلى بيت الله إذ كان عمره عشر سنين واشتغل بالتجارة ثم بالأدب ومات وقد طعن في السن في مدينة القاهرة .

أبو المحاسن (١٤٠٩ ـ ١٤٦٩) ـ كان أبوه مملوكاً للسلطان برقوق وولاه

على حلب ثم على دمشق ، ولكن المؤرّخ نفسه ولد في القاهرة وتعلم بها وكان المقريزي أحد الأساتذة الذين تلقى عنهم العلم . وقد جمع كتابه في تاريخ مصر على طريقة هي أشبه شيء بطريقة المقريزي أي أنه كان يروي مختلف الروايات عن الحادث الواحد بغير أن يعلق عليها أو ينقدها أو يرجح بعضها على بعض وإن فعل كان ذلك نقداً يسيراً .

السيوطي (١٤٤٥ ـ ١٥٠٥) ـ هو آخر من نذكر هنا من المؤرّخين . وكتابه « حسن المحاضرة » مبني في كثير من نواحيه على كتاب المقريزي فهو ينقل عنه قطعاً بأكملها نقلاً لفظياً . وكان السيوطي من أهل القاهرة مع أن أسرته كانت في الأصل من أرومة فارسية وحلت في أسيوط منذ ثلاثة قرون قبل مولده . وكان أبوه قاضياً في القاهرة وعلم بالشيخانية وخطب في مسجد ابن طولون . وقد بدأ السيوطي يكتب منذ صغره وكان يفخر بأن مؤلفاته معروفة في أسيا الصغرى والشام وبلاد العرب وشمال أفريقيا وبلاد الحبشة ذاتها . ولكن غروره وتفيهقه جعلاه مكروهاً عند الناس فعزل عن أعماله المختلفة في التدريس أو اعتزل العمل بها من تلقاء نفسه ثم انتحى ناحية في جزيرة الروضة ومات بها . وكتابه في التاريخ يدل على إنحطاط حتى إذا قورن بكتب سلفه الأقربين . ولكن من الحق أن نقول عنه كما نقول عن سلفه إن اختيارهم للروايات كان يحوي أخباراً لها قيمة وخطر قد أغفل ذكرها سواهم من أصحاب المصنفات الأخرى أو مما ردوه ولم يروا إثباته .

على أننا لا بدّ أن نذكر مؤلفاً آخر ذا شأن عظيم ولم يكن من مؤلفي التاريخ بل من الكتاب في وصف البلدان والآثار ولم يكشف مؤلفه إلا سنة ١٨٩١ نعني به ابن دقماق . ويظهر أنه مصري وأن وفاته كانت سنة ١٤٠٦ وقد نشر الدكتور (فولرز) نص كتابه مع مقدّمة اعترف فيها وحق له ذلك بما كان عليه المؤلف من سعة العلم التي تستلفت النظر . والقصد الأوّل للكتاب يدل عليه عنوانه فهو وصف لبلاد مصر . وكثير من الحقائق التي حفظها ابن دقماق في كتابه لم يسبقه إلى ذكرها أحد وهي شائقة من أروع ما كتب ولا سيما ما كان منها في وصف آثار الفسطاط والإسكندرية . ولنضرب لذلك مثلاً فإنه يذكر أن الباب

الأصلي للحصن الروماني الذي كان تحت كنيسة المعلقة كان في عام ١٤٠٠ مستعملاً لمرور الناس ولعلنا نرجو أن يوفق الدكتور (فولرز) إلى نشر ترجمة لذلك الكتاب العجيب .

هذه إذن أمهات الكتب الشرقية التي استمددنا منها تاريخنا هذا وليس منها واحد يذكر أخبار الفتح واضحة متصلة ، بل نرى واجبنا أن نقول إنه ليس منها ما يذكر تلك الأخبار دقيقة ، ولا يكاد الإنسان يتصورّ مقدار ما فيها من خلط في التواريخ والحوادث والأشخاص . ولعل القارىء يستطيع من مطالعة الملاحق التي ألحقناها في آخر الكتاب أن يتبين شيئاً من مقدار ما هنالك من خلط في التاريخ ومقدار ما عانيناه من المشقة في ابتداع طريقة لضبط تواريخ الفتح الفارسي والفتح العربي . فالظاهر أن مؤرّخي العرب لا يعرفون شيئاً عن تيودور القائد الأعلى لجيوش الروم ، فهم يخلطونه ببعض أصاغر القوّاد . وهم كذلك يخلطون بين قيرس وبنيامين وبين فتح قطر مصر وفتح مدينة مصر وفتح الإسكندرية . وأما معاهدة بابليون فهم يخلطونها بمعاهدة الإسكندرية[1] وكذلك لا يميزون بين فتح الإسكندرية الأول الذي كان صلحاً وبين فتحها الثاني الذي كان عنوة في مدّة ثورة منويل . والحق أننا لا ندعي أننا قد جلونا هذه الظلمات فإنا لم نعمل سوى أن حاولنا تبيين أكبر مواطن الخلط والوصول إلى الحقائق التي غطى عليها تناقض الأخبار . وقد حاولنا كذلك أن نكتب بغير تحيّز إلى جانب القبط أو العرب . فبدأنا درس هذا التاريخ وكان الإعتقاد السائد أن القبط قد ساعدوا العرب ورحبوا بهم ، غير أننا اضطررنا إلى أن نعتقد أن التاريخ قد ظلم القبط في ذلك ظلماً فاحشاً . وكذلك بدأنا درسنا على الإعتقاد الشائع أن العرب أحرقوا مكتبة الإسكندرية غير أنّنا اضطررنا إلى أن نرى أن التاريخ قد ظلم العرب في ذلك ظلماً فاحشاً كذلك . وقد رحبنا بالرأيين الجديدين معاً إذ كنا ممن يحملون لكلا الشعبين العربي والقبطي أكبر الإعجاب . على أننا لا يحملنا

---

(١) قد عاد المؤلف عن هذا الرأي في رسالته التي ذكرناها في الملحق السابع وهي « معاهدة مصر في الطبري » (المعرّب) .

ذلك على الإنحياز لأحدهم فما كان لنا إلا قصد واحد وهو أن نصل إلى الحق . غير أننا نرجو أن يهتم العرب والقبط جميعاً بسعينا هذا الذي سعينا إليه في تمييز الحق وتصفيته من الباطل وفي جلاء عصر شديد الظلمة من عصور تاريخ مصر .

وكنا في كتابة الألفاظ العربية نسير على النظام المتبع في نشرة مطبعة (كلارندرن) لكتاب أبي صالح وهو النظام الذي أقرّه كثير من العلماء الإنجليز باستعمالهم إياه . على أننا لم نجد من الضروري أن ننقل وفق هذا النظام ما دخل إلى اللغة الإنجليزية من الألفاظ العربية وصقله الاستعمال مثل محمد (Mohammed) وعمر (Omar) ومكة (Mecca) والقاهرة (Cairo) وكنا نحذف أداة التعريف كما فعل من قبلنا المستر (Le Strange) في بحثه « بغداد » ولقد كان من العسير في بعض الأوقات أن نختار صورة للفظ من صور له متعدّدة بين يونانية وقبطية وعربية ، فمثلاً آثرنا استعمال لفظ (Nikiou) وهو يوناني قبطي إذ كان هو المستعمل عند الفتح وفضلناه على لفظ نقيوس وهو الصورة العربية لاسم تلك المدينة إذ أن تلك الصورة تكاد تكون ميتة اليوم . ولكنا عند ذكر الفيوم رأينا من اللازم استعمال ذلك اللفظ المألوف وفضلناه على الصورة القبطية لذلك الاسم وهي (بيوم) أو الصورة اليونانية الرومانية (إقليم أرسنويه) . وهذا الإختلاف كان في أكثر الأحوال مقصوداً على ذلك ولو كان خطأ ويجب ألا يضاف إلى بيان الأخطاء الغير المقصودة أو وجوه النقص في الكتاب .

ولا بد لنا أن نشكر الدكتور المبجل (ر. هـ. شارلز) إذ أعارنا ترجمته لكتاب حنا النقيوسي ، والمستر (ف. ك. كونيبير) إذ أعارنا ترجمة إنجليزية لكتاب سبيوس ، وللمستر (ب. ت. افتس) أن أعاننا بترجمة نبذ كثيرة من الكتب العربية ، والمستر (و. ا. كروم) ، والمستر (ا. و. بروكس) ، والأستاذ (فولرز) ، الأستاذ في (يينا) لما قدموه لنا من الإقتراحات ووجوه النقد . ولا بد لنا أن نذكر مع الشكر والعرفان من ساعدونا أثناء زيارتنا القريبة لمصر ، ونخص منهم فضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية إذ قدم لنا بعض قطع إختارها أو كتبها خاصة بالفتح ، ومرقص بك سميكة إذ ساعدنا بأن راجع

معنا نسخة من تاريخ ساويرس ، كما قدم لنا كثيراً من الأيادي في وجوه مختلفة لم يدخر فيها وسعاً ، وجناب ماكس هارتز بك إذ قدم لنا كثيراً من البيانات عن الحصن الروماني حصن بابليون ، وعن سوى هذا من أمور خاصة بالفن والآثار ، والكبتن ليونز (R. E.) بنظارة الأشغال العامة ، والمنسنيور (ب. كازانوفا) مدير المعهد الفرنسي ، والمستر (أ. أ. فلوير) رئيس مصلحة التلغرافات إذ قدّموا لنا كثيراً من المساعدات فيما يخص أسماء المواضع وخطط البلاد عموماً . وفوق كل ذلك أبادر بأخلص الإعتراف بفضل صديقي المبجل المفضل (العميد بوتشر) بالقاهرة إذ أتاح لي فرصة زيارة القاهرة مرة ثانية من أجل هذا الكتاب وقد كان لا يفتر عن أن يغمرني بعطفه وتشجيعه وهو يتابع خطواتي في هذا العمل ويضيء لي السبيل فيه .

أكسفورد ، في ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٠٢

أنفرد ج . بتلر

الفصل الأول

خروج هرقل

ملخص لحكم أباطرة الروم من حكم (جستنيان) إلى حكم (موريق) ـ الدولة الرومانية مدة حكم (فوكاس) ـ حال مصر ـ خروج (البنطابوليس) بقيادة هرقل ـ خطة الحرب ـ القصة المشهورة لتلك الحوادث برواية (جبون) وتفنيدها ـ كتاب (حنا النقيوسى) أسقف (نقيوس) من قرى مصر .

استهل القرن السابع والدولة الرومانية تلوح كأنها تنحدر من حال الاضمحلال إلى حال الذهاب والفناء ، وقد كانت تلك الدولة قبل ذلك بستين عاماً قد أبلغها سلطان جستنيان إلى بلاد القوقاز وبلاد العرب شرقاً وإلى أعمدة هرقل[1] غرباً . وقد كان لذلك العاهل شخصية قوية ملكت على الناس عقولهم حتى لكان يخيل إليهم ـ كما قال القائل ـ « إن العالم كله أضيق من أن يسعه »[2] .

وقد كان مجده وأبهة ملكه مساويين لقوّته وسلطانه ، وكان حزمه عدلاً لمجده ـ حيناً من الدهر على الأقل . وكان فوزه في ميادين العلوم والفنون فوزاً باهراً حتى أنه ليبز إنتصاره في ميادين الحروب . فإن عملية الجليلين اللذين يقترنان باسمه لا يزال باقياً منهما قانونه ومجموعة أحكامه يسايران الأيام مشهوداً

(١) أعمدة هرقل يقصد بها مضيق البحر الأبيض المعروف الآن بمضيق جبل طارق (المعرب) .

(٢) عن الأستاذ (Bury) نقله من كتاب (Procopius) في كتاب (History of The Later Roman Empire) (الجزء الأول صفحة ٤٧٠ ـ ١) .

لهما أنهما عمدتان في فقه القانون ، في حين أن كنيسة (أيا صوفيا) لا تزال على مر الأيام ماثلة يشهد لها الدهر أنها أبدع أثر وأجل مثل في طراز البناء البيزنطي .

على أن خطر الإضمحلال كان ماثلاً حتى في أيام (جستنيان) فقد توالت النوازل على الدولة حتى خشي عليها ، فمن فساد خلقي إلى آخر سياسي . وزادت عليها نكبات طبيعية فاجتاح الوباء بلاد الشرق كلها بادئاً من مدينة (الفرما) ثم ما زال يعصف ببلاد مصر جائساً خلالها إلى أن بلغ بلاد (لوبيا) ، وأنشب مخالبه في فلسطين وما يليها من بلاد فارس إلى القسطنطينية . وأعقب الوباء الزلزال فدمر من المدن ما قد يعدل ما أصاب أهل الدولة من « الموت الأسود » . فكانت آخر أيام ذلك العاهل القانوني تغشاها سحابة دكناء من الهم وتوقع البلاء . وما كادت أيام حكم خلفه (جستن) تقترب من نهايتها حتى كانت حكومة الدولة تتصدّع . وقد كانت أيام ذلك الحكم قصيرة ولا روح فيها وانتهى العاهل منها بالجنون . فلما جاء بعده (تيبريوس) سنة ٥٧٨ أمل الناس أن يكون أسعد طالعاً من سلفه . وقد كان يرجى منه على الأقل أن يسعى ليصدّ تيار الإضمحلال . ولكن الأجل لم يمهله حتى يظهر قدره فخلف لمن جاء بعده وهو (موريق) خزائن خاوية وشعباً متذمراً ودولة غير متماسكة .

وما كان لمثل ذلك الكرب أن ينفرج إلا على يدي رجل له أعظم عقل ولا يخطىء له رأي . ولم يكن (موريق) بذلك الرجل مع أنه كان يقصد خيراً . فقد أفسد عليه خططه وخيب سياسته عيب طالما أفسد أحسن الخطط والآراء عند تنفيذها ، ألا وهو قلة الإعتداد بتغير الظروف والأحوال سفهاً وجهلاً . فأدخل على جيشه بدعاً يريد بها إصلاح شأنه وكان ذا دراية بفنون الحرب وخططه ـ وما أحسن ما كتبه في ذلك الشأن ـ غير أن ذلك لم يحفظ كتائبه من الهزيمة . ثم إنه عمد إلى الاقتصاد وأخذ نفسه بذلك أخذاً شديداً لكي يصلح من حال الدولة المالية فخاب سعيه فيما قصد إليه ولم يفد إلا أن أملَّ شعبه وأبعده عنه كرهاً فثار به ورمى بالتاج مزدرياً إلى جندي جاهل مشوّه الخلقة وهو (فوكاس) .

وكانت الدولة عند ذلك كأنها سائرة إلى الدمار لا يُنجّيها منه شيء . فكان

حكم (فوكاس) حكماً ظالماً قائماً على جيش فاسد تدعمه عصبة فاسدة من الأشراف ، حكماً تتناقص هيبته وقوته كلما بعذت عن قصبته ميلاً فميلاً . وسلط على أنحاء الدولة سوط عذاب من الحكم السيء حتى لأصبحت وأقل بلادها عذاباً تلك الأقاليم التي تستعر فيها الحرب مع الفرس أو مع همج الشمال .

وفي الحق لم يكن في بلاد الدولة الرومانية ما هو أشقى حالاً من مصر . فقد سعى (جستنيان) جهده ليجبر القبط الذين ليسوا على مذهب الدولة (الأرثوذكسي) فيدخلهم في ذلك المذهب. ولكن امرأته «ثيودرا» عملت من جانب آخر فأفسدت بعض سعيه إذ كانت تعطف على مذهب هؤلاء الأقباط عطفاً ظاهراً[1] . على أن ذلك العطف ما عتم أن قضى عليه الإمبراطور « جستن » وعفى أثره . ومن ثم عاد الكفاح الشديد الذي ثار قديماً بين طائفتي (الملكانيين) و (المونوفيسيين)[2] وصار أشدّ سعيراً . ولم يكن عند قبط مصر همٌّ أكبر منه يملأ قلوبهم ويملك عليهم آمالهم . فلم يكن عجباً على ذلك أن يسمع صليل السلاح بين حين وحين في مدينة الإسكندرية نفسها ، وأن تمتلىء أرض الصعيد بعصابات اللصوص وقطاع الطرق[3] ويغزوا أكنافها البدو وأهل النوبة ، بل لم يكن عجباً أن تضطرب الأحوال في مصر السفلى فتصبح ميداناً للشغب تثور بها فتن بين الطوائف توشك أن تكون حرباً أهلية[4] . ولم يكن عجباً أن يكون هذا في بلاد أصبح الحكام فيها لا همّ لهم إلا أن يجمعوا المال لخزائن الملك البيزنطي وحاشيته وأن تكون لمذهبهم الديني اليد العليا بين أهل

---

(١) أنظر كتاب الأستاذ « Bury » « History of The Later Roman Empire» (الجزء الثاني صفحة ٩٠٨) وفيه يقتبس الأستاذ من ترجمة « R. Payne Smith » لكتاب « حنا الايفيسوسي » عن السريانية قصة عجيبة عن تحويل (النوباديين) عن دينهم وهم قوم كانوا يعيشون في الأرض الواقعة إلى شرق نهر النيل في صعيد مصر .

(٢) اليعاقبة وهم عامة أهل مصر .

(٣) انظر كتاب (حنا مسكوس) « Pratum Spirituale » والملحق الذي كتبه به (Migne) وكتاب (Patr. Gr.) الباب ١٤٣ .

(٤) عن كتاب حنا (النقيوسي) ترجمة زوتنبرج (صفحة ٢٥٩ وما بعدها) .

البلاد . فصار الحكم على أيديهم أداة لا تؤدّي إلا إلى الظلم ونشر الشقاء . فالحق هو أن بلاد مصر إذ ذاك كانت جميعها تضطرم بنار الثورة ورغبة الخروج لا يغطيها إلا غطاء شفيف من الرماد .

بدأ حكم (فوكاس) في نوفمبر سنة ٦٠٢ وفي ذلك اليوم لبس التاج في حفل عظيم حسب الرسوم المعروفة ، ألبسه إياه البطريق (قرياقوس) في كنيسة القدّيس حنا بالقسطنطينية . ودخل المدينة من الباب الذهبي فسار فيها بين صفوف من العمد الجليلة وفي الطرق الكبرى يحيط الناس بموكبه يهللون له في سرور كبير . غير أنه ما أتت سنة ٦٠٩ حتى كانت بلاد الدولة كلها هائجة تتهيأ للثورة . ثم بدأت الثورة في « بنطابوليس » والرواية المشهورة لتلك الحوادث هي أن (كريسبوس) صهر (فوكاس) ـ زوج ابنته ـ استوجب أن غضب عليه الملك غضباً هائلاً وذلك بأن أقام تمثاله وتمثال عروسه في ميدان السباق . فلما أن فسد بذلك ما بينه وبين الملك شرع كريسبوس يدبر لحميه ثورة ودعا هرقل حاكم إفريقية لينفذ ما دبره . أما الحقيقة فهي أن هرقل كان يدبر أمر ثورة لم يكن فيها صادراً عن أمر (كريسبوس) . وقد ذكر الحقيقة (قيدرينوس) ذكراً صريحاً لا شك فيه . ولم يكن (كريسبوس) صهر الإمبراطور بالرجل الذي يقدر أن ينهض بادئاً بأمر . فلما سمع بما ثار من الإضطراب في (بنطابوليس) قويت نفسه فأنفذ سراً إلى الثائرين كتباً يحثهم فيها على ما هم فيه ويعدهم بالمساعدة إذا ما استطاع (هرقل) أن يسير إلى القسطنطينية . وقد كان (هرقل) قد تقدم في السن فلم يكن قادراً على مثل هذه المجازفة[1] فما كانت سنه بأقل من خمسة وستين عاماً . إلا أنه رأى دونه ابنه وسميّه (هرقل) وكان عند ذلك في مقتبل العمر ، ورأى صديقه (نيقتاس) وكان نائبه ووكيله الأكبر ، فما أسرع أن وجد فيهما الأداة الصالحة لإنفاذ خطته .

وقد أساء كثير من الناس فهم خطة الحرب فذكر (جبون) ـ وهو حجة فيما

(١) كان (هرقل) قائد الجيوش الرومانية في حرب (موريق) مع الفرس .

يقول ـ رواية تافهة خلع عليها قوّة بذكره إياها وهي أن هرقل ونيقتاس إتفقا على أن يسير أحدهما بحراً والآخر براً قاصدين إلى العاصمة ، فمن سبق إليهـا كان جزاؤه أن يفوز بالتاج[1] . ولا تنس أنهما إبتدآ من (قيرين)[2] فإذا هما قد إبتدآ ومع كل منهما قوّة من الجيش مساوية لما مع الآخر لم تكن قسمة عادلة وكـان سباقهما سباقاً لم يكن قبله أكثر منه ظلماً وحيفاً . فإن هرقل لم يكن عليه إلا أن يجوز البحر الأبيض ثم يساحل بلاد اليونان ومقدونيا ثم يقذف بعد ذلك بجيشه على العاصمة ، في حين أن (نيقتاس) كان عليه ـ على ما جاء في تلك الرواية ـ أن يسير إلى مصر فينزعها من يد (فوكاس) ومن ثم كان عليه أن يسير سيراً طويلاً منهكاً إلى فلسطين وسوريا وقليقيا وآسيا الصغرى . فهب أنه في مثل تلك الحال فاز فوزاً مبيناً في عدّة مواقع باهرة ، وهب أن كل مقاومة له خبت نيرانها وانطفأ لهيبها ، هب كل ذلك تجد أنه ما كان مع ذلك ليستطيع أن يتابع سيره في السباق لنيل الجائزة لفوات الوقت عنه إذا لم يكن لشيء سواه . ولهذا نرى أن الأمر لم يكن كما جاء في تلك الرواية . وإننا لو صدقنا وجود فكرة مسابقة بين متنافسين يكون التاج فيها لمن سبق ـ وهذا ما نستبعده ونشـك فيه كـل الشك ـ نقـول لو صدقنا ذلك لكان خط السير أبسط مما تزعم الرواية وأقرب إلى أن يكون السباق معه عادلاً على سواء . إنه لا شك في أن إقليم (بنطابوليس) لم يكن فيه ما يكفي لما يقوم بحاجة جيش عظيم ، فما بالنا بما يكفي جيشين . ولم يكن على قائد كل فرقة من الفرقتين أن يكتفي بالذهاب إلى (بيزنطة) ، بل كان لزامـاً عليه أن يرفع علم الثورة حيث يسير وأن يجمع المؤن والأمداد ، ثم يجتمـع كل منهمـا بأخيه حتى يضربا العاصمة ضربة تتصدع لها . فـاستقر الـرأي على إنفاذ هـذه الخطة بأن يذهب (هرقل) بحراً وأن يسير (نيقتاس) في البر ـ لا شك في هذا ـ

---

(١) ويأخذ Diehl نفسه بهذه الرواية ـ أنظر كتابه (L'Afrique Bizantine) صفحة ٥٢٠ .

(٢) يقول بعض المؤرخين إن هرقل ابتدأ من (قرطاجـة) . ولكن يمكن أن يفهم من (حنا النقيـوسي) أن هرقـل الصغير سـار من (قيرين) وأن هـرقل الكبيـر سار في جيش إلى قرطاجة بعد سفر ابنه بمدة من الزمن فأخذ المدينة ومن ثم جعل مقامه فيها .

ولكن الذي جهله (جبون) ومؤرخو اليونان ولم يقدروا على الفطنة إليه هو أن الغرض الذي رمى إليه (هرقل) هو مدينة (سلانيك) وكان القصد الذي رمى إليه (نيقتاس) هو مدينة (الإسكندرية) وأن نجاح الخطة المشتركة كان متوقفاً على إنضمام هاتين المدينتين للثوار أو خضوعهما لهم .

إنه لا يكاد يكون شك في أن هرقل كانت له صلات وثيقة بأهل (سلانيك) أو بحزب منهم ، وأن (نيقتاس) كان يتوقع أن يلقى في مصر ترحيباً وتسهيلاً وأنه إن لقي مقاومة فلن تكون إلا مقاومة يسيرة . على أن توقعه لم يصدق وخدعه حسبانه إذ صمد له عدو شديد المراس لم يكن يتوقعه فوقف في سبيله . وإني أرى من الواجب على أن أؤكد مرة أخرى ـ مفنّداً لقول جبون ـ أن (نيقتاس) لم يكن له إلا قصد واحد وهو فتح مصر ، وأن مصر كانت من خطة العمل مع (هرقل) بموضع القطب تدور عليه رحاها ، وأنها كانت العقبة لا عقبة سواها بينه وبين القسطنطينية . فإذا هو فتحها ملك بذلك الفتح أرضاً يستطيع أن يجند منها الجنود ، وتمكن من « مزرعة النيل » تخرج له القمح والخيرات ، ووضع يده على ميناء الإسكندرية وما فيها من السفين . فإذا تم له ذلك كان من أشد الحمق أن يقتحم بجيشه الشام وآسيا بدل أن يذهب عامداً نحو الدردنيل فيلتحق بجيوش هرقل . وعلى ذلك فقد كانت الخطة كما يلي :

كان على هرقل أن يبحر بسفنه إلى (سلانيك) ، وأن يعد هناك أسطولاً قوياً وجيشاً جراراً . في حين أن (نيقتاس) كان عليه أن يملك الإسكندرية ـ وهي المدينة الثانية في الدولة جمعاء ـ فإذا هو ملكها قطع عن القسطنطينية ما كان يبعث إليها من قمحها ووضع يده على موضع يستطيع فيه أن يجهز سرية بحرية يرمي بها (فوكاس) . فإذا لم يتهيأ له ذلك أمكنه على الأقل أن يقطع عن (فوكاس) كل إمداد من ذلك القطر[1] .

---

(١) كان المؤرخ الأرمني (سبيوس) يعيش في هذا الوقت أو قريباً منه وهو يقدر عمل هرقل تقديراً عادلاً إذ يقول : « ثم ثار القائد هرقل بجيشه وكان في إقليم الإسكندرية خارجاً على (فوكاس) . وجعل نفسه ملكاً واستولى على إقليم مصر » وهذه كلمة صغيرة ولكن =

وهذه الحادثة لا يذكرها مشاهير مؤرخي بيزنطة إلا عرضاً في بضعة أسطر ولا يكاد أحدهم يدرك مكان مصر وخطورة محلها من هذه الثورة . ولكن قد انبعث نور جديد على تاريخ مصر منذ كشف كتاب حنا النقيوسي ـ أو بقول أدق ـ منذ نقلت إلى لغة أوروبية ترجمة لنسخة مخطوطة باللغة الأثيوبية من « ديوان أخبار حنا أسقف نقيوس » . وكانت (نقيوس) إذ ذاك مدينة عظيمة من مدن مصر السفلى . وكان حنا نفسه يعيش في النصف الثاني من القرن السابع للميلاد ، وكان لا بد قد إتصل بكثير من الشيوخ المعمرين الذين شهدوا الحوادث التي أدّت إلى سقوط (فوكاس) أو بمن يكون عندهم ذكر منها . فديوان أخباره على ذلك له خطر كبير . ويسترعي النظر فيه دقة روايته وتحرّيه الحقيقة إلا في مواضع شوّهت فيها النسخة المخطوطة تشويهاً . وذلك مع أن هذا الديوان نقل من لغته الأصلية (القبطية) إلى لغة أخرى (الأثيوبية) . حقاً إن فيه بعض أغلاط وفيه مواضع لا يتفق ما يذكره فيها مع سائر الحوادث ، ولكن يعوض ذلك ويكفر عنه أن الكتاب يكشف من الحقائق شيئاً كثيراً كان مجهولاً . فالحق أن ذلك الديوان يبعث من لدنه نوراً جديداً عجيباً يوضح تاريخ الدولة الرومانية الشرقية وتاريخ بطارقة الإسكندرية وتاريخ مصر عامة ، في ذلك العصر الذي قل أن يوجد عصر مثله في خطره ومكانه على أنه عصر قد أهمل أمره إهمالاً لا تبرره قلة ما ورد عنه ونقص ما تخلف من آثاره . وفوق كل هذا فديوان حنا يكمل من نواح عدة ما جاء في الروايات الأخرى من نقص ويصحح ما يشوبها من خطأ مثل روايات (تيوفانز) و (قدرينوس) و (نيقفوروس) .

= المؤرخ يجعل فيها النجاح متوقفاً على فتح مصر ، وذلك ما يجب أن يفهمه من يريد أن يدرك الأمر على حقيقته .

الفصل الثاني

النضال من أجل مصر

السير إلى مصر ـ « ليونتيوس » حاكم مريوط يشترك في المؤامرة ـ الإقليم الواقع بين « بنطا بوليس » ومصر ـ خصبه وسكانه ـ « فوكاس » يخشى على الإسكندرية ـ « نيقتاس » يسير من الغرب وينتصر في وقعة على مقربة من المدينة ـ الترحيب به ـ (بونوسوس) قائد (فوكاس) يسرع من الشام ـ (نقيوس) تسلم له ـ يصل بجيشه إلى الإسكندرية ـ صد الهجوم البحري الذي يقوده (بول) .

نعلم من ديوان الأسقف المصري أنه قد كان ثمة بعض قتال في إقليم البنطابوليس نفسه ، فقد جمع هرقل هناك جيشاً من ثلاثة آلاف جندي منفقاً في سبيل ذلك أموالاً عظيمة . واجتمع لديه فوق ذلك جيش مما يسميه ذلك المؤرخ « الهمج » وكانوا بلا شك من البربر . وقد جعل هؤلاء تحت قيادة « بونا كيس » وهو تحريف في اللغة الأثيوبية لاسم يوناني . فانتصر بفضل هذا الجيش نصراً لم يكلفه كبير عناء على قواد الدولة وهم (ماردیوس) و (اكليزياريوس) و (ايزيدور) ، واستطاع بوقعة واحدة أن يقضي على قوة فوكاس في ذلك الجزء من أفريقيا . وفي الوقت نفسه أرسل (كيسيل) حاكم طرابلس كتيبة لعلها ذهبت إلى جنوب بنطابوليس . وعلى كل حال فإن نيقتاس بدأ السير عند ذلك نحو الإسكندرية مساحلاً . ثم لحق به في بعض المواضع (كيسيل) و (بونا كيس) ، ولم يكن ثمة ريب في أنه سينزل على الرحب في كل مكان حتى يبلغ أكناف القطر المصري . ذلك بأن (ليونتيوس) حاكم مريوط ـ وهو الإقليم المصري في غرب الإسكندرية ـ كان قد استماله القوم فوعدهم بجند كثير .

ويعرف الناس أن مثل هذا السير إذا حدث اليوم حدث في صحراء مجدبة لا يكاد الماء يوجد بها . ولكن قامت أدلة كثيرة على أنه قد كان في القرن السابع في ذلك الإقليم كثير من المدن العامرة وبساتين من النخيل وأرض واسعة ذات خصوبة . وهو إقليم لا يعرف فيه الآن ، وإن شئت قلت إن الناس لا يتصوّرون منه إلا أنه فيافٍ من صخور ومن رمال محرقة . وهذا الأمر له خطر وشأن كبير عند الرواد وعند من يهمهم الدرس والعلم ، ولهذا نستميح القارىء عذراً إذا نحن قلنا فيه كلمات قليلة :

ذكر بطليموس أن إقليم (قيرين) ينتهي عند الجانب الشرقي إلى مدينة (دارنيس) ، ومن ثم يبدأ إقليم (مرمريكا) . ومنذ قلنا إن (نيقتاس) قد سار إلى الشرق فإنه لا بد قد مر ببلاد كثيرة منها مدينة (أكسيلس) و (بالوفيوس) و (بطراقس) و (انتيبرجوس) ورأس (قطينيوم) ، وكل هذه كانت في إقليم (مرمريكا) . وكان أول إقليم (لوبيا) عند مدينة (بانورموس) ، وكانت به مدائن كثيرة منها (قطابتموس) و (سيلنوس) و (بريطونيوم)[1] وهي (أمونيا) بحسب تسمية (سترابو) لها . وكانت (بريطونيوم) قصبة الإقليم وفيها مقر الحاكم ويلوح أن ذلك الاسم ما زال باقياً في الاسم العربي (البرطون) . وكان ما يلي ذلك من الشرق في الإقليم ذاته مدينة (هرميا) ويليها (لوكاسيس) ، وكان أول إقليم (مريوط) في منتصف المسافة بين (لوكاسيس) ، و (كيموفيكوس) ، وكانت أكبر مدائن هذا الإقليم مدينة (بلينطين) في (تينيا) ومدينة (تابوسيريس الكبرى) وحصن (الكرسونيسوس) ومدينة (مارية) وهي مريوط .

وترد في كتب (بطليموس) و (سترابو) أسماء مدائن أخرى . ومن المحقق أن إقليم مصر في القرن الأول كان ينتهي حيث يبدأ إقليم (قيرين) ، وأنه لم يكن يفصل بين الإقليمين مفازة أرض لا يمكن السير فيها . وقد طرأ على إقليم (لوبيا) فيما بعد شيء من الفساد والخراب حتى أتى القرن السادس فأصبح

---

(١) كان من مدينة (بريطونيوم) أول سير الإسكندر الأكبر ضارباً في الصحراء في رحلته المعروفة إلى معبد (آمون) .

(جستنيان) يعوض الحاكم عن فقر إقليمه بضم إقليم (مريوط) إلى حكمه . على أن الطريق بين بنطابوليس والإسكندرية بقي مع ذلك محفوظاً، ومراحله محددة وليس به من قطوع تذكر ولا من عائق يعوق السير به . بل وما زال الطريق متصلاً قائماً إلى اليوم الذي نصفه في هذا الكتاب ، وهذا أمر ثابت قام عليه الدليل القاطع . ذلك لأنا نعلم أن الجيش الفارسي سار في أوائل القرن السابع بعد فتح مصر ليفتح بنطابوليس وكان سيره في البر ، ثم عاد بعد أن فاز فوزاً مبيناً في غزوته تلك . ويقول (جبون) إن تلك الغزوة قضت قضاء تاماً على المحلات اليونانية في مدينة (قيرين) . فلنذكر أن ذلك لم يكن إلا بعد سنوات تسع من غزوة (نيقتاس) . ولكن (جبون) قد أخطأ الصواب كل الخطأ إذ زعم أن جيوش (كسرى) جرت على ذلك الإقليم ذيل الخراب والعفاء . فالحق أن تلك الجيوش أحدثت بالإقليم ضرراً عظيماً ولكنه لم يكن تخريباً قضى عليه ولا تدميراً لا قيام بعده . بل إن الأمر كان على خلاف ذلك ، فإن عمرو بن العاص العربي عندما فتح الإسكندرية بعد نحو ثلاثين سنة من ذلك الحادث إتجه نظره بالطبع إلى إقليم بنطابوليس وسار نحوه فاتحاً (برقة) و (قيرين) . وليس في وصف تلك الفتوح ما يدل على أن ذلك المسير كان عملاً حربياً خطيراً ولا أن العرب تغلبوا فيه على صعاب طبيعية .

إنه ليس شيء أبعد عن الحق من أن يقول قائل إن الطريق إلى غرب مصر كان يشق فيافي قاحلة . فلدينا من الأدلة ما يذكر صريحاً أن كل أرض الساحل الواقعة إلى غرب مصر بقيت آهلة يزكو بها الزرع حتى مضت قرون ثلاثة بعد الفتح العربي. ويذكر المؤرخ العربي (المقريزي) أن مدينة (لوبية) قاعدة لإقليم يقع بين الإسكندرية و (مراقية) ، وذكره لهذين الاسمين على هذه الصورة يدل على أن الاسمين القديمين « لوبيا » و « مرمريقا » قد بقيا في اللغة العربية لم يكد يعتريهما تغيير . وقال المقريزي في موضع آخر إن إقليم بنطابوليس يبدأ بعد مدينتي « لوبية » و « مراقية » . وجاء في كتابي « القضاعي » و « المسعودي » ما يتفق مع هذا الدليل . وكان في إقليم (لوبية) أربع وعشرون مدينة ما عدا القرى

الصغيرة . وقال المقريزي في وصف (مراقية) ـ نقلاً عن ترجمة (كاترمير)[1] :

« مدينة مراقية كورة من كور مصر وهي آخر أراضي مصر ، وفي آخر أرض مراقية تلقى أرض أنطابلس (بنطابوليس) وهي برقة ، وبعدها عن مدينة سنترية نحو من بريدين (وقدر ذلك أربعة وعشرون ميلاً) ، وكانت قطراً كبيراً به نخل كثير ومزارع وبه عيون جارية ، وبها إلى اليوم بقية وثمرها جيد إلى الغاية وزرعها إذا بـذر ينبت من الحبة الـواحدة من القمح مائـة سنبلة وأقل مـا تنبت تسعون سنبلة ، وكذلك الأرز بها جيد زاك ، وبها إلى اليوم بسـاتين متعددة . وكـانت مراقية في القديم من الزمان يسكنها البـربر الـذين نفاهم داود عليـه السلام من أرض فلسـطين فنزلهـا منهم خلائق ومنهـا تفرقت البـربر فنـزلْت زناتـة ومغليـة وصريسة الجبال ، ونزلت لواتة أرض برقة . . . إلخ . فلما كان في شوال سنة أربعة وثلثمائة من سني الهجرة المحمدية (٩١٦ ميلادية) جلا أهل لوبية ومراقية إلى الإسكندرية خوفاً من صاحب برقة ولم تزل في اختلال إلى أن تلاشت في زمننا وبها بعد ذلك بقية جيدة »[2] .

والكلمات الأخيرة كما هو ظاهر تقصد المدينـة وليس الإقليم وهي ذات دلالة كبرى لأنها تصف ما بقي من آثار المدينة حتى سنة ١٤٠٠ للميلاد . وإنا لذاكرون هنا أمراً على سبيل الاستطراف وذلك أن خرائط الملاحة لأهل البندقية كانت فيها حوالي سنة ١٥٠٠ سلسلة غير منقطعة من الأسماء على هذا الجزء من ساحل البحر الأبيض المتوسط . ولكن المقريزي يحدثنا حديثاً آخر عن مريوط فيقول إنها كانت قديماً تزدحم بهـا البيوت والحـدائق وكانت أرض الإقليم كله حدائق منثورة إلى حدود برقة غرباً . وكانت مريوط في أيامه مدينة تابعة لإقليم

---

(١) آثرنا أن ننقل الأصل من المقريزي ولـو أن به شيئـاً من الزيـادة عن الأصل الإنجليـزي المترجم عن ترجمة « كاترمير » ، فإن المقصود هو الإستشهاد بالمعنى الذي في الأصل العربي . والنص في صفحة ٢٩٥ ـ ٢٩٦ الجزء الأول طبعة النيل بمصر سنة ١٣٢٤ هـ . (المعرب) .

(٢) انظر « Mem. Geog. et Hist » الباب الأول صفحة (٣٧٤ ـ ٥) .

الإسكندرية وإليها كانت ترسل ما تثمره حدائقها من الفاكهة الكثيرة . ويقول (شميوليون) إنها كانت عاصمة لمصر السفلى في أيام الإمبراطورية المصرية القديمة ثم اضمحل أمرها شيئاً فشيئاً . وكانت في أيام (فرجيل) و (سترابو) كما يشهدان بذلك معروفة بجودة خمرها على الأقل . وتقع أطلالها اليوم على أثني عشر ميلاً إلى غرب الإسكندرية ، ولكنها لا تكاد تكون معروفة لأحد . على أن الأرض التي تحت الرمال من الغرين ، وهذا يعززها ما كان يعرف عنها قديماً من الخصب .

فمن الجلي إذن أنه قد كانت قبل فتح العرب لمصر سلسلة متصلة من المدائن وأرض فسيحة من مزارع أولها عند الإسكندرية إلى أن تبلغ (قيرين) . ولذلك فإن مسير (نيقتاس) بجيشه هناك لم يكن به من الشدة ما يستوجب مهارة كبرى في القيادة ولا جلداً عظيماً على تحمل المشاق . وأغلب الظن أن ما يوصف به الطريق في الوقت الحاضر من الوعورة فيه كثير من المبالغة ، فإن الحجاج المسلمين يسلكون ذلك الطريق من مراكش وتونس وطرابلس سائرين على أقدامهم بقرب الساحل . وتكثر آثار الإغريق والرومان في تلك البلاد ولكن أهلها اليوم من أشد الناس تعصباً . فالبدوي المتنقل هناك يمنع تلك الأرض أن تطأها قدم الباحث المتنقل . ولهذا بقيت يجهلها التاريخ وعلم الآثار القديمة أكثر مما يجهل البقاع القاصية في قلب الصحراء ، مع أن سواحلها يحف بها البحر الأبيض المتوسط وتكاد تكون على مدى البصر من بلاد إيطاليا واليونان . وهذا بالطبع راجع إلى سببين معاً : إلى حكم الترك وإلى شدة البدوي في عقيدته ، وهما سببان إجتمعا فكانا كافيين لأن يجعلا التنقل هناك متعذراً يكاد يكون مستحيلاً[1] . فلو أتيح لتلك البلاد أن تكون يوماً تحت حكم دولة متمدنة لأصبحت مبداناً فسيحاً للبحث والتنقيب . وقد يكون من الممكن أن تسترجع

---

(١) لم نحاول أن نقلل من شدة لهجة المؤلف هنا حرصاً على أمانة النقل وأنه يسرنا أن لهجته في كل كتابته لا تخرج عن الإعتدال العلمي إلا في مواضع معدودة لا تكاد تذكر . (المعرب) .

شيئاً من خصبها القديم ورخائها الماضي إذا ما أقيمت بها الأعمال الهندسية الملائمة لها .

وبعد فإنا قد خرجنا عما كنا بصدده من القول وطال بنا الحديث في سواه ، لأن ذلك يساعدنا على أن ندرك حقيقة سير (نيقتاس) بجيشه في تلك الأراضي ، ومنه نستطيع أن نعرف أنه لم يلق في طريقه إلا قليلاً من المشاق . على أنه لا شك قضى في سيره زمناً طويلاً ، وكانت المؤامرات أثناء هذا يتلو بعضها بعضاً بين أحزاب يكيد بعضها لبعض في عاصمة القطر المصري . فقد اشترك رجلان في مؤامرة ليقتلا (فوكاس) ويجعلا التاج بعده لهرقل ، وكان أحد هذين الرجلين (تيودور) بن (ميناس) الذي كان حاكم الإسكندرية تحت حكم الإمبراطور (موريق) وكان الثاني (تنكرا) ـ ويظن زوتنبرج خطأ أنه قد يكون (كريسبوس) . وكان بطريق الإسكندرية الملكاني الذي أقامه (فوكاس) لا علم له بهذه المؤامرة . ولكن (حنا) حاكم الإقليم وقائد الحامية ورجلاً آخر اسمه (تيودور) كان مراقب الأموال العامة نقلاً إلى البطريق نبأها . ثم اشتركوا ثلاثتهم في إرسال خطاب ينذرون به (فوكاس) بالخطر .

وكان الإمبراطور يعرف حق العلم ما كان عليه المصريون من تقلب الأحوال وقلة الثبات[1] ولهذا كان يريد أن يستميلهم ، فأرسل إليهم منذ حين عدداً كبيراً من الأسود والفهود لتعرض على الناس ، ثم أرسل مع ذلك عدداً من القيود وآلات التعذيب تصحبها خلع سنية وأموال لكي توزع على أصحابه وأعدائه لكل ما يستحقه . فلما جاءه كتاب البطريق تظاهر بأنه لا يعبأ بما كان يتهدده من خطر ، ولكنه لم يتردد في عزمه ، ولم يهن في عمله ، فقد كان عالماً بالحاجة الشديدة لأن تبقى مصر في يده مهما تكلف في سبيل ذلك. فدعا حاكم (بيزنطة) واستوثق منه بيمين محرجة على أن يبقى على ولائه ، ثم أرسله مع إمداد عظيم إلى الإسكندرية وإلى المسالح الكبرى مثل (منوف) و (أثريب) في

---

(١) يقصد الكاتب طبعا مصريي تلك الأيام التي كانت فيها أخلاق المصريين على ما يصف .

مصر السفلى . وأرسل في الوقت عينه أوامر مستعجلة إلى (بنوسوس) في سورية يدعوه أن يسير بكل ما يستطيع حشده من الجنود إلى مصر ، وكان (بنوسوس) عند ذلك في (أنطاكية) وقد أرسل إليها ولقب « أمير الشرق » لكي يقضي على ثورة لليهود إذ وَثبوا على المسيحيين ، وكانت ثورتهم أقرب إلى أن تكون دينية من أن تكون سياسية ، وإن كنا لا نستطيع في أكثر الأحوال أن نميز بين خيوط الدين وخيوط السياسة في نسيج حوادث ذلك العصر . وقد قام (بنوسوس) بعمله ذلك قياماً لك أن تصفه بما شئت ، فإما قلت خير قيام وإما قلت شره . فقد أنفذ عمله بأن قتل الناس جملة بين من شنق أو أغرق أو أحرق وبين من عذب أو رمى للوحوش الكاسرة ، واستحق بذلك أن يقترن اسمه باللعن والخوف . وفي الحق أنه كان رجلاً ممن يثلج قلب (فوكاس) ويقرّ عينه ، كان « ضبعاً مفترساً » يعرّس في القتل . فلما أن جاءته رسالة (فوكاس) تلقاها بقلب ملؤه السرور .

كان (نيقتاس) في هذه الأثناء يقترب من الإسكندرية من الجانب الغربي ، وسلمت له مدينة (كبسين) ـ وربما كانت هي حصن « كرسونيسوس » ، فأعتق حاميتها وأخرج من كان في السجون من الحزب الثائر ثم استمر بهم في سيره . وأرسل دعاة يسبقونه داعين إلى الثورة فيما حول (ترعة الثعبان) ـ وسميت بذلك لتعرج سيرها ـ وكانت على مسافة قريبة من المدينة . ولكنه رأى أن الجيوش الإمبراطورية راصدة له تسد عليه الطريق ، وكانت منيعة في العدد والعدة ، فدعا (نيقتاس) قائدها أن يسلم قائلاً : « تنح عن طريقنا ثم اصبر على حيادك حتى تضع الحرب أوزارها . فإن كانت الدائرة علينا لم يضرك ذلك ، وإذا كانت الدبرة لنا فإنا جاعلوك حاكم مصر . ولكن على كل حال قد إنتهى حكم فوكاس » . فأجابه القائد جواباً قصيراً إذ قال : « سنقاتلكم حتى نقتل في سبيل فوكاس » ، ثم ابتدأت الواقعة . وأكبر الظن أن ذلك القائد هو حاكم بيزنطة الذي أقسم أن يحمي الإمبراطور ، وكان أصدق في حربه من سائر جنوده وأثبت جناناً . ولكن (نيقتاس) انتصر نصراً مبيناً وقتل القائد الإمبراطوري وجعل رأسه على سنان رمح ورفع مع الأعلام المنتصرة ودخل الجيش الظافر من (باب القمر) إلى المدينة فلم يلق فيها بعد ذلك كيداً . وهرب (حنا) حاكم البلد

و(تيودور) مراقب الأموال العامة فاحتميا بكنيسة (القديس تيودور) في الجانب الشرقي من المدينة ، في حين هرب البطريق الملكاني إلى كنيسة (القديس اثناسيوس) وكانت على مقربة من شاطيء البحر . ولا يذكر لنا (حنا) أسقف (نقيوس) شيئاً عما آل إليه أمر البطريق ، ولكننا نعرف من غيره من الرواة أنه هلك .

اجتمع القسوس والعامة عند ذلك وأجمعوا رأيهم على مقت (بونوسوس) ومن كان معه من الوحوش المفترسة ، ورحبوا جميعاً بقائد (هرقل) . ثم رفعوا رأس القائد المقتول على باب المدينة ووضعوا أيديهم على قصر الحاكم وأبنية الحكومة ، كما استولوا على خزائن القمح والأموال العامة . ثم أخذوا كنوز (فوكاس) وملكوا جزيرة (فاروس) وحصنها وكل ما هنالك من السفن . ولم يكن العمل الأخير بأقل أعمالهم خطراً ، فإن جزيرة (فاروس) كما قال (قيصر) من قبل ذلك بزمن طويل حين رآها وعرف خطرها ، كانت مفتاحاً من مفتاحي مصر ، وكانت (ألفرما) هي المفتاح الآخر . ولما ملك (نيقتاس) عاصمة القطر أرسل (بونا كيس) لينشر علم الثورة في مصر السفلى . وقد كان عمله هيناً فإن المصريين في كل مكان كانوا يكرهون حكم (بيزنطة) ، فدخلت المدائن واحدة بعد أخرى تحت لواء جيش الخلاص ، وفتحت (نقيوس) أبوابها وفيها مطرانها (تيودور) ، وقام حزب الثورة في (منوف) فنهب دار الحاكم (أرستوما كوس) ودور من كان هناك من كبار الرومانيين ، وأصبح جل المدائن وجل حكام الأقاليم مع أعداء (فوكاس) ، وعاد (بونا كيس) إلى العاصمة بعد حملة موفقة منصورة . على أن الأمر كان على غير ذلك في (سنبتس) أو سمنود إذ ثبت (بول) عمدة المدينة إلى جنب لوائه ، وكان صديقه (كسماس) مريضاً أقعده الشلل ، ولكنه كان يتقد شجاعة وأنفة ، فكان يحمل في المدينة ليبث حماسته في قلوب الحامية . وكذلك كان الحال في (أثريب)[1] إذ رفض الحاكم

---

(١) لا تزال سمنود مدينة معروفة على الفرع الشرقي للنيل في نحو نصف المسافة بين دمياط ومفترق الفرعين . وكانت أثريب على الفرع نفسه وظلت مدينة عظيمة إلى القرن الرابع =

. . . .

= وموضعها اليوم على مقربة من المكان الذي يعبر فيه الطريق الحديدي نهر النيل عند « بنها العسل » . وكانت تخرج من أثريب ترعة تذهب إلى منوف ومنها تسير إلى الشمال الغربي إلى (تقيوس) . وكانت على الفرع الغربي (البلبيتي) . وقد أخطأ (دنفيل) في تعيين موضعي (منوف) و (نقيوس) ، ولكن (كاترمير) كتب بحثاً شائقاً عميقاً برهن فيه برهاناً ساطعاً على أن (نقيوس) هي قرية (بشاتي) فقد كان لها اسمان أحدهما قبطي والآخر يوناني . ودلل على أنها كانت على النيل ، وقد برهن ديوان (حنا النقيوسي) على صِدق ما ذهب إليه (كارترمير) وهو كتاب لم يره ، كما برهنت على صدق قوله نسخة خطية من كتاب (ساويرس الأشمونيني) فإنه نص على أن الاسمين يطلقان على بلد واحد وذلك في كتابه عن حياة البطريق (أندرونيكوس) . ونضيف إلى ذلك أن الاسمين (مقيوس) و (أبشادي) موجودان في اللغة العربية .

والنهر أو الترعة التي تمر بمنوف اسمها اليوم (بحر الفرعونية) وهو اسم يدل على قدم الترعة . وعند ملتقى هذه بفرع النيل الغربي توجد جزيرة اسمها (تبشير) أو هو موضع اسمه (تبشير) وأمامه جزيرة . وعلى نحو ستة أميال في شمال (تبشير) توجد قرية لا تزال يطلق عليها الاسم القبطي (الشادي) أو (أبشادي) ويظهر أن الاسم القديم لم يبق علماً على موضعه القديم ، بل إنه نقل إلى موضع آخر فإن القرية الحالية التي اسمها (أبشادي) ليس فيها شيء يدل على قدمها وقد حدث مثل ذلك في كثير من الحالات .

وقد كان الاسم القديم يطلق في الأصل على كل الأقليم وهو (جزيرة نقيوس) ثم بقي علماً على قرية صغيرة لا أهمية لها . وقد بينت (المسز بوتشر) في كتابها (قصة الكنيسة المصرية) أن موضع نقيوس هو (زاوية رزين) في الوقت الحالي . فإن هناك أطلالاً من البقايا وأرضاً فدافد بها قطع عظيمة من أعمدة من الجرانيت وغير ذلك مما يدل على قرية مصرية منقرضة . ولكن (زاوية رزين) واقعة في موقع لا يتفق وصفه الجغرافي مع الحقيقة فإنها في الجنوب الشرقي من منوف على مقربة من (الطرانة) وهي بعيدة عن الترعة القديمة التي كانت تصل منوف بالنيل . وأما الموضع الذي يسميه (كاترمير) (تبشير) فاسمه اليوم على الخريطة (سبسير) أو (شبشير) ولعلنا نجد في الاسم الأخير صدى من التسمية القديمة القبطية (بشاتي) ، وإنه لمما يؤسف له أن (شبشير) و (زاوية رزين) قد أهملهما علماء الآثار إهمالاً تاماً شأنهم في كثير من مواضع المدائن القديمة بمصر السفلى . ولست أتردد في أن أنتصر لكاترمير فيما ذهب إليه من قوله في (شبشير) وأضيف هنا أنني استعملت اسم (نيكيو) متبعاً في ذلك التسمية القبطية لا التسمية اليونانية (نيكيون) ولا التسمية العربية (نقيوس) فقد كانت (نيكيو) محلة =

(مرقيان) أن يدخل في زمرة الثائرين ، وكان صديقاً آخر من أصدقاء (بول) . فكأن الحرب كانت لا تزال جذعة .

وكان (بونوسوس) قد بلغ في سيره مدينة قيصرية عندما أتاه نبأ بسقوط الإسكندرية ، فحفزه ذلك النبأ إلى أن يكون عمله أشد قسوة ، ثم وضع جنوده في السفن من ذلك الثغر واتجه نحو الجنوب مسرعاً ؛ وهناك إما أن يكون قد أنزل فرسانه على حدود مصر وإما أن تكون فصيلة من الفرسان لقيته آتية من فلسطين . وكانت خطته أن يذهب إلى (أثريب) ليمنع سقوطها في يد عدوه . فقسم أسطوله إلى قسمين لكي يصل إلى تحقيق غرضه ، فأما أحدهما فإنه سار في الفرع الأكبر الشرقي للنيل ، وأما الثاني فقد سار في الفرع (البلوزي) ، وجاءت الفرسان معقبة في أثره من البر . وكان في أثريب عدا الحاكم (مرقيان) سيدة ذات بأس اسمها (كرستدورا) وكانت تنصر جانب الإمبراطور يدفعها دافع إنتقام شخصي . وجاء إليها (بول) و (كسماس) من منوف ليشتركوا جميعاً في الرأي ويدبروا أمر الحرب . وقد أرسل مطران (نقيوس) ومراقب الأموال (ميناس) يطلبان إلى (مرقيان) و (كرستدورا) أن يرميا تماثيل (فوكاس) ويذعنا لأمر هرقل وكان ذلك عندما سمعا بقدوم (بنوسوس) وبلوغه البرزخ الشرقي مع جنوده . ثم جاءت الأنباء بعد ذلك أنه أخذ مدينة (ألفرما) . وكان من قواد هرقل في جيش عند (أثريب) اثنان وهما (بلاتو) و (تيودور) ، والحق أنه يخيل إلينا ألاّ نهاية لعدد الأشخاص الذين اسمهم (تيودور) ، فكانا يرقبان زحف (بنوسوس) فزعين خائفين وأرسلا إلى (بوناكس) على عجل رسالة يطلبان فيها المعونة . فما أبطأ (بوناكس) في أن يسير على الفرع الغربي للنيل (الفرع البولبيتي) حتى بلغ (نقيوس) وهناك علم أن (بونوسوس) وصل إلى (أثريب) . وترك (بنوسوس) تلك المدينة وراءه وسار على الترعة التي تخرج من النهر ذاهبة إلى الغرب نحو

= رومانية وهي مذكورة في « ثبت البلاد الأنطونيني » .

ملاحظة للمعرب ـ ولكننا آثرنا استعمال الاسم العربي وحده دائماً وهو (نقيوس) ولعل هذا أمر طبيعي لكتاب ينقل إلى اللغة العربية .

منوف . وسار معه (مرقيان) و (كسماس) والمرأة التي لا يفل حدها ولا تكل همتها (كرستدورا) .

سار (بول) عندئذ بمن معه ليلحق بجيش (بونوسوس) . وما كاد الجيشان الإمبراطوريان يجتمعان حتى جاء (بوناكس) وحل تجاههم . واستحر بعد ذلك القتال واستعر وكان فيه القضاء ، فإن جيوش الثوار لم يبق منها فل ، بل هزمت هزيمة تامة فقذف بجزء منها في الترعة وقتل منها من قتل وأسر من أسر ووضعوا في القيود ، وأخذ (بوناكس) نفسه أسيراً ثم قتل صبراً . ولقي قائد آخر اسمه (ليونتيوس) عين ما لقيه (بوناكس) ، وأما (بلاتو) و (تيودور) فقد استطاعا الهرب واعتصما بدير قريب من المكان . ولم يكن في (نقيوس) قوة على مقاومة جيش (بونوسوس) المنتصر مع أنها كانت ذات حصون ، وعلى ذلك خرج المطران (تيودور) ومراقب الأموال (ميناس) ومعهما الإنجيل والصلبان في موكب وقور سائرين إلى القائد المنتصر نازلين على حكمه راجين عفوه . وكان خيراً لهما أن يلقيا بأنفسهما من أعلى أسوار مدينتهما ، فقد أودع (ميناس) السجن وغرم ٣٠٠٠ قطعة من الذهب ثم أذيق العذاب بأن جلد جلداً طويلاً ، ثم أطلق سراحه فلم يبق إلا قليلاً ومات من الجهد . وأما (تيودور) فقد أخذه (بنوسوس) معه إلى (نقيوس) وقد دخلها عندئذ بجيشه ، فرأى عند باب المدينة تماثيل فوكاس وهي محطمة على الأرض ، وقد شهد (مرقيان) و (كرستدورا) أن ذلك إنما من فعل المطران (تيودور) فأمر بأن يضرب عنق ذلك المسكين . وأعقب ذلك قتل القائدين (بلاتو) و (تيودور) وثلاثة من أعيان منوف وهم (إيسيدور) و (حنا) و (جوليان) وكانوا جميعاً قد هربوا فالتجأوا إلى دير فأسلمهم رهبانه خاضعين . وأما عامة الأسرى فقد نفى (بونوسوس) منهم من كانوا في خدمة الإمبراطور (موريق) وقتل سائرهم ممن كانوا قد دخلوا الجيش وحملوا السلاح تحت لواء (فوكاس) .

ارتدت موجة النصر عند ذلك ، وأوشكت أن تذهب إلى جانب الإمبراطور الحاكم ، وصار (بونوسوس) بمثابة سيد مصر السفلى . وأسرعت جيوش الثوار

من كـل صوب نحـو الإسكندريـة تسلك الترع الكثيـرة التي تخترق أرض تلك الجهات ، لأنهم كانوا يخشون الحرب ولا يأمنون أن يسلموا . وكان من أسهل الأمور على (بونوسوس) أن يسير من (نقيوس) في الفـرع الغربي من النيـل ثم يهبط في الترعة المؤدية إلى الإسكندرية .

كان (نيقتاس) في الإسكندرية على إستعداد كامل للقاء عدوه ، وقد حشد في المدينة جيشاً كبيراً بعضه من جند منظمة وبعضه من أحابيش فيهم البحري والمدني ، يعززهم الحزب الأخضر[1] في المدينة . وكانت دور الصناعة دائبة على عمل السلاح والحديد ، ووضعت الجنود على الأسوار ومعهم آلات الدفاع القـوية . ويلوح أن (بنـوسوس) أرسـل (بول) لكي يـأتي المدينـة من الجنوب بأسطول من السفن ، ولعل ذلك كان عند الموضع الذي تدخل فيه التـرعة إلى المـدينة من بـابين عظيمين من الحجـر بنـاهمـا (طـاطيـان) وحصنهـا في أيـام الإمبراطور (فالنس) . فلما جاء أسطول (بول) حتى صار على مـدى الرمي من آلات الدفاع بالمدينـة قذفت عليـه الحجارة الضخمـة قذفـاً مريعـاً فوقعت بين السفن تحطم منها ، فلم يستطع (بول) أن يقترب من الأسوار وأمر سفنه بالرجوع خوف أن تغرق أو تتحطم . فانظر ما بلغته مجانيق الإسكندرية من القوة في ذلك الوقت .

(١) كان مما يدعو إلى التفرقة في مدن الدولة الرومانية في آخر عهدها وجود حزبين أحدهما الأزرق والآخر الأخضر . وكـان كل منهمـا يكيد لـلآخر حيث استطاع حتى في ميادين السبـاق . وقد وصف المؤرخـون ذلـك بتـوسـع فليـرجـع إليهم ولنـذكـر منهم المؤرخ الإنجليزي (جبون) . (المعرب) .

الفصل الثالث

خيبة بنوسوس

طريق سير (بونوسوس) ـ يهاجم الإسكندرية ـ صده وهزيمته ـ ما فعله (بول) ـ محاولة قتل (نيقتاس) ـ إستعادة (نقيوس) ـ (بونوسوس) يطرد من مصر وتفتح البلاد باسم هرقل ـ حالة الأحزاب الدينية في مصر .

يظهر أن (بونوسوس) وإن كان قد جعل سيره بحذاء ترعة كليوباترة وهي أكبر الترع التي تخرج من الفرع البلبيتي ذاهبة نحو الإسكندرية ، قد اتخذ سبيل البر على الأقل في المرحلة الأخيرة من مسيره . وقد نزل أول منزل له في (ميفاموميس) ثم نزل في (دمكاروني) بحسب رواية الأسقف المصري . ولسنا نجد وصفاً لهذين الموضعين في كتاب (زوتنبرج) حتى إنهما ليحيران من يسمع بهما أوّل الأمر . غير أنه ورد في سياق ذلك الكتاب أن (ميفاموميس) هي (شبرا) في وقتنا هذا . وهذه لا بد أن تكون (شبرا) القريبة من دمنهور . ويذكر (شمبليون) مدينة اسمها (موممفيس)[1] ويقول إنها على سبع فراسخ من دمنهور إلى جهة الغرب ، ويسمى المدينة الأخيرة (تيمنهور) بحسب ما كانت معروفة به عند المصريين القدماء . وعلى ذلك فلسنا نتردّد في أن نقول إن (ميفاموميس) هي بعينها (موممفيس) وإن موضعها بقرب دمنهور . ولكن (شمبوليون) لا يمكن أن يكون على حق في قوله إنها هي عينها (بانسوف خت) التي سماها العرب (منوف السفلى) والتي يقول ذلك العالم الفرنسي إنها على مسافة واحد وعشرين ميلاً من (دمنهور) وهي مسافة يستحيل تصوّرها .

(١) ويذكر سترابو أيضاً إقليم موممفيس .

أما (دمكاروني) فلا يستطيع الإنسان أن يذكر اسماً شبيهاً في كتاب آخر ، ولكنا إذا علمنا أن (دم) أو (تم) كان حرفاً يوضع في أول أسماء البلاد في اللغة المصرية القديمة ومعناه (مدينة) ـ إذا ذكرنا ذلك لم يكن ثم موضع للشك في نظرنا أن (دمكاروني) هي الاسم القبطي لمدينة (كيريوم) أو (كريون) [1] . وهذا التفسير يتفق كل الإتفاق مع وصف ذلك الإقليم فإنَّ (كريون) كانت واقعة إلى الغرب على الترعة التي كان (بنوسوس) يسير عليها ، وذلك يتفق مع ما ورد في الكتاب . وهي فوق ذلك في نحو منتصف المسافة بين الإسكندرية ودمنهور ، إذ هي على نحو ثمانية وثلاثين كيلو متراً من الإسكندرية ، وعلى نحو واحد وثلاثين كيلو متراً من دمنهور .

سار (بنوسوس) من (كريون) ولم يلق كيداً إلى أن بلغ الجانب الشرقي من العاصمة وهناك وقف بجيشه على مرأى من أسوار المدينة ، وعقد النية على أن يهاجمها في غده وهو يوم الأحد . وإنه لمما نتوق إليه لو استطعناه أن نعرف الوسائل التي كان يطمع أن يصدع بها الأسوار العالية والحصون المنيعة التي كانت تحرس تلك المدينة الكبرى[2] .

غير أن أهل الإسكندرية لم يكونوا في حال يستطيعون معها صبراً على الحصار . فيقال إن قديساً من أهل صعيد مصر اسمه (تيوفيلوس) (الواثق بالله) أو (صاحب الإعتراف) كان يعيش على رأس عمود . ويلوح أنه تلقى فوق ذلك العمود الحكمة والكياسة . فنصح (نيقتاس) أن يخرج ويناجز أعداءه القتال . فخرج بجنوده ووقف بهم داخل (باب أون) وكان الطريق الأكبر الذي يشق المدينة طولاً طريقاً واسعاً فسيحاً ، فكان فيه ما يتسع لحشد الجيش . أما اسم « باب أون » فلا يفسره « زوتنبرج » ولا يجد الناظر إليه لأوّل مرة أي شبه بينه

---

(١) من الغريب أن هذا التفسير لم يرد في (أميلينو) فإنه عند كلامه على هذه الفقرة في كتابه (Geog. Copte) يزعم أن ذلك المكان قرية خارج الإسكندرية ـ وكأنها من أرباضها .

(٢) يجدر بنا أن نذكر هنا أن الإسكندرية كان يطلق عليها في كل ما كتب في ذلك العصر اسم (المدينة الكبرى) وكانت القسطنطينية يطلق عليها تمييزاً لها اسم (المدينة الملكية) .

وبين علم معروف من أعلام الإسكندرية . ولكنا نجد في موضع آخر من الكتاب أن اسم « أون » مرادف « لعين شمس » واسم « عين شمس » هو الاسم العربي للمدينة المشهورة (بهليوبوليس) . وكان الاسم المصري القديم لهليوبوليس هو « أون » . (فباب أون) على ذلك هو الباب المتجه نحو مدينة (هليوبوليس) ويمكن فوق ذلك أن يقال إنه هو بعينه الباب المعروف « بباب الشمس » ، وهو في نهاية الطرف الشرقي لذلك الطريق الواسع الذي كان يشق الإسكندرية من الشرق إلى الغرب ، كما أن (باب القمر) كان عند نهاية الطرف الغربي منه . وكان يقطع ذلك الطريق عند مفترق واسع طريق آخر يتجه بين الشمال والجنوب . ولنا أن نقول هنا إن كثرة ورود الأسماء المصرية كما هو ظاهر من استعمال اسم (أون) هنا وفي أسماء وردت في مواضع أخرى يدل دلالة على أن (حنا النقيوسي) كتب هذا الجزء من ديوانه الأصلي باللغة القبطية .

والآن فلنعد إلى ما كنا فيه . فإن الجيوش الإمبراطورية أتاها الأمر عند ذلك أن تزحف على المدينة يقودها قائد فارس . فتقدموا ولكنهم قبل أن يقتربوا من المدينة أرسلت عليهم النيران المحرقة من مجانيق عظيمة كانت تزمجر فوق الأسوار والآطام ، وأصابت إحدى تلك المقذوفات القائد فكسرت فكه وأردته عن فرسه صريعاً لم تمهله . وأصابت أخرى قائداً ثانياً فقتلته . فتردّد الزاحفون وقد أوقعت هذه المجانيق فيهم الرعب والإضطراب . وعند ذلك أمر (نيقتاس) جيشه بالخروج من المدينة ، ففتح (باب الشمس) وخرج الجيش منه فوقف صفاً وحمل على العدوّ حملة صادقة ثلم بها صفوفه ، واستمر القتال ثم انجلى عن شطر جيش (بونوسوس) شطرين ووقعت على أثر ذلك الهزيمة . ولما رأى (نيقتاس) أن أكثر المنهزمين يسرعون نحو الشمال سار بجماعة من رديفه وهم من جنود السودان ، وخرج من باب آخر قريب من كنيسة (مار مرقص) في الجهة الشمالية من المدينة تجاه البحر وعند نهاية السور من الشمال الشرقي . فما لبث أن سبق المنهزمين الفارين وأخذ عليهم السبيل فردهم من حيث جاءوا فكانوا في رجوعهم بين مستهدف تحت الأسوار تحصده القذائف من حجارة وسهام ، وبين جانح نحو البساتين يلجأ إلى حوائطها ذات الأشواك فيحصر هناك ويقتل . وأما

من هربوا من جيش (بونوسوس) نحو اليسار أي إلى الجنوب فقد وجدوا أنفسهم حيال ترعة تقطع عليهم سبيلهم . وكانت سيوف العدوّ تلمع من ورائهم وهم يتبعونهم ، فأخذ الخوف بقلوبهم وأذهل ألبابهم فصاروا يخبط بعضهم بعضاً خبطاً بالسلاح وقد أعمى الهول أبصارهم .

وهكذا تمزق جيش (بونوسوس) كل ممزق . وكان بين القتلى (مرقيان) حاكم (أثريب) و (ليونتيوس) و (فالنس) وكثير من الأعيان . وكان للواقعة من الأثر ما جعل الحزب الأزرق نفسه يتخلى عن (فوكاس) . ولكن (بونوسوس) نجا بنفسه وارتد إلى قلعة (كريون) وكريون مدينة سيأتي ذكرها بعد ثلاثين عاماً عند مسير العرب بقيادة عمرو إلى الإسكندرية ، وكانت واقعة على كلتا ضفتي الترعة الآتية من النيل إلى العاصمة ، ويصفها (ابن حوقل) بأنها كانت في أيامه مدينة جميلة تحيط بها الحدائق ، وهي لا تزال باقية إلى اليوم ولكنها قرية صغيرة . ولسنا ندري أي عمل قام به (بول) وأسطوله في أثناء هذا القتال . فلعله كان يناجز جانباً من جيش العدو في الجنوب الغربي من المدينة ، إذ لم يكن قريباً هو وأسطوله من محل القتال ، ولم يساعد في حرب البر ولم تكن له يد في حماية الفارين .

فلما سمع (بول) بعد ذلك بتلك الهزيمة القاضية سولت له نفسه أن يسلم ويلتحق بأصحاب (نيقتاس) . ولكنه مع ذلك ثبت في جانب حزبه واستطاع أن يتقهقر بوسيلة من الوسائل إلى مدينة (كريون) حيث لحق بالقائد (بونوسوس) . ولا بد لنا أن نقر بالإعجاب على كره منا بما كان لهذا القائد (بونوسوس) من قوة الجنان وسّعة الحيلة . فإنه لم يدر في خلده ساعة أن يخرج هارباً من النضال ، بل سار مسرعاً في الترعة إلى أن بلغ فرع النيل الغربي ، ثم سار في النهر صعداً إلى (نقيوس) وكان جنوده لا يزالون يحمونها . فجمع هناك أسطوله وأصلح من شأنه واستطاع أن يسيطر على النهر بعد أن مر عدداً كبيراً من سفن الإسكندرية . وإذ كان غير قادر على لقاء (نيقتاس) مرّة أخرى، اتخذ سبيله في ترعة أخرى (ولعلها ترعة الروجاشات) سائراً نحو مريوط . ثم سلك ترعة الثعبان التي في غرب الإسكندرية قاصداً إلى مريوط يريد أن يستولي عليها ويجعلها قاعدة له

يجهز منها السرايا إلى الإسكندرية . ولكن (نيقتاس) بلغه خبر هذه النية فأمر أن تهدم القنطرة التي عند (دفاشير) بقرب مريوط وبذلك سد مجرى الترعة وحال دون إتمام ما أراد عدوه .

فثارت ثورة (بونوسوس) عندما علم بهذه الضربة وعزم على أن يدع الحرب الصريحة وأن يقتل (نيقتاس) غيلة . فأوعز إلى أحد جنوده أن يذهب إليه كأنه رسول جاء ليفاوضه في أمر التسليم وشروطه ، وقال له : « خذ معك خنجراً صغيراً واجعله تحت ردائك فإذا ما اقتربت من (نيقتاس) فضعه فيه واخرق به قلبه حتى تتركه قتيلاً . ولعلك تقدر أن تنجو في أثناء الإضطراب الذي يعقب ذلك، فإذا أنت لم تستطع النجاة فقد مُتَّ شهيداً في سبيل حماية الإمبراطورية، وسأجعل ولدك جميعاً في قصر الملك أتعهدهم بنفسي وأجري عليهم الأرزاق مدى حياتهم » . وذلك كان تدبير (بونوسوس) ولكنه فشا إذ أذاعه خائن . فإن رجلاً ممن كان معه اسمه (حنا) أرسل كتاباً ينذر فيه (نيقتاس) ويحذره حتى إذا ما جاء الفاتك إليه أحاط به الحراس وفتشوه فوجدوا معه الخنجر مخبوءاً فضربوا به عنقه .

فلما خاب (بونوبسوس) في كيده سار في البر إلى (دفاشير) وشفى غله بأن أحدث في أهلها مقتلة عظيمة . وجاء (نيقتاس) يسعى للقائه غير أن (بونوسوس) كان يعلم أنه من الحمق أن يخاطر بمناجزته القتال بمن معه وهم فلول ضعيفة . فعاد أدراجه على ذلك وعبر نهر النيل والتجأ إلى (نقيوس) ليتحصن فيها مرة أخرى . وأما (نيقتاس) فإنه لم يتبعه إلى العدوة الأخرى ، بل بقي في غرب النهر وسار إلى مريوط فأخذ المدينة والإقليم ووضع فيهما جنداً كثيراً . وكان شديد القلق لما لقيه من استماتة عدوه وشجاعته وسرعة حركته التي كان يفسد بها عليه خططه . ولهذا كان يقدم الحزم في مقابلة حركات عدوه الجرىء ، فلم يعبر النهر ذاهباً نحو منوف إلا بعد أن خلص له كل ما وراءه وثبت قدمه على الجانب الغربي من النيل . وكان في منوف حصن حصين ، وهو من أكبر ما أقامه (تراجان) ، وكان في طاقته أن يبقى على المقاومة ما شاء لو دافع عنه من فيه دفاعاً قوياً . ولكن الناس كانوا من غير شك يميلون إلى حزب الثوار وكان جنود

الإمبراطورية تخبو شجاعتهم برغم شجاعة قائدهم وجراءة احتياله في الحرب . ففر عدد كبير من جند الحامية وأخذ الحصن عنوة بعد قتال ضعيف .

فلما تم (لنيقتاس) ملك ضفتي النيل وما حولهما من البلاد سار قاصداً مدينة (نقيوس) وقد ضيق عليها من كل جانب . فبلغ الأمر بالقائد (بونوسوس) أن وهنت عزيمته ففرّ تحت جنح الليل ، ولعله انسل من الجيش المحاصر وسار إلى الشرق نحو (أثريب) أو لعله هوى مع النهر إلى الشمال ثم ضرب نحو مدينة (صان) سالكاً إليها إحدى الترع الكثيرة التي هناك . وعلى كلا الحالين استطاع أن يبلغ (الفرما) سالماً ومن ثم ركب البحر إلى فلسطين ومنها سار في طريقه إلى القسطنطينية تشيعه لعنات الناس إلى أن لحق بسيده (فوكاس) . وكان فتح (منوف) و (نقيوس) إيذاناً للمدن الأخرى ولسائر القوّاد أن يسلموا ، وأسر (بول) حاكم (سمنود) وصديقه المقعد الجريء (كسماس) ولكن الفاتح المنتصر عفا عنهما عفواً صريحاً ، ثم قبض (نيقتاس) على زعماء الحزب الأخضر وأنذرهم وأوعدهم إذا لم يسيروا بالحسنى ، وذلك لأنه رآهم قد اتخذوا نصره على عدوه ذريعة للإعتداء على الحزب الأزرق ولقتل الأنفس ونهب الأموال ، فتصالح الحزبان وعهد لحكام جديدين على المدائن كلها واستقر الأمر وعاد سلطان القانون وصار هرقل سيد القطر المصري .

لقد كانت الحرب قتال المستميت وطالت بها مدة الزمن وتقلبت بها الأمور تقلباً عجيباً تارة يبسم فيها الحظ وتارة يعبس . فقد رأينا البلاد في سباتها وهي جاهمة كارهة ، فإذا هي تهب على صوت الصور من جيوش (هرقل) . ثم فتح (نيقتاس) الإسكندرية بغير قتال يذكر ورأينا الثورة تنتصر في مصر ، ثم رأينا (بونوسوس) وهو يهوي كأنه نمر انقض على رأس مصر السفلى ، فاكتسح كل ما دونه حتى بلغ أسوار الإسكندرية وصدم حصونها صدمة لم تغن شيئاً فارتد وهو كليم حسير عاجز عن المضي في النضال إلا مناجزة هينة بين حين وحين . وبقي على ذلك مدة تخمد فيها شجاعته وحماسته المتقدة . فلما لم يبق له ما يستطيع به المقاومة مكر بأعدائه الذين أحاطوا به ، فهرب منهم تحت جنح الليل ولم

يمكنهم من نيل ثأرهم منه . وإنها لصورة بديعة زاهية الألوان تدل كل ناحية منها على حقيقة ما تصوره ، وقد بقيت كلها مجهولة لا يعرف عنها التاريخ شيئاً حتى كشف عنها تاريخ (حنا) أسقف (نقيوس) .

ولسنا نجد في كتب مؤرخي بيزنطة كلمة واحدة تقص علينا شيئاً من أنباء هذه الحرب العجيبة التي ثارت ثورتها بمصر ، اللهم إلا أن (ديوان بسكال) يذكر في حوادث سنة ٦٠٩ للميلاد « ثورة إفريقيا والإسكندرية » . ونجد في كتاب (جبون) ـ وهو يعرف كل ما كتبه هؤلاء المؤرخون معرفة لا نقص فيها ـ خلاصة استخلصها من مطالعة ما كتبوا عن الثورة فيقول : « احتشدت جيوش أفريقيا ، وجندها فتيان مقدامان (هرقل ونيقتاس) واتفقا على أن أحدهما يسافر بالأسطول من (قرطاجنة) إلى (القسطنطينية) ، وأن يسير الآخر بجيشه عن طريق مصر وآسيا ، وأن يكون الرداء الإمبراطوري الجائزة لمن يجد منهما وينجح . فتسرب شيء قليل من أخبار ذلك العزم إلى (فوكاس) ، فأخذ زوج الفتى (هرقل) وأمه رهينتين كي يبقى (هرقل) على ولائه . ولكن (كريسبوس) وكان ماكراً غدّاراً هون أمر ذلك الخطر البعيد عند الإمبراطور ، وأهمل أمر الدفاع أو توانى فيه ، واستنام الطاغية وتراخى حتى ألقت السفن الأفريقية رواسيها في خليج هلسبونت »[1] . ولا يرد ذكر لحوادث مصر وما كان لها من الأثر في مصير الثورة ، بل لقد جاء في كتاب (جبون) بعد بضع صفحات من الباب نفسه وصف لدخول الفرس في مصر في أيام كسرى سنة ٦١٦ للميلاد ، وفيه يقول عن مصر صراحة « إنها الإقليم الأوحد من أقاليم الدولة لم تعتره غزوة من خارجه ولا حرب في داخله منذ أيام دقلديانوس » . وهذه عبارة يعجب لها الإنسان ، لأن (جبون) ينقض جزءاً منها في وصفه القصير المبين لأقباط مصر في الباب الثاني . فالحق أن الإنسان كلما أمعن في درس ذلك العصر تبين له وزاد عنده وضوحاً أن مصر كانت فيه أكثر بلاد الدولة هياجاً ، وأيقن أن أمورها كانت في اضطراب يكاد يكون مطرداً منذ انعقد مجلس (خلقيدونية) ، وما أكثر الأدلة على

(١) هو الدردنيل .

ذلك الإضطراب في ثنايا كتاب (حنا النقيوسي) وفي كتب أخرى مثل (تاريخ بطارقة الإسكندرية) الشهير الذي ألفه (رينودو) . وهذه الكتب تصف إضطراب مصر بغير تعرض للقصة التي نحن بصددها قصة هرقل بذاتها .

وليس هذا موضع البحث في حوادث تاريخ مصر في القرنين الأخيرين من حكم الرومان ، كما أنه ليس موضع البحث في المراجع التي يرجع إليها في ذلك التاريخ . ويقيننا أنه إذا جاء الوقت الذي يكتب فيه تاريخ هذا العهد كتابة وافية ظهر أن ذينك القرنين كانا عهد نضال متصل بين المصريين والرومانيين ، نضال يذكيه اختلاف في الجنس واختلاف في الدين ، وكان اختلاف الدين أشد أثراً فيه من أختلاف الجنس . كانت علة العلل في ذلك الوقف تلك العداوة بين (الملكانية) و (المونوفيسية)[1] وكانت الطائفة الأولى كما يدل عليه أسمها حزب

---

(١) لم يكن المنوفيسيون فيما بينهم وحدة بل كانوا أحزاباً يشهد بذلك ما كان من الخلاف بين (تيودوسيوس) الرجل العالم و (جايان) القبطي ونضالهما على ولاية البطرقة اليعقوبية في أوائل القرن السادس . وكان كل الرهبان مع (جايان) وقد بزه (تيودوسيوس) فقام بالصلاة في كنيسة (مار مرقص) وقلد الولاية قبله ، ولكن الناس ثاروا عليه وأنزلوه عن عرشه ، فما كاد (جايان) يلي البطرقة حتى تدخلت (تيودورا) في الأمر فأرسلت (نارسيس) ليخلعه ويعيد (تيودوسيوس) وأعقبت ذلك ثورة بين الناس ونشب قتال في شوارع الإسكندرية أريقت فيه الدماء واشترك فيه الناس جميعاً حتى النساء ، فكن يرمين بالآجر من أعلى المنازل على رءوس الجنود الغرباء الذين يتقاتلون في الطرق . وقد ثارت الحرب الأهلية في أيام (جستن) الأول بين حزب كان يعتقد أن جسم المسيح فان يفسد وآخر يعتقد أن جسمه باق لا يفنى ولا يفسد . ولما قلد (جستنيان) (زويلوس) ولاية الدين ثار الناس وغلبوا جنود الروم فلجأ إلى أن جعل (أبو ليناريوس) والياً للمدينة وبطريقاً في آن واحد ، فنشأت عن ذلك مذبحة أمر بها المطران من محرابه وهو في سلاحه وعدة حربه فجرت الدماء من المصلين من القبط ، وقد أنفذ (جستنيان) أمراً يريد به الإصلاح في مصر ولكنه كان أمر سيد مستبد إلى رعية من عبيد ، ويفهم من سياق كتاب (حنا النقيوسي) أن حزب (جايان) كان لا يزال موجوداً في وقت كتابة ذلك الكتاب . ولكن القبط تركوا تدريجاً عقيدة جايان في أن جسد المسيح لا يفنى ولا يفسد وغلب على اعتقادهم رأي (تيودوسيوس) في أن جسمه كجسم البشر . وقد اقتبس (لوكيان) توقيع خطاب كتبه (خيل) وهو البطريق السادس والأربعون وتوقيعه هو « خيل =

مذهب الدولة الإمبراطورية وحزب الملك والبلاط ، وكانت تعتقد العقيدة السنية الموروثة ، وهي إزدواج طبيعة المسيح . على حين أن الطائفة الأخرى وهي حزب القبط (المنوفيسيين) أهل مصر كانت تستبشع تلك العقيدة وتستفظعها وتحاربها حرباً عنيفة في حماسة هوجاء يصعب علينا أن نتصورها أو نعرف كنهها في قوم يعقلون بله ممن يؤمنون بالإنجيل . فالحق أن روح التعصب الشديدة التي ثارت بمن مزقوا جسم (هيباشيا) قطعاً في المحراب كانت لا تزال كامنة في القلوب لم تتغير ، غير أنها بعد أن كانت تدفع إلى التنكيل بفتاة جميلة يعزى إليها ذنب الوثنية صارت تثور بفرقتين كل منهما تدعى أنها ابنة المسيح وترمي الأخرى بأنها من نسل الشيطان . وفوق هذا قد كان يزيد الأمر شراً ما كان بين الحزبين الأخضر والأزرق من نضال ، إذ كانت عداوة هذين الحزبين في مصر عداوة حقيقية بلغت أشد ما بلغته عداوتهما في أي جهة من جهات الدولة الرومانية . ولم تكن تلك العداوة ناشئة عن خلاف الدين غير أن الخلاف الديني كان يزيدها ضراماً .

حسبنا هذا القول لندل به على ما كانت عليه مصر في ذلك العصر من قلة السلام في داخلها . أما ما يزعم الزاعمون من أنها كانت بمنجاة من غزوات الأجانب وإغاراتهم فيكفي لإظهار خطئه أن نذكر إغارة الفرس في أيام الإمبراطور (أنستاسيوس) حين أحرقت كل أرباض الإسكندرية كما يشهد بذلك (سعيد بن بطريق) وهو كاتب مصري المولد . وهو يذكر أن القتال ظل قائماً بين المصريين وغزاة الفرس في مواقع يتلو بعضها بعضاً ، وأن البلاد عصفت بها مخالب الخراب فلم تكد تنجو من السيف حتى أصابتها مجاعة دفعت بالناس إلى الثورة . وماذا عسانا أن نذكر عن عسف الإضطهاد وعن المذابح وما سال فيها من الدماء وتشجيع الحكام لذلك حتى (جستنيان) نفسه ؟ وماذا عسانا أن

= بمشيئة الله مطران الإسكندرية وطائفة التيودوسيين » وهذا يكون في القرن الثامن للميلاد وتوقيعات الكتب القبطية في القرن السابع كانت على هذه الصورة عينها ، ويقول (ساويرس) إن القبط هم (التيودوسيون) .

نـذكر من الثـورات الصغيرة مثـل تمـرد (ارستمـاخـوس) في أيـام الإمبـراطـور (مـوريق) ، ومن خروج اللصـوص في عصابـات منظمـة ، ومن غارات البـدو وقبائل السودان وما يصحبها من انزعاج دائم ، إذ كانت تلك القبائل إذ ذاك كما هي اليوم خطراً يهدد حدود البلاد . فلئن كانت الحرب في كثير من الأحيان غير ثائرة في البلاد في الحقيقة فإن شبحها المخيف كان يتراءى لها أبداً ويرفعه الآل على آفاقها .

فمن الواضح إذن كما ترى أن أسباباً كثيرة أدّت إلى أن تكون تلك البلاد دائمة الإضطراب . وكانت الأحزاب بها كثيرة عنيفة الخلاف . فكـان لأي غاز عقـد العزم على غـزوهـا أن يعتمـد على أحـد تلك الأحـزاب التي بهـا . أمـا (نيقتاس) فقد أعانه أن (فوكاس) كان كريهاً عند النـاس كراهـة لا شك فيهـا . ذلك لأن جرائمه قد زادت على الطاقة حتى في نظر الرومانيين أنفسهم . وكان القبط يرونه طاغية فتاكاً ، وكان فوق ذلك قطب سلطة أجنبية وعقيدة مكروهة[١] كـان وجودهـا بينهم ينغص عليهم حياتهم ويجعـل عيشهم مراً . على أنـه من الجائز أن (نيقتاس) أحس أن بقاءه بمصر لازم حتى بعد خروج (بونوسوس) منها لكي يدعم سلطانه ويوطده . ومن سـوء الحظ أن تواريـخ تلك الفترة ليس من السهل إدراكها فإن (حنا النقيوسي) على ما يظهر يزعم أن مدة الحرب قبل هزيمة (بونوسوس) عند الإسكندرية قد وقعت في السنة السابعة من حكم (فوكاس) أي قبل تمام سنة ٦٠٩ ، فتكون الواقعة ذاتها إذن قد حدثت في شهر نوفمبر من تلك السنة[٢] وقد تكون سائر الحوادث قد استغرقت بضعـة أسابيـع أخرى ، ومعنى هذا أن (نيقتاس) قد تم له ملك مصر في ربيع سنة ٦١٠ . ومن العجيب أن أمراً واحداً لا يرد له ذكر في ديوان أسقف (نقيوس) ، وذلـك هو القسط الـذي كان

---

(١) يقول في الأصل (accursed) ومعناها (ملعونة) .

(٢) وهذا يوافق ما يروى من أن (حنا الرحوم) قد اختير بطريقاً سنة ٦٠٩ في مكان (تيودور) الذي قتل في ثورة (نيقتاس) (انظر كتاب لوكيان) (Or. Christ.) الجزء الثاني صفحة ٤٤٤ .

لحصن (بابليون) في النضال ، وهو ذلك القوي بقرب (ممفيس) . فقد كان في القوة ثاني الحصون بمصر لا تفوقه إلا الإسكندرية . ولا شك أنه قد كانت فيه قوة مسلحة من جنود الإمبراطورية ، وقد كان في وقت غزو العرب أول ما قصد إليه القائد العربي ، وكان فتحه فصل الخطاب في إنتصار الهلال . وكل هذا واضح جلي يصفه ديوان ذلك المؤرخ حتى لا يسع الإنسان إلا أن يفهم من ذلك الإغفال أن الحصن قد سلم إلى (نيقتاس) بغير حرب . فإذا صح هذا وإذا صح أن الحرب قد وضعت أوزارها قبيل ربيع سنة ٦١٠ كان من الجلي أن (نيقتاس) لم يكن يخطر له ببال أن يسارع نحو (القسطنطينية) ، ولو فعل لاستطاع أن يصل إلى العاصمة البيزنطية ويخلع (فوكاس) قبل زحف هرقل بستة أشهر ، لأنه لا محل للشك في أنه كان يستطيع أن يجهز في مصر أسطولاً كافياً لغرضه هذا . حقاً إن المؤرخ (قيدرينوس) يقول إن وقعة (بونوسوس) بأهل إنطاكية ومذبحته لهم كانت في سنة ٦١٠ . ولو صح هذا لكانت الحرب المصرية كلها في خلال تلك السنة . ولكن هذا التاريخ لا يتفق مع سائر ما جاء في كتاب (قيدرينوس) وهو أيضاً لا يتفق مع (ديوان بسكال) وكذلك يختلف اختلافاً لا مجال فيه للتوفيق مع النسخة الأثيوبية المخطوطة من ديوان حنا التي عندنا . وتواريخ ذلك الديوان ـ ديوان حنا ـ على وجه الإجمال موثوق بصحتها ثقة كبيرة . وعلى ذلك فإنا نرجح أن التاريخ السابق هو الصحيح ، ويصح لنا أن نجزم بأن (نيقتاس) بعد أن أتم الغرض الذي كان موفداً إليه بأن حاز النصر على ضفاف النيل قنع بالبقاء في تلك البلاد حتى يقوم هرقل بزحفه ، وعمل على أن يجمع جيوش الدولة التي في مصر ويستميلها إلى جانبه ، ثم أن يجمع في يده أزمة موارد البلاد العظيمة من قمح وسفن ، وكانت القسطنطينية تعتمد عليها اعتماداً عظيماً .

الفصل الرابع

ولاية هرقل

رحلة هرقل ـ إقامته الطويلة في سلانيك ـ يسير بالبحر إلى القسطنطينية ـ القتال في العاصمة وموت (بونوسوس) ـ المناجزة بالبحر ـ الكنوز الإمبراطورية ترمى في البحر ـ أسر (فوكاس) ومقابلته لهرقل ـ حكم الموت وإنفاذه عليه إنفاذاً فظيعاً ـ تتويج هرقل ـ نظرة فيما سبق .

لنصف الآن ما كان من أمر هرقل في هذه الأثناء : إننا لا نعرف إلا اليسير من وصف رحلته في البحر ولا يزيد (حنا النقيوسي) من العلم شيئاً كثيراً على ما يذكره مؤرّخو (بيزنطة) من الوصف الضئيل ، فإنهم جميعاً مثله يقصرون وصفهم على ما حدث في نهاية الأمر في القسطنطينية . غير أنه من الواضح أن سيره كان بطيئاً وأنه بدأ سيره كما بدأ (نيقتاس) في قلة من السفن إذا نظرنا إلى عظم ما كان مقدماً عليه ، وأنه كان على سفنه جنود من الروم وجنود من إفريقية ، وأنه كان عليه أن يجمع السفن في أثناء سيره ويجهز أسطولاً وجيشاً يكفيان لما كان مقبلاً على اقتحامه من قتال (فوكاس) . وقد لقي ترحاباً في الجزائر وفي مدائن الساحل التي مر بها وجاءت إليه المتطوعة تترى تنضوي تحت لوائه ولا سيما من رجال الحزب الأخضر[1] . وليس ثمة من يذكر أن جيوشه لقيت مقاومة غير أنه

(١) يلوح أن بعض الشك يعتري ما قام به الحزبان الأخضر والأزرق . فقد كان الأزرق في أول الأمر مع (فوكاس) وكان الأخضر عليه . ولكنه نفر عنه حتى قلوب أصحاب الحزب الأزرق نفسه . وقد جاء في ديوان (حنا النقيوسي) ما يدل إجمالاً على أن الذي نصر هرقل إنما كان الحزب الأخضر سواء أكان ذلك في مصر أم في (تراقية) وقسطنطينية .

ولا شك لم يخطر بباله أن يقصد إلى القسطنطينية بمن سار معه من جند قليل . فإنه لما سافر من إفريقية سار على سواحل بلاد اليونان أو من خلال جزائرها حتى بلغ (سلانيك) فجعلها مقرّاً لأعماله، وأقام بها مدّة طويلة لا تقل عن عام وهو يجهز أسطولاً وجيشاً ويوثق عرى المودّة بينه وبين الكارهين لفوكاس في العاصمة وزعيمهم (كريسبوس) ، وكانت سلانيك في ذاك الوقت كما هو معروف مدينة حصينة منيعة ، وكانت إحدى مدائن قليلة في مقدونية قاومت جموع الهون وسواهم من الهمج الذين كانوا يجتاحون البلاد إذ ذاك[1] . فالحق أنها كانت باباً من أبواب الإمبراطورية الشرقية تشرف على الطريق الآتية من قرطاجنة وصقلية وغرب البحر الأبيض المتوسط إلى القسطنطينية . ففيها إذن أقام هرقل بغير قتال كما يلوح وكان مقامه فيها عزيزاً ، حتى إن أحد المؤرّخين وهو (سعيد بن بطريق) ظن على ما يلوح أنه من أهل المدينة . ولكن يجب أن نذكر أن كل ما جاء في كتاب (سعيد بن بطريق) من ذكر حوادث هذه الثورة كان أبتر وفيه خلط كثير في التاريخ ، وقد كان ولا شك مخطئاً في هذا الزعم .

ولسنا نرى من هرقل في مدّة الأشهر الكثيرة التي قضاها في (سلانيك) إلا سعياً واحداً وهو أن يكمل خطته ويجمع الأمداد ويذلل الصعاب . ولسنا ندري ما كانت الصعاب التي قامت في سبيله في ذلك العصر الذي لا نجد شيئاً من ذكر حوادثه في دواوين الأخبار . وأكبر ظننا أنه قد أبدى فيه مثلما أبداه فيما بعد في حرب الفرس ، فأعجب العالم وأدهشه من همة لا يعتريها كلال مقرونة إلى

---

(١) تجد وصفاً بديعاً لمدينة سلانيك في كتاب : « Joannis Comeniatae de Excidio Thessalonicensi Narratio » ويمكن الإطلاع عليه في كتاب . « Combeficius »
« Historiae Bizantinae Scriptores Post Theophanem » باريس سنة ١٨٦٥ صفحة ٣٢٠ وما بعدها .
فنجد فيه وصفاً شائقاً لموقع المدينة وذكراً مفصلاً لما كان فيها من أسوار وحصون ومرافىء. ويدلنا ما كان بها من طرق عظيمة وبناء شامخ وتجارة واسعة رائجة وثروة وغنى ـ يدلنا كل ذلك على ما كان للمدينة من كبير الشأن في نظر هرقل ، وقد كتبه الكاتب حوالي سنة ٩٠٠ للميلاد .

حزم وبصر بالأمور . على أنه لم يفرغ من تجهيز أمره إلا في سبتمبر سنة ٦١٠ وعند ذلك أقلع الأسطول الذي جمعه وأعد ما يحتاج إليه من المؤونة والعدة ، ولم ينس أن يحمل معه آثار الأبرار من القديسين في السفن التي في الصدر ورفع علم الصليب على رءوس ساريَاتها وجعل فوق سفينته دمية ذات حرمة خاصة « دمية لم تنحتها أيدي البشر » جعلها عند مقدم السفينة . وانتشرت أنباء الأسطول ومجيئه إلى الدردنيل إنتشار النار في الهشيم حتى بلغت العاصمة ، وما كادت حتى جهرت جماعة كبيرة من الشيوخ وأهل الدولة بالدخول في طاعة (هرقل) وكان معهم (تيودور) المجيد . ولكن يلوح أن (كريسبوس) بقي قابعاً لا يحرك ساكناً في أول الأمر . ويقول (حنا النقيوسي) إن رعاع المدينة وغوغاءها ثارت على الإمبراطور وشرعت تصب عليه صنوف السباب .

والظاهر أن (فوكاس) لم يكن على استعداد طيب للقاء هذه الجائحة التي ظلت تعصف بآفاقه هذه المدة كلها . فلما جاءته أنباء ثورة مصر أولاً كان في مرفأ الميناء عدد كبير من السفن تحمل القمح من الإسكندرية فأخذها وأسر من فيها من الرجال وسجنهم في حصن مشرف على مرفأ (الهبدومون) فأقاموا هناك ما شاء الله . فلما عاد (بونوسوس) من غزوته بالفشل ولم يقدر على استرجاع مصر لم يعاود الإمبراطور سعياً يذكر في سبيل الدفاع . فكان أول ما أنذر (فوكاس) إنذاراً مزعجاً صوت هؤلاء السجناء من أهل الإسكندرية وقد هللوا إذ رأوا سفن هرقل مقبلة . وكان الإمبراطور عند ذاك في قصر (الهبدومون)[1] على مقربة من الحصن فلم يكد يسمع ذلك حتى وثب إلى جواده وأسرع به إلى قصر اسمه (قصر المَلك الأكبر) داخل أسوار المدينة . وقد وقع ذلك في يوم سبت

---

(١) كان قصر (الهبدومون) وحصنه على ساحل البحر على نحو ثلاثة أميال إلى الغرب من الباب الذهبي أحد أبواب القسطنطينية . وهذا مأخوذ عن الأستاذ (Van Millingen) في كتابه الحجة المسمى (Bizantine Constantinople) في الصفحات التي بين ٣١٦ و ٣٤١ (المطبوع في لندن سنة ١٨٩٩) والحادثة التي نذكرها في كتابنا يشير إليها الكاتب في الصفحة المرقومة ٣٢٤ من كتابه .

على رواية (ديوان بسكال) ولا بد أن يكون ذلك هو اليوم الثالث من شهر أكتوبر . وفي اليوم التالي بعث (بونوسوس) في جيش ومعه المرَكبات الحربية الملكية للقاء من ينزل إلى البر من جنود (هرقل) . ولكن فرقة المركبات ثارت ووثبت بقائدها لأن (كريسبوس) كان قد إستمال جنودها إلى حزبه . فهرب القائد إلى المدينة والغيظ يأكل قلبه ، فلما بلغها دفعه غيظه إلى جناية فظيعة وذلك أنه جعل يقذف بالنيران على أحياء المدينة التي حول القصر المعروف (بقيصريون) فلم يقدر على إحراقه ولكنه استطاع أن يقاوم الذين لحقوا به من ورائه من غوغاء المدينة وأفسد عليهم سعيهم ، فلم يخلصوا إليه وهرب في زورق إلى مرسى في الميناء اسمه (ميناء جوليان) . غير أن أعداءه لحقوا به هناك وضيقوا عليه الخناق فحاول أن يقاومهم مقاومة عنيفة ، غير أن ذلك لم يجده شيئاً إذ كان أعداؤه جموعاً كثيرة . فلما لم يقدر على شيء ورأى الخطر منه أقرب من وريده قذف بنفسه في الماء فغاص به ، وما إن طفا مرة حتى علاه سيف شق رأسه وذهب بذهابه روح مارد ثائر فغاب عن أرض طالما أفسد فيها ، وأخرجت جثته من الماء فجرها الناس إلى (سوق الثيران) فأحرقوها يجللها العار وتشيعها اللعنات .

وهذه القصة قصة (بونوسوس) وموته قد جمعناها من ديوان (قيدرينوس) وكتاب (حنا النقيوسي) و (ديوان بسكال) . ومن العجيب أنهم يتفقون جميعاً فيما يوردونه ولا يختلفون اختلافاً حقيقياً إلا قليلاً ، فقد تختلف رواياتهم ولكن اختلافها ناشىء من نقص شيء أو زيادة آخر وليس فيما بينها تناقض في ذكر الحوادث . وفوق هذا فإن مواضع الإتفاق بينهم في كثير من الأحيان واضحة تسترعي النظر ، وهم إنما يتفقون في الجوهر لا في تفصيل الوصف ، وهذا يدل على أنهم كتبوا ما كتبوه وكل منهم وحده مستقل عن الآخرين وفي هذا ما يبعثنا على الإطمئنان إلى رواياتهم والإعتماد عليها . وليس ثمة ما يبعث على الظن أنهم رجعوا جميعاً إلى مرجع واحد نقلوا عنه .

ومنذ علم الإمبراطور بما أصاب (بونوسوس) عرف أن ساعته قد دنت ، ولم يكن في نيته أن يخلع عن نفسه التاج في حين لم يكن يتوقع الرحمة إذا هو

سلم لأعدائه . فكان أمله الوحيد في أن يقاتل إلى أن يحكم السيف حكمه . غير أن تسلل خير جنوده عنه لم يدع له أملاً إلا قليلاً ، فلم يبق له إلا ولاء الحزب الأزرق ، وإن شئت فقل لم يبق له إلا تلك العداوة الشديدة التي كان يحملها الحزب الأزرق لأعدائه أصحاب الحزب الأخضر ، وما داخلهم من الحنق عندما رأوا نجاح الفئة المعادية لهم . وعلى ذلك جهز (فوكاس) أسطولاً واختار رجاله من الحزب الأزرق وجعله في ميناء (أيا صوفيا) واستعد لقتال هرقل . وإنا ناقلون هنا قصة يرويها (حنا النقيوسي) ولا نعرف أن مؤرخاً آخر ذكرها ، وذلك أن (فوكاس) وخازن أمواله (ليونتيوس) السوري عندما علما أن حياتهما أصبحت بعد قتل (بونوسوس) في أشد الخطر من غوغاء المدينة أخذا كل ما في خزائن الدولة من الأموال وقذفا بها في البحر . فضاع بذلك في لحظة واحدة كل ما كان للإمبراطور (موريق) من الثروة وما جمعه (فوكاس) من الذهب والجواهر بغصب أموال من قتل من ضحاياه وما كنزه (بونوسوس) من أموال وتحف وأوانٍ نفيسة حصلها بالظلم البالغ والغصب المتعدد . قال المطران « وهكذا كان (فوكاس) سبباً في وقوع الفاقة والعوز بالدولة الرومانية الشرقية » .

وكانت هذه الفعلة شفاء للغل ورياً للحقد وهي جديرة بخلق (فوكاس) . والظاهر أنها وقعت في اللحظة التي لاح فيها نصر هرقل في الوقعة البحرية ، ولا بد أن تلك الكنوز كانت محمولة في سفينة الإمبراطور خوفاً عليها أن تؤخذ نهباً في أثناء القتال . فلما وقعت الهزيمة ألقي بها في اليم جميعاً . وما كان من شك في نهاية الأمر وعلى من تكون الدبرة مهما كان من شدة القتال ، فهزمت سفن الإمبراطور وقذف بها إلى الشاطىء أو استولى عليها العدو ، وفر من استطاع من الجند فاستأمن في كنيسة (أيا صوفيا) . وأما (فوكاس) فالظاهر أنه عاد يصحبه (ليونتيوس) إلى (قصر الملك الأكبر) فلحق به (فوتيوس) أو هو (فوتنيوس) و (بروبس) فضربا التاج عن رأسه فتردى عنه ثم وضع هو في القيود والسلاسل وجيء به يُجرُّ جرّاً على جانب المرفأ وقد تمزقت ثيابه كل ممزق . وعرض هناك على جنود الجيش والأسطول المنتصرين ثم اقتادوه بين التهليل إلى حضرة الفاتح المنتصر في كنيسة (الرسول توماس) وصيحات اللعن الصاخبة تصدع أذنيه .

ومن الجائز أن (هرقل) اختار هذه الكنيسة ليصلي فيها شكراً لله على ما أولاه ولم يختر كنيسة (أيا صوفيا) إذ كان بها عدد عظيم ممن فر من الحزب المقهور ، ولهذا لم تكن تتسع لجمع كبير فوق ذلك أو لحفل ديني . ولسنا في حاجة إلى أن نكلف خيالنا شططاً ليصور لنا كل ما جرى بين (فوكاس) و (هرقل) . وحسبنا أن نتصور كنيسة فخمة تزدحم برجال الدولة من قواد وشيوخ وجنود ، وبقوم من رجال الدين مثلوا في ثيابهم السنية حول المحراب وقد وضعت عليه آنية الذهب ، ومن حولهم يدوي المكان بأصداء النشيد نشيد الشكر لله ، ثم يدخل (فوكاس) مكبلاً بالقيود .

لبث الإمبراطور المخلوع برهة أمام تابعه المنتصر وقد وصفهما (قيدرينوس) وصفاً مشهوراً ، فهرقل فتى في زهرة العمر إذ كان في نحو الخامسة والثلاثين وهو من بيت نبيل وكان ربعة لا هو بالقصير ولا بالطويل متين البناء عريض الصدر له قوام قوي مفتول . وكان شعره أشقر وكذلك لحيته . وكان وجهه ناصعاً منيراً له عينان لونهما صافي الزرقة وتعلوه وسامة بديعة . فكان ظاهره ينم عن رجل صادق صريح عليه وقار وهيبة ، قوي في جسمه وعقله تبدو على وجهه سيماء الشجاعة والحزم والقدرة ، ولعله كانت تبدو عليه كذلك صفة أخرى ذكرها (سعيد بن بطريق) ألا وهي أنه لا يعبأ بما يرتكب في سبيل إتمام قصده . أما (فوكاس) فكان في مثل قامته ولكن هذا كل ما كان بينهما من الشبه . فقد كانت صورته كريهة مما بها من العاهات ، وكان لا لحية له ، يعترض وجهه ندب جرح قبيح غائر فيه ، وكان ذلك الندب يحمر أو يربد كلما ملكته سورة وثارت ثائرته . وكان حاجباه بارزين يقترنان في جبهة خفيضة من فوقها جمة من شعر أحمر ومن دونها عينان تومضان وميضاً وحشياً . وكان بذيء اللسان ، مدمناً للخمر مقبلاً على المعاصي قاسي القلب لا يتحرك قلبه بشفقة إذا ما عذب أو سفك الدماء . هذه صورة ذلك الجندي الذي سلط على الدولة الشرقية سوط عذاب ثماني حجج ، ثم جاء عند ذلك ليحاسب على ما جنت يداه . فتلى عليه كتاب ذنوبه وكشفت منه جريمة بعد أخرى وقال هرقل : « أهذا سبيل حكمك » ؟ فكان رده : « وهل أنت من يحكم خيراً من هذا ؟ » .

وحكم عليه بالقتل وأنفذ فيه وارتكبت في قتله مثلة فظيعة ، ولعمري إن تلك المثلة لم تكن من عيب في (هرقل) أو قسوة في خلقه ، بل كانت من عيب في العصر كله وما كان معروفاً فيه من العادات . على أنها لم تكن أفظع مما كان مباحاً في قانون بلادنا[1] من تقطيع الأوصال وقطع الجسم أرباعاً . قطعت أعضاء (فوكاس) ، فقطعت يداه أولاً ثم بترت ذراعاه وتلا ذلك تشويه آخر ، ثم قطع رأسه بعد ذلك ووضع على قضيب وعرض في أكبر طرق المدينة . أما سائر جسمه فقد سحب على الأرض إلى ميدان سباق الخيل ثم إلى سوق الثيران وأحرق في الموضع الذي كان فيه رماد (بونوسوس) ولما يكد يبرد . وأحرق عدا ذلك علم الحزب الأزرق (وليس الأخضر كما زعم جبون) وجيء بتمثال (فوكاس) فحملوه في ميدان السباق في موكب استهزاء ، يحمله جماعة يلبسون الثياب البيضاء الكهنوتية وفي أيديهم الشموع موقدة حتى رموه في النار . وقد قال قائل : « قد أحرقوا (فوكاس) و (ليونتيوس) و (بونوسوس) وذروا رمادهم في الهواء إذ كان الناس كلهم يكرهونهم » .

وألبس هرقل التاج ، كما يقول (حنا النقيوسي) وما كان راغباً فيه وذلك في الكنيسة عينها كنيسة (القديس توماس) ، وساد بعد أن أدى الصلاة ذاهباً إلى القصر ، وجاء أعيان المدينة يؤدون له الولاء . ويقول (قيدرينوس) إن تتويجه إنما حدث في كنيسة (القديس اسطفن) وهي متصلة بالقصر ، في حين أن (ديوان بسكال) يذكر أن تتويجه حدث بين حادثة إحراق (فوكاس) وبين إحراق تمثاله، ولا يذكر مكاناً لذلك وهذا فيه من الخلط ما فيه. ومن العجيب أن ديوان (حنا النقيوسي) يؤيد قصة تردد (هرقل) في قبول التاج ، وأن (ديوان بسكال) وسائر مؤرخي بيزنطة يؤكدون وقوع ذلك التردد . على أنه لم يلبث أن زالت وساوسه وأعلنت ولايته للأمر إمبراطوراً للدولة في اليوم الخامس من شهر أكتوبر سنة ٦١٠ وأصبحت عروسه المخطوبة (فابيا) إمبراطورة للدولة وصار اسمها (أودوقيا) .

---

(١) يقصد بلاد الإنجليز طبعاً . (المعرب) .

والظاهر أن (نيقتاس) لم يعمل على أن يتصل بهرقل عند القسطنطينية على خلاف ما جاء في ديوان حنا ، مما يدل سياقه على أن (نيقتاس) كان في العاصمة عندما خلع (فوكاس) . ولا بد أن يكون الصواب ما ذهب إليه (زوتنبرج) من أن ذكر اسم (نيقتاس) في هذا الوضع إنما كان نتيجة سهو وقع فيه الكاتب أو الناسخ وأن الصواب هو (كريسبوس) . ولو كان (نيقتاس) ترك مصر حقيقة ولحق بهرقل فاشترك معه وتم له ما ابتغى لما خفي الأمر على أحد ولما جاء ذكره عرضاً في غموض وإبهام . على أنني لا يسعني إلا أن أخالف (جبون) حيث يقول « كانت رحلة هرقل سهلة موفقة وأما سير (نيقتاس) فقد كان شاقاً عسيراً ولم يتم حتى كان النضال قد انتهى فخضع للقضاء الذي حبا صديقه ولم يظهر أقل تألم مما كان » .

وما هذا القول إلا قلبٌ للحقيقة كما بيَّنا ، فإن مسير نيقتاس هو الذي كان سهلاً موفقاً على وجه الإجمال ، وقد بلغ مقصده الذي رمى إليه منذ ملك مصر على رغم ما اعترض سبيله من الأخطار وما لقي من العوائق بوقوف (بونوسوس) في وجهه . وقد وقع كل ذلك قبل أن يستطيع هرقل أن يزحف من (سلانيك) على العاصمة بزمن طويل . فمما سبق نرى من العدل أن نقول إن هرقل لاقى عقبات ومصائب في رحلته وكان عليه أن يقهرها ولكن ليس في أيدينا من وصفها شيء ولا نستطيع أن ندركها أو نعرف حقيقتها .

الفصل الخامس

مصر في حكم الإمبراطور الجديد

يبقى نيقتاس على حكم الإسكندرية ـ سياسته ـ نقص في تاريخ مصر ـ إعتمادنا على تراجم البطارقة ـ (حنا الرحوم) والمجاعة الكبرى ـ سفن القمح التي تملكها الكنيسة ـ ولاية بطارقة القبط .

أرسل الإمبراطور إلى نيقتاس يثبته في حكم الإسكندرية وإن شئت قلت إنه جعله نائباً عن الملك في مصر[1] . وأصبح أصحاب (فوكاس) بين قتيل قضي عليه أو طريد مبعد أو مرتد ترك الجانب الخاسر وهجره . فكان هم (نيقتاس) أن يعيد للحكم المدني الروماني نظامه وأن يعيد للجيش الروماني كيانه ، وكان هذان التي الدولة الرومانية تحتفظ بهما بملك مصر ، وكان الحكم المدني والجيش كلاهما في يد السادة الحاكمين ليس فيهم أحد من أقباط مصر أهل البلاد . فكان ذلك الحكم من هذا الوجه أشبه شيء بحكم الإنجليز في الهند ، على أنه يختلف عنه اختلافاً عظيماً كان سبباً في القضاء عليه . وذلك أن حكومة مصر لم يكن لها إلا غرض واحد وهو أن تبتز الأموال من الرعية لتكون غنيمة للحاكمين ، ولم يساورها أن تجعل قصد الحكم توفير الرفاهة للرعية ، أو ترقية حال الناس والعلو بهم في الحياة ، أو تهذيب نفوسهم أو إصلاح أمور أرزاقهم . فكان الحكم على ذلك حكم الغرباء لا يعتمد إلا على القوة ولا

(١) تجد وصفاً لا بأس به عن (نيقتاس) في كتاب هـ . جلزر . الموسوم « Leontios Von Neapolis Leben des Heiligen Johannes » صفحة ١٢٩ .

يحس بشيء من العطف على الشعب المحكوم . وكانت في يد الحكام عاصمة البلاد الإغريقية كما كانت في يدهم العاصمة المصرية القديمة منفيس وحصنها العظيم حصن بابليون الروماني على الشاطىء الشرقي من النيل . وكذلك كانوا يملكون مدائن عدة حصينة يلي بعضها بعضاً بين أسوان في الجنوب والفرما في الشمال . وكان جند الحكومة وجباة ضرائبها ينتشرون من تلك المدائن يظهرون هيبة السلطان ويجمعون الأموال ، على حين كان تجار الروم واليهود يحلون حيث شاءوا تحميهم جنود الربط ينافسون الأقباط في التجارة منافسة شديدة .

وكانت الإسكندرية من أشق بلدان العالم حكماً لأنها كانت تجمع أخلاطاً من الناس من إغريق بيزنطة وآخرين ولدوا بمصر وقبط وسوريين ويهود وعرب وغرباء من جميع البلاد . ولكن يلوح أن نيقتاس قد كسب إجلال أهل الإسكندرية وإن لم يكسب حبهم مع ما عرف عنهم من التقلب وحب الخروج . وكان من أول ما أمر به أن رفع عنهم جباية المال ثلاث سنوات ، فكانت تلك يداً مازهم بها زادتهم تقديراً له بعدما رأوا من غنائه في الحرب . وليس ثمة شك الآن في أنه بقي مقيماً في الإسكندرية[1] . حقاً إنا نسمع بأنه كان في بيت المقدس قبل زحف الفرس عليها ويقولون إنه أنقذ بعض الآثار المقدسة ـ الحربة والأسفنجة ـ من أن تدركها يد الفرس ، ولكنه عاد إلى الإسكندرية بعد ذلك كما سنرى . فالحقيقة هي بلا شك أن هرقل أمره أن يسير إلى الشام لعله

---

(١) هذا ظاهر من كتاب (ليونتيوس) ومن مراجع أخرى ، ولكن يلوح أن حكم (نيقتاس) في الإسكندرية لم يكن معلوماً حتى لمثل الأستاذ Bury فهو يأخذ عن (جبون) كما يظهر ـ ويقول إن (نيقتاس) كان لا يزال يميل إلى أن يسير بجيوشه المسكينة في البر إلى القسطنطينية سالكاً ذلك السبيل كله خلال مصر وفلسطين وسوريا وآسيا الصغرى . ويقول إن نيقتاس « لم يصل إلى القسطنطينية إلا حوالي أبريل سنة ٦١٢ . ولسنا ندري ماذا عاق سيره ولعله تأخر في الشام ليحارب الفرس » « نقلاً من كتابه « Hist. of the Later Rom. Emp. » الجزء الثاني صفحة ٢١٦ ، هامش ٢ » .

وقصة هذا السباق البري إلى القسطنطينية لا تزيد على أنها قصة خيالية . فقد كان قصد نيقتاس مصر وقد بقي فيها ليحكمها بعد أن فتحها باسم هرقل .

يدفع عنها الفرس ولم يكن عنده علم بمقدار ما أتوا به من الجيوش الجرارة . فلم يستطع نيقتاس إلا أن يسرع عائداً إلى مصر .

ولكن من سوء الحظ أن تاريخ مصر في هذه الفترة عسير إدراكه فإن ديوان (حنا النقيوسي) لا يذكر عنها شيئاً وقد كان عليه جل اعتمادنا إلى ذلك الوقت ، فإن بالنسخة التي ننقل عنها نقصاً كبيراً إذ تغفل ثلاثين عاماً من ذلك الوقت ، وكأن يداً أثيمة قد عمدت إلى ذلك الكتاب فأودت بكل ما فيه ذكر لحكم هرقل . غير أننا نجد ذكر كثير من حوادث بعض أنحاء الدولة في بعض مؤلفات الأرمن[1] أو كتب سواهم من أهل الشرق التي كتبت في هذا العصر . ولكن ما أشبه هؤلاء بمؤرخي بيزنطة في أنهم لا يذكرون إلا النزر اليسير عن مصر . على أننا نستطيع أن نلمح خلال الظلام سير الحوادث الكبرى التي عصفت بسلطان الدولة البيزنطية في مصر في أواخر حياة ذلك الإمبراطور .

فإذا نحن أردنا أن نعرف تاريخ مصر في مدة الأعوام الثلاثين التي بين ولاية هرقل وبين الفتح العربي فلا مناص لنا من أن نلجأ على الأكثر إلى ما كتبه رجال الكنيسة أو ما كتبه رجال لهم ميول دينية قوية تجعلهم غير أمناء في رواياتهم . فالحق أن أمور الدين في القرن السابع كانت في مصر أكبر خطراً عند الناس من أمور السياسة . فلم تكن أمور الحكم هي التي قامت عليها الأحزاب واختلف بعضها عن بعض فيها ، بل كان كل الخلاف على أمور العقائد والديانة ، ولم يكن نظر الناس إلى الدين أنه المعين الذي يستمد منه الناس ما يعينهم على العمل الصالح ، بل كان الدين في نظرهم هو الإعتقاد المجرد في أصول معينة . وكان الناس لا يكادون يحسون شيئاً اسمه حب الوطن ، وما كانت عداواتهم عند اختلاف الجنس والوطن لتثور ويتقد لهيبها على الأكثر إلا إذا اختلف معها المذهب الديني . فكان اختلاف الناس ومناظراتهم العنيفة كلها على خيالات صورية من فروق دقيقة بين المعتقدات ، وكانوا يخاطرون بحياتهم

---

(١) نجد ثبتاً بأسماء المؤرخين من الأرمن في « الجريدة الأسيوية » في المجموعة السادسة من عام ١٨١٦ المجلد السابع ص ١٠٩ .

في سبيل أمور لا قيمة لها وفي سبيل فروق في أصول الدين وفي فلسفة ما وراء الطبيعة يدق فهمها ويشق إدراكها . فحق على مصر المسيحية قول الشاعر (جوفنال) إذ يصف ما كان بين قومه من النزاع والشقاق على أيهما أفضل في العبادة عبادة التماسيح أم عبادة القطط ، إذ قال : « كان كل مكان يكره الآلهة التي يعبدها جيرانه ويعتقد أن الآلهة الحقيقية هي التي يعبدها هو »[1] . لقد تغير الزمان ولكن الناس هم هم لم تتغير طباعهم . ومنذ كانت الأحزاب ومناظراتها قائمة على ما كان في الدين من شيع وفرق كان جل آثار العصر وما تخلف من كتبه تراجم لحياة القديسين والبطارقة ، وقلما نجد فيها ذكراً لأهل الحرب أو السياسة ، وعلى هذه الآثار نعتمد في معرفة تاريخ مصر في ذلك العهد .

كان في مصر في ذلك العصر ما كان فيها منذ مجلس (خلقيدونية) في سنة ٤٥١ وذلك أن كلا فرقتي المسيحية بمصر كان لها بطريقها وكانت أمورها الدينية مستقلة . ولكن هذا لم يذهب بشيء من شدة الخلاف الثائر بين الأحزاب ولم يقلل من متاعبه . نقول هنا للمرة الثانية إن الحزبين بمصر كانا يعرفان بإسمين مشهورين : أولهما حزب اليعاقبة وهم القبط ، والثاني حزب الملكانية[2] وهم حزب الملك . وكان اليعاقبة على مذهب (المونوفيسيين) وأكثرهم وإن لم يكونوا جميعاً من الجنس المصري[3] على حين كان الملكانيون يتبعون المذهب الذي أقره مجلس (خلقدونية) وكان أكثرهم من أصل إغريقي أو أوروبي . ونجد

---

(١) Numina vicinorum.

Odit uterque locus, cum solos credat habendos.

Esse does quos ipse colit.

(٢) وهذا الاسم مأخوذ من أصل (ملك) وهو أصل (مشترك) في اللغات السامية كلها ويغلب على الظن أن لفظ (الملكانية) المستعمل في مصر مأخوذ عن السوريانية . وعلى ذلك فليس ثم من خلط في استعماله قبل أن يفتح العرب مصر .

(٣) ويدلنا على ما كان للقبط من الشأن حتى في الإسكندرية ما جاء في كتاب (بروكوبيوس) (المطبوع في أثينا سنة ١٨٩٦ صفحة ٢٢) فإنه لما اختار (جستنيان) المطران =

إجماعاً من المؤرخين وفيهم (ساويرس الأشمونيني) على أنه ما ولى إمبراطور إلا سار على سنة القضاء إلى مذهب اليعاقبة في مصر قضاء لا هوادة ولا رحمة . وكان اليعاقبة لا يرضون إلا بأن يمحوا كل أثر من آثار مذهب (خلقيدونية) .

وقد سبق ذكر مقتل البطريق الملكاني (تيودور) عند فتح (نيقتاس) للإسكندرية سنة ٦٠٩ ، فقد[1] كانت ثورة (هرقل) ثورة على السلطان الإمبراطوري في القسطنطينية ، وكان القبط باشتراكهم فيها يؤملون بلا شك أن يجدوا في الحكم الجديد سيراً أرفق بهم مما كانوا يجدونه من عسف (فوكاس) . والحق أنهم لم يشعروا بخيبة بالغة في أول الأمر ، فإن البطريق القبطي (أنستاسيوس) بقي على كرسيه ست سنوات بعد خمس قضاها في مدة الثورة حتى توفي في ٢٢ كيهك (أي ١٨ ديسمبر) من سنة ٦١٦ للميلاد[2] .

= (بولص) للإسكندرية جعل له الأمر على الحاكم (رودون) وظن ذلك يؤدي إلى طاعة أعيان المدينة لمجلس (خلقيدونية) وكان أول ما أتاه (بولص) أن أمر بقتل الشماس (بسوس) وهو قبطي كان يكتب بالقبطية وكان أكبر عائق في سبيل سياسة الإمبراطور . ومات (بسوس) وهو يعذب فثار الناس غاضبين ولم يجد جستنيان وسيلة لتهدئتهم إلا أن عزل (رودون) ثم أمر بقتله في القسطنطينية ولم يغنه دفاعه عن نفسه بإظهار ثلاث عشرة رسالة أتته من الإمبراطور يأمره فيها بأن يطيع أمر (البطريق) .
وجاء بعد (رودون) حاكم آخر اسمه (ليبريوس) فصلب رجلاً اسمه (أرسنيوس) كان أكبر عامل على قتل (بسوس) وبهذا تم الأنتقام للقس القبطي ، ويقول (لكيان) إن (رودون) هو الذي أمر بقتل (بسوس) ولكن ميله إلى الحزب الملكاني واضح وضوح شهادة (بروكوبيوس) على البطريق بولص .

(١) وقد أخطأ (شارب) في زعمه أن (تيودور) كان مطراناً (مدة السنوات الثلاث الأولى من حكم هرقل . انظر « History of Eg. under The Romans » صفحة ٢٤٠ . على أنه جاء في ديوان بسكال أن في هذه السنة (سنة ٦٠٩) قتل بطريق الإسكندرية (قتلة أعداؤه)*[2] وربما كان يقصد القبط وفي السنة نفسها نصب (زكرياس) بطريقاً على بيت المقدس .

(٢) يظهر أن هذا التاريخ أقربها للصواب . على أن ضبط التاريخ هنا كما هو في سائر المواضع من أشق الأمور . ويقول (أبو البركة) إن (أنستاسيوس) توفي سنة ٦٠٤ وجاء=

واستطاع الأقباط عند ذلك أن يبنوا في الإسكندرية بعض الكنائس أو يعيدوا بناء أخرى مثل كنيسة (القديس ميخائيل) وكنيسة (القديس انجيلوس) والقديسين (كزماس) و (دميان) ، هذا عدا أديرة عدة . وكان (أنستاسيوس) ينصب القسوس ويعتمد المطارنة ، ولكن لا ننس مع ذلك أن الملكانيين كانوا لا يزالون محتفظين بسلطانهم في العاصمة ولهم أكبر الكنائس فيها .

وليس ثمة ما يدعو إلى الشك في أن هرقل كان حريصاً كل الحرص على أن يستميل قلوب أقباط مصر . وكان (نيقتاس) في الوقت عينه يرى لزاماً عليه أن يجزيهم على ما قدموه من خدمة ، فإذا كانت حكومة بيزنطة قد أقامت بطريقاً ملكانياً بدلاً من (تيودور) القتيل فإنها اختارته رجلاً أوصى به (نيقتاس) إيصاء خاصاً[1] وكانت حياته الماضية وخلقه بحيث جعلاه موضع إعجاب اليعاقبة حتى بجلوه في حياته وعظموه بعد مماته إذ اتخذوه أحد القديسين الذين تخلد

= في (الديوان الشرقي) أن وفاته كانت سنة ٦١١ بعد ولاية اثني عشر عاماً ومائة وتسعين يوماً . وجاء في كتاب (أكلنسس) أن ذلك كان بين سنة ٦٠٧ وسنة ٦١٩ ، ولعل هذا أقرب للحقيقة من سواه ـ لكننا من جهة أخرى نرى (الديوان الشرقي) وهو يورد في صراحة أن قدوم بطريق (أنطاكية) اليعقوبي على (أنستاسيوس) كان في السنة التي خرب فيها الفرس بيت المقدس أي سنة ٦١٥ ومن جهة أخرى نرى (ساويرس) يورد أن غزوة الفرس لمصر (وقد كانت سنة ٦١٦) حدثت بعد موت (أنستاسيوس) وهاتان الروايتان يمكن التوفيق بينهما باتخاذ التاريخ الذي اتخذناه في كتابنا وذلك أن نجعل وفاة (أنستاسيوس) في ديسمبر سنة ٦١٦ وإن كان (الديوان الشرقي) ينقض رواية نفسه بأن يجعل موت (أنستاسيوس) في سنة ٦١١ (أنظر ملحق الكتاب المرقوم بحرف (ب) وفيه كلام أكثر تفصيلاً عن مسألة ضبط التواريخ) .

(٣) عن كتاب (ساويرس) الذي نقل عنه (لكيان) في كتابه (.Chron Or) (الجزء الثاني صفحة ٤٤٤ (ويذكر (الديوان الشرقي) فوق ذلك أن (أنستاسيوس) لم تقتصر همته على أن بني كنائس جديدة بل إنه أرجع إلى القبط كثيراً مما كان قد استولى عليه الملكانيون من كنائسهم وما كان يستطيع هذا لولا أن عضده (نقتاس) وآزره الإمبراطور .

(١) أنظر كتاب (جلزر) « Leontios Von Neapolis » (الجزء الثاني صفحة نمرة ٢١٠) =

أسماؤهم في التقويم القبطي . ومن العجيب أن (نيقتاس) جاء بعد ذلك فساعد مساعدة كبرى في التوفيق بين (المونوفيسيين) من أهل الشام وبين الكنيسة القبطية . وهذا يدل على أنه كان يميل للأقباط ويعطف عليهم وأنه لم يكتفِ بأن يسلك معهم مسلك الإعتدال والتسامح .

وكان المطران الأكبر الملكاني الذي عين حديثاً هو (حنا الرحوم) أو هو المحسن . وقد أطلق عليه ذلك اللقب لما كان يأتيه من أعمال البر والإحسان[1] ، ولكن كرمه لم يكن فوضى فإنه بعث من حوله ليجوسوا خلال المدينة فيأتوه بخبر « سادته ومساعديه » . فلما سألوه عما يعنيه بقوله أجاب قائلاً (أقصد من تسمونهم أنتم « الفقراء والمساكين » وأسميهم أنا « السادة والمساعدين » ، لأنهم في الحق يساعدوننا ويمنحوننا ملكوت السموات) . وعلى هذا كتبوا له صحيفة بأسماء الفقراء فأجرى عليهم كل يوم رزقاً وبلغ عددهم ٧٥٠٠ . فلما رأى (نيقتاس) أن البطريق تجري يده بالعطاء جريان البحر نفس عليه ذلك وجاءه يوماً فقال : « إن الدولة محتاجة أشد الحاجة إلى المال ، وإن ما عندك من المال يأتي إليك عن رضا لا يؤذي أحداً ، فأبعث بما عندك إلى بيت مال الدولة » . فقال له البطريق : « إن ما نقدمه لملك السموات يجب ألا نبذله لملك في الأرض ، ولست بمعطيك شيئاً عن رضا . ولكن خزانة الله تحت سريري هذا وأنت وما تختار لنفسك». فدعا (نيقتاس) بحراسه وأمرهم أن يأخذوا المال من تحته . وفيما كانوا خارجين رأوا قوماً يحملون في أيديهم أواني صغيرة كتب عليها « أحسن العسل » وأخرى كتب

= قطعة من حياة حنا الرحوم تأليف (حنا مسكوس) و (صفرونيوس) .

(١) جاء في (جبون) وهو قول عجيب فيه ظلم عجيب « كان إحسان (حنا الرحوم) الذي لا حد له صادراً عن أحد بواعث ثلاثة : فأما أن يكون عن جهل وخرف في العقيدة وإما أن يكون عن حب للبر وإما أن يكون عن سياسة يرمي إليها » ويظهر أنه يظن أن في أيام حنا أعطيت كنائس الإسكندرية للكاثوليك واضطهد مذهب المونوفيسيين ، وهذه عبارة تبعد عن أن تصدق على هذا العصر بعداً أكبر من أي عصر آخر .

عليها «عسل لم يدخن»، فسألهم (نيقتاس) أن يعطوه واحدة منها لطعامه، فهمس القوم في أذن البطريق أن فيها ذهباً، فأرسل حنا آنية منها إلى (نيقتاس) مع رسول ، وأرسل إليه ألا يفتحها إلا في حضوره . ثم قال إن كل الأواني التي رآها وهو خارج لم تكن إلا مملوءة بالمال. فلم يسع (نيقتاس) مع هذا إلا أن ذهب إلى البطريق ورد إليه كل ما أخذ منه من المال وكذلك رد الآنية . ثم بعث إليه بمال آخر من عنده[1] .

ومثل هذه القصص تظهر على الأقل ما كان لرئيس الدين بالإسكندرية من سلطان وما كان لديه من موارد المال . وإنه لمن المستطرف أن نعلم كذلك أن الكنيسة كانت تملك أسطولاً من السفن التجارية . وقيل إن إحدى تلك السفن ساقتها الريح عن طريقها وكان عليها عشرون ألف مد[2] من القمح فبلغت السفينة سواحل بريطانيا وكان بها قحط شديد ثم عادت تحمل من هناك القصدير فباعه الربان في (بنطابولس) . وجاء في موضع آخر أن جمعاً من السفن يبلغ ثلاث عشرة سفينة عدّاً تحمل كل منها عشرة آلاف مُدّ من القمح ، ذهب كل ما فيها ضياعاً في البحر الأدرياوي في أثناء عاصفة وكانت كلها ملكاً للكنيسة وكان فيها عدا القمح حمولة أخرى من الفضة والمنسوجات الدقيقة وسوى ذلك من ثمين المتاع[3] . ولا يمكن أن يشك أحد في أن الكنيسة كان لها قسط من تجارة

---

(١) جاءت هذه الأخبار في كتاب (ليونتيوس) ونجد رواية أخرى وهي مما يحتمل وقوعه جداً وفيها يقال إن (نيقتاس) طلب المال بأمر من هرقل وكان في حاجة إليه ليصلح به الجيش (أنظر كتاب ليبو) « Hist. du Bas Emp » طبعة سان مارتان الجزء الحادي عشر في صفحتي ٥٢ - ٥٣) .

(٢) نحو كيل (لوبية) أو هو أقرب إلى خمس الأردب .

(٣) لعل الكنيسة حصلت على ميزات خاصة في التجارة منذ منع حاكم الإسكندرية هيفايستوس في أيام جستنيان ما كان معتاداً تقسيمه بين العامة (وقدره ألفا ألف مد) وكانت تلك عادة منذ أيام دقلديانوس . وقد بعث ذلك الحاكم إلى الإمبراطور يعيب عادة توزيع القمح ويصفها بالظلم وبأنها ليست من الحكمة (أنظر كتاب بروكوبيوس صفحة ٢١٩ طبعة أثينا ١٨٩٦) .

القمح العظيمة التي كانت رائجة بين الإسكندرية والقسطنطينية . وكان جستنيان قد أعاد لها نظامها ورواجها[1] . وكان للكنيسة فوق ربح هذه التجارة وفوق ما كان الناس يهبون لها طائعين مختارين ، أوقاف من أرض الزراعة تؤثر أموالاً عظيمة . فليس من العجيب إذن أن نرى (حنا الرحوم) يدهش الناس بإنفاقه . وكان (أندرونيكوس) الذي صار بطريقاً للقبط بعد (أنستاسيوس) وأدرك عهد (حنا الرحوم) مدّة أشهر لا يقل عنه شهرة بثرائه وكثرة إحسانه .

بقيت مصر وفيها بطريقان للمذهبين مدة وكانت خطة هرقل في مبدأ أمره أن يوفق بين هذين المذهبين العظيمين اللذين اقتسما أتباع الدين المسيحي في مصر . ولكن لم يستطع رئيس الدين القبطي أن يبقى في العاصمة ، فقد كانت العداوة بين الشيعتين وإن خمدت ، تتقد في خفاء وينـدلع منهـا اللهب إذا ما هبت عليها أضعف ريح من الفتنة . ورأت الحكومة أن من الحكمة التفريق بين رئيسي الدين حتى لا يبقى المتنافسان معاً في العاصمة[2] . فإن (أنستاسيوس) مثلاً عندما جاء إليه بطريق أنطاكية كان مقيماً في دير (الهانطون) وهو دير شهير

---

(١) كانت خزائن القمح عند مرسي (فيالى) بالإسكندرية عرضة للسطو والنهب كلما ثارت فتنة في طريق من الطرق ، فلما جاء (جستنيان) حصن الخزائن التي تأتي إليها السفن من النيل بأن بنى حولها سوراً وكذلك كانت سفن القمح قبل عهده تبقى مدة عند مدخل الدردنيل تنتظر ريح الجنوب تدفعها في سبيلها فعالج (جستنيان) هذا العائق بأن بنى بناء عظيماً ترسو عنده السفن وتنزل أحمالها وتفرغ ما بها في الحال ثم تعود إلى مصر في حين تحمل جماعة أخرى من السفن ذلك القمح إلى القسطنطينية إذا ما اعتدلت الريح لسيرها .

انظر كتاب (بروكوبيوس) في موضوع « ما بناه جستنيان » طبعة (Pal. Pil. Text Society) الجزء الثاني صفحة ١٥٢ .

(٢) من العدل أن نذكر أن المقريزي يروي أن (أنستاسيوس) « جعل مقامه في الإسكندرية » ولعل المقصود من هذا أنه كان مقيماً بقرب الإسكندرية وهذا مسلم به لا خلاف فيه ، ولكن رواية المقريزي عن هذا العصر مضطربة ولا يمكن الإعتماد عليها (أنظر ترجمة مالان من ٦٧ ـ ٦٩) .

على الساحل على نحو تسعة أميال إلى غرب الإسكندرية[1] ، ومن ثم خرج في

---

(١) ورد ذكر اسم هذا الدير في اللغة القبطية مرة ⲡⲓⲉⲛⲁⲧⲟⲛ (أنظر كتاب زويجه Cat. Cod « Copt. » صفحة ٨٩ وصفحة ٩٣ وورد مرة أخرى ⲡⲓϩⲉⲛⲁⲧⲟⲛ (أنظر الكتاب عينه صفحة ٣٣٧) وورد مرة ثالثة ⲡⲓϩⲉⲛⲁⲧⲟⲛ (أنظر كتاب أميلينو Geag. de l'Eg. a l'epoque صفحة ٥٣١) والاسم في اليونانية هو (إنّاتون)*[3] أو (إناتون)*[4] ومعناه التاسع (أنظر كتاب Cotelerius « Mon, Ecc. Gr » صفحة ٤٦٠ وصفحة ٥٢٠) و (كتاب حنا مسكوس Pratum Spirituale) وهذا الاسم يترجم في اللاتينية باسم (Ennatum) والمقريزي العربي يذكر ديراً اسمه (الزجاج) مع دير (أناتون) أو (الهانطون) ويقول إنه مكرس باسم (مار جرجس) ويروي أن البطريق فيما مضى كان عليه بعد إنتخابه في كنيسة المعلقة في حصن بابليون الرومي أن يذهب إلى دير الزجاج ولكن هذه العادة نبذت فيما بعد ، وهذا يدل بلا شك على ما كان لدير (أناتون) من الشأن عند الأقباط وقد زاد شأنه في تاريخ القرنين السادس والسابع وكانت جثة (ساويرس) بطريق أنطاكية محفوظة هناك كما جاء في تقويم الكنيسة . وقد قاموا في ذلك الدير بمراجعة الترجمة السريانية للإنجيل كما حدث فيه إتحاد كنيسة مصر وكنيسة أنطاكية في ذلك الوقت . ويذكر أبو صالح هذا الدير (راجع كتاب الكنائس والديارات في مصر) طبعة (إفتس وبتلر صفحة ٢٢٩ وهامشها) واسمه في ذلك الكتاب (هونا نادون) ويستخاص (جولدشميت) و (بريرا) أن (أناتون) هو (الزجاج) وأنا مدين لما كتباه في هذا الموضوع . ويقولان إنه على تسعة أميال إلى غرب الإسكندرية وأنه كان مكرساً باسم (مار جرجس) ويلوح لي أنه من الواضح أن ذلك الاسم مأخوذ من رقم البريد على الطريق ، فقد كان ذلك المتّبع في مصر مثل ما كان متبعاً في قسطنطينية ، فمثلاً كان الحصن الشهير أو القصر يسمى (الهبدومون) ومعناه السابع . أما نسبته إلى (مار جرجس) فأكثر غموضاً فيظهر اسمه (سلاما)*[5] في كتاب حنا مسكوس وكان غير الدير الذي ذكره (ساويرس) وهو دير (قيرنوس) . ولكن هذا الاسم يجب أن يكون دير (قيريوس) أو دير (قبريوس) ولكن الحقيقة بلا شك هي أن هذا الدير مثل سائر الأديرة الكبرى كان فيه عدة كنائس داخل أسواره . وكانت هذه الكنائس ينسب كل منها إلى قديس خاص وهذا قد يسبب شيئاً من الخلط . وكان في الجنوب الغربي من الإسكندرية مما يلي مريوط دير آخر اسمه (بميتون)*[6] (ومعناه الخامس) . ونقرأ عن دير آخر اسمه (أجنو كيكاتون) (ومعناه المائة والثمانية) . (انظر مجلة « Or. chret. » سنة ١٩٠١ الجزء الأول ص ٦٥ هامش ١) .

موكب مهيب للقاء ضيفه[1] . وكذلك لم يذهب إلى الإسكندرية ، بل أرسل يطلب قسوسه منها وعقد في الدير مجمعاً أسفر عن رجوع الإتفاق والإتصال بكنيسة أنطاكية .

ولكن أندرونيكوس خليفة (أنستاسيوس) شذ عن هذه السنة ، سنة ترك الإقامة بالإسكندرية ، فقد كان عند إنتخابه شماساً في كنيسة (انجليون)[2] بالإسكندرية فبقي هناك مقيماً في صومعته المتصلة بالكنيسة مدّة ولايته وكانت ست سنوات . والسبب في أنه لم يبعد عن الإسكندرية هو أنه كان من أسرة عريقة وكان له قوم من أقاربه بين حكام المدينة يمنعونه ويعتّز بهم . ولسنا ندري كيف كانت العلاقة بين البطريقين ، على أن (حنا الرحوم) مات بعد أشهر قليلة من ولاية (أندرونيكوس) رئاسة الدين في القبط . ولسنا نعرف على وجه التأكيد ما إذا كان جورج[3] الذي وليّ بعد حنا بطرقة الملكانية قد أقام في الإسكندرية أم لم يقم ، وعلى ذلك فأغلب الظن أن العلاقة بين الاثنين لم تكن ذات شأن عند ذلك .

وليس من المجدي أن نأسف لأن أمثال هذه الأخبار المفصلة عن الكنيسة

---

(١) جاء في كتاب السيدة ا . ل بوتشر (.Thestory of The Church in Eg) أن بطريق أنطاكية جاء إلى مصر لائذاً عند غزوة الفرس ولكن الحقيقة أنه جاء إلى مصر ليجتمع مع البطريق القبطي بشأن أمور متصلة بالكنيسة وكان أكبرها أمر إتحاد الكنيستين وقد جاء في الوقت نفسه عدد كبير من الناس منهم قسوس من أهل الشام مع مطارنتهم ومنهم قوم من غير رجال الدين من مختلف الطبقات لاجئين إلى الإسكندرية من غزو الفرس (أنظر كتاب جلزر Leontios von Neapolis) الجزء الثاني صفحة ١١٢ .

(٢) ليس من الواضح هل اسم الكنيسة (Angelion) أو (Euangelion) وكلا الاسمين موجود ولكن لعل اسم (Angelion) هو أخف الاثنين وأيسَرَهُما .

(٣) لا نعرف شيئاً أو لا نعرف إلا القليل عن (جورج) هذا سوى أنه كتب ترجمة لحياة (القديس حنا كريسوستوم) ويقول (تيوفانس) إن مدة ولايته أربع عشرة سنة ، ولكنه ينقض ما قال إذ يقول ـ ولعل قوله هذا هو الحق ـ إنه مات سنة ٦٣٠ بعد ولاية عشر سنوات . أما سعيد بن بطريق فيجعل رئاسة الدين شاغرة مدة سبع سنوات بين حنا وجورج ، ولعل هذا هو السبب في اختلاط الأمر على (تيوفانس) .

والتي لا تلذ كثيراً للقارىء هي جل ما بقي من تاريخ مصر في السنوات الخمس أو الست التي جاءت بعد ثورة هرقل . ولكن قد آن لنا أن نخرج من هذه الترهات إلى السبيل الواضح فنرى ما كانت تتجاوب به الأنحاء الشرقية من الدولة من جليل الحوادث التي بلغ صداها جوانب النيل . وكان قد جرى القضاء بأن تزعزع قوّة الرومانيين في مصر وتصدّع جدرانها ، فتمهد بذلك السبيل إلى الفتح العربي . ولكن النضال الذي كان بين إمبراطورية الرومان ودولة الفرس كان شائعاً في ميدان فسيح ، وإذا أردنا أن نعرف أثره في مصير مصر كان علينا أن نسير وراء حوادثه وتقلبات أحواله ولو كان ذلك إلماماً غير مفصل .

الفصل السادس

فتح الفرس للشام

ولاية كسرى ملك الفرس ــ موت موريق وانقطاع المودة بين فارس والامبراطورية ــ فتح الفرس للشام ــ اليهود والنصارى ــ أخذ بيت المقدس وأسر البطريق (زكرياس) ــ توافد اللاجئين إلى مصر ــ أعمال (حنا الرحوم) في سبيل المساعدة ــ إعادة بناء الكنائس في بيت المقدس ــ عقد كسرى للمجمع المسيحي ــ بعثة (حنا الرحوم) إلى بيت المقدس .

خرج الثائر الغاصب (بهرام) على كسرى حفيد (أنوشروان) ملك الفرس العظيم بعد ولايته بأيام قلائل، وطرده من بلاده فهرب مع خاليه وعبروا دجلة وقطعوا أطناب القنطرة التي اجتازوا عليها حتى لا يلحق بهم أحد من ورائهم[1] . ثم سار كسرى إلى (قرقيسيا) على نهر الفرات ينوي أن يؤدّي الصلاة في مشهد من مشاهد النصارى، يسأل الله أن يُخلِّصه من أعدائه . ومن ثم يقال إنه ضرب في الأرض خائر العزيمة ، كسيف البال، لا يدري أيحتمي بالهون أم بالروم. فرمى أعنة فرسه على غاربه وجعل الحكم للقضاء[2] ، فحمله فرسه إلى حدود الروم ، فنزل ضيفاً على القوم الذين ظلت بلاده في حرب مستعرة معهم نحو سبعة قرون .

---

(١) عن « Journal Asiatique » الحلقة السادسة سنة ١٨٦٦ صفحة ١٩٢ ؛ وكان خالاه هما (بندويه) و (بستام) وقد قتلهما ابن أختهما حسب العادة الشرقية المتبعة عند رجوعه إلى العرش .

(٢) أنظر تاريخ « Tarikh Regum Persiae » (لناشره و . شيكارد صفحة ١٥٤) .

فلقيه الإمبراطور (موريق) مرحباً مؤهلاً، أو بعبارة أدق لقيه نائب عنه عند (هيرابوليس) . ويقال إن الامبراطور نفسه أرسل إليه هدية لا يقدّر لها ثمن من الجوهر، وأنه زوّجه ابنته (مارية)[1] ، وأكبر من كل هذا أنه نصره وأرسل (نارسيس) بجيش جرار ليعيد إليه ملكه من (بهرام) . وحدث اللقاء عند نهر الزاب في إقليم (بلرات) وكانت موقعة شديدة القتال، وكان فيها فصل الخطاب . فإن جيش بهرام كان أقل عدداً من جيش الروم فتمزق شر ممزق، مع أن قائده قاتل بما كان معروفاً عنه من الشجاعة والبصر بأمور الحرب . وهرب بهرام إلى بلخ فأدركه بها أتباع الملك وقتلوه[2] ، وبذلك عاد كسرى إلى عرش فارس بمساعدة الروم ، واختار لحرسه الخاص كتيبة من الروم عددها ألف جندي ، وبذلك حل السلام وثيقاً بين الدولتين حتى لقد قيل إن كسرى تنصّر، ويستدلون بما قدّمه من النفائس قرباناً لمشهد (مارسرجيس) وما كتبه من الرسائل إلى بطريق أنطاكية على أنه كان[3] يؤثر مذهب اليعاقبة .

---

(١) هكذا يقول (ابن بطريق) و (مكين) في حين أن غيرهما من المؤرخين يقولون إنها كانت من أصل رومي فحسب . ولعل (جبون) يحسبها (شيرين) ولكن القصة الفارسية (قصة حب خسرو وشيرين) تفرق بينها وبين مارية . (أنظر ترجمة السير س . أوسلي للقصة في « المجموعة الشرقية » الجزء الأول صفحة ٢٢٤) . على أن شيرين أيضاً كانت مسيحية ويقول (سيبيوس) ـ ويسميها ملكة الملكات ـ إنها بنت كنيسة على مقربة من القصر الملكي . ذلك عدا أديرة أخرى . وقد زخرفت الكنيسة بالذهب والفضة وجعلت فيها القسوس والشمامسة وأجرت عليهم الأرزاق وأوقفت على وظائفهم وكسوتهم جانباً من الأموال العامة .

(٢) وقد جاء في رواية أنه مات مسموماً من سم قدمته له ملكة خاقان التتار وكانت من أقارب كسرى (أنظر كتاب السير ج. ملكولم « Hist of Persia » الجزء الأول صفحة ١٥٥) .

(٣) يذكر أبو الفرج نص الخطابات التي ترددت بين كسرى وبهرام ويقول إنه بعد هزيمة بهرام بنى الملك (هيكلين للنصارى) وجعل أحدهما باسم (السيدة العذراء) والآخر باسم (مارسرجيس) الشهيد (أنظر طبعة بوكوك صفحة ٩٦ ـ ٩٨) وقد جاء ذكر القربان في كتاب (أفاجريوس) وهو يقول إن كسرى وهب الكنيسة صليباً للمواكب وكأساً للخمر الرباني مع صحفته وصليباً للمذبح ومجمرة للبخور وكلها من الذهب الصافي مع ستارة =

ولا شك أن نشأته وعلاقاته بالدولة المسيحية وزواجه كان لها أثر كبير في تخفيف وطأة العداوة القديمة الموروثة بين ديانة المجوس وديانة المسيح. ولكن الروم طلبوا المكافأة على مساعدتهم بأن تضم إليهم أرض فسيحة جعلت ملكهم يبلغ شواطىء نهر الرس. فكانت هذه الخسارة سبباً في إيلام كسرى وقومه، كما كان ميل كسرى إلى المسيحية، وهي دين غريب، مؤلماً لكهنته. فلا شك مع هذا أن يكون قد بادر إلى العدول عن ميوله وإصلاح خطئه. فاضطر بتأثير عوامل قوية بعضها ديني وبعضها سياسي إلى أن يقطع صلته وينقض عهده مع الدولة البيزنطية، فصرف حرسه الرومي وتغير على (نارسيس)

= مطرزة على النمط الهوني ومرصعة بالذهب، ويقول (تيوفيلا كت) إن كسرى نذر في وقت بؤسه أن يهب صليباً عظيماً من الذهب المرصع بالدر والفيروز إلى (مارسرجيس) وهو قديس كانت تجله الناس حتى القبائل البدوية، ويذكر المؤلف نفسه ما سبق ذكره من الهدايا التي قدمها كسرى مرة ثانية عندما ظهر أن سيرا أو (شيرين) حملت ولداً. ويقال إن أنو شروان العظيم مع إضطهاده للمسيحيين كان على صلة حسنة مع (أورانيوس) وهو فيلسوف مسيحي نسطوري معروف عند الناس بما كان ينشر من علم أرسطاليس (أنظر كتاب « Ecc. History » تأليف (Mosheim) الطبعة الحادية عشرة صفحة ٢١٨ طبعة لندن. و. تج سنة ١٨٨٠). ولكن مؤلف هذه القصة لا يمكن أن يكون قد قرأ أو صدق ما كتبه (أجاتياس) وكان في وقت (أورانيوس) ويصفه بأنه كان قليل العلم ميالاً للخلاف والمناظرة يكثر من إضاعة الوقت في مكاتب القسطنطينية ويقول أجاتياس إن (أنو شروان) لم يكن بالعالم بل كان جندياًبابلياً ولم يكن (أورانيوس) سوى طفيلي مدمن للشراب في بلاطه. (انظر Hist. Lib 2 ap. Migne, Pat. Gr. T.88) ويذكر زكريا الميتليني أخباراً كبيرة الدلالة في شأن ما كان يلقاه المسيحيون من الإكرام في بلاط الملك الفارسي وما كان للأطباء المسيحيين من الفضل لا سيما في حمل الملك على بناء مستشفى وإجراء المال عليه. ولم يكن هذا معروفاً في بلاد الفرس من قبل (أنظر ترجمة هملتون وبروكس صفحة ٣٣١). (وانظر أيضاً ما سيأتي ذكره في صفحة ٤٩ الهامش الأول وصفحة ٩١ الهامش الأول)، ولا تزال في الهند إلى اليوم فكرة موروثة ثابتة مؤداها أن أحد أبناء (أنو شروان) واسمه مشزاد كان مسيحياً وكان الأستاذ العظيم (م. عماد الدين لالوز) الذي خرج من الدين الإسلامي ومات سنة ١٩٠٠ يقول إنه من نسل مشزاد هذا (عن مجلة Ch. Miss. Intelligencer) ديسمبر سنة ١٩٠٠ صفحة ٩١٣.

وكـان على رأس الجيش في (دارا). فـأراد (مـوريق) أن يستـل غيظ الملك ويسترضيه فبعث (جرمانوس)[1] ليحل محل (نارسيس).

واتفق في ذلك الوقت أن وثب فوكاس، ذلك الرجل المشوّه الفظيـع بعد أن تم له الأمر في بيزنطة، فقتل الامبراطور موريق مـع كل ولده ذكوراً وإناثـاً. ولم يكن كسرى ليطلب عذراً بعد هذا لتبرير غضبه وإثارة الحرب علانية. ولئن كان لا يزال فيه شيء من التردد فقد زال عنه عندما بلغه أمر (نارسيس) وأنه خرج ثائراً في (أذاسـا)، وقسم الدولـة الرومـانية إلى شـطرين محتربين[2]. على أن نارسيس دفعته ثقة حمقاء مرة إلى أن يذهب إلى العاصمة ليزور بعض أصحابه فيها، فقبض عليه فوكاس وأحرقه في ميدان سباق الخيل، ولكن ذلك كان بعد أن انتهى الأمر وسبق السيف العذل. فلمـا جاء (ليليـوس) رسول فـوكاس إلى جرمانوس في (دارا) بعثه هـذا معززاً مكـرماً إلى البـلاط الفارسي، وكـان معه رسـائل وهـدايا إلى الملك كسـرى، ولكن الملك أودع الرسـول السجن وسار بجيشه إلى أرمينيا.

---

(١) يحسُن بنا هنا أن نرجع إلى الصفحات الأخيرة من كتاب (تيوفيلا كت) فإن ذلك الكتاب ينتهي عند نقض العهد بين الفرس والروم وقد كان من أهل مصر ولكنا لا نجد فيه شيئاً يمكن الإعتماد عليه، فلا يذكر بلاده إلا مرتين ولم يذكرها إلا ليقص قصصاً خرافية مبالغاً فيهـا لا معنى لها. وأولى تلك القصص قصـة شبح عجيب خـرج من النيل. وهي قصة يذكرها أيضاً (حنا النقيوسي) ـ ومـا أعجبَ هذا ـ مـع تغير طفيف (صفحـة ٥٣٣). وثانية تلك القصص قصة وقوع تمـاثيل مـوريق في الإسكندريـة في ليلة مقتله. ويقول (تيوفيلا كت) إن صديقاً له شهد هذا الأمر بعينه وكان وقاداً رأى ذلك وهو عائد من حفلة عرس بعد مضي أكثر الليل. ولا يصعب علينـا معرفـة العلل الطبيعيـة التي تفسر هـذا الأمر.

(٢) يظهر من كتاب شيكارد (Tarikh Reg. persiae صفحة ١٥٥) أن هذه الثـورة كانت في وقت استيلاء (فوكاس) على العرش، ولعلها نشأت من تلك الحـادثة. ويقـول (حنا النقيوسي) إن كسرى حاول أن يقتل (نارسيس) بالسم هو وجيشه وخيوله. ولكن ليس من الواضح كيف كان هذا لينفعه لو فعله (صفحة ٥٢٨ ـ ٥٢٩).

وليس من قصد هذا الكتاب أن نصف القتال الذي كان بين فوكاس وكسرى، فإنه لم يكن في عصرنا الذي نصفه وليس له من صلة بتاريخ مصر ، اللهم إلا بما كان له من الآثار العامة ، ولسنا نجد شيئاً نزيده على ما كتب من قبل . وعلى ذلك فحسبنا أن نذكر أن ملك الفرس بعد أن فتح أرمينيا ، وكثيراً ما كانت ميداناً للنضال بين الدول ، قسم جيشه إلى قسمين ، فأرسل قسماً منه إلى الجنوب لفتح الشام ، وأرسل الآخر إلى الغرب ليخترق قلب آسيا الصغرى ، يقصد بذلك أن يصل إلى القسطنطينية . وليس توارد الحوادث بالأمر الواضح ولكنا لا يعنينا منها إلا ما كان من أمر الجيش الذي ذهب إلى الجنوب . وقد كان سيره بطيئاً حتى إن فتح أنطاكية لم يتم إلا وقد صار (هرقل) ملكاً للدولة . وبعد فلو صح أن الباعث لكسرى على خوض الحرب إنما هو الإنتقام من فوكاس ، لكان موت هذا الطاغية مختتم النضال. ولكن الملك العظيم قد عرف في حربه ضعف عدوه وزاده النجاح رغبة في المضي في سبيله ، ولم يكن سبيله إلاّ إخضاع الدولة الرومانية لحكمه . ولم يكن ذلك مجرد خيال بعيد التحقيق ، فقد كانت جيوشه أكثر عدداً وأتم عدة وأبدع نظاماً من جيوش عدوه ، وكان قواده لا أكفاء لهم في جيش الروم بعد أن مات (بونوسوس) و (نارسيس) وكانت خزائنه عامرة بالمال والشعب من ورائه يداً واحدة ، في حين كان أهل الدولة الرومانية شيعاً وفرقاً وخزائنها تكاد تكون خاوية .

ومع ذلك فقد كانت بلاد الشام وعرة المسالك ، وكان حصار المدن أمراً شاقاً ، وكان الجيش يقضي قسطاً كبيراً من السنة بلا عمل في معسكر الشتاء ، فلم يقدر خوريام[1] قائد الفرس على أن يسير إلى بيت المقدس بعد الإستيلاء

---

(١) راجع كتاب (ابن بطريق) وتعليق مبني عليه في كتاب (Patr Gr.) الجزء الثالث المجموعة ١٠٨٢ وفيها يأتي ذكر (شراوزية) . ويأتي اسمه في كتاب (تيوفانس) على صورتين وهما (سرفرازاس)*(٨) و (سرفنازاس)*(٩) واسمه في ديوان بسكال (سرفروس)*(١٠) وكذلك يأتي اسمه (شراوزيه) و (شهربرز) وهذا تحريف الاسم الفارسي (شهر- ورز) ومعناه (الخنزير البري للملك) والخنزير البري رمز للقوة الباسلة فكانت صورته لذلك ماثلة على خاتم فارس القديمة وكذلك عفى خاتم أرمينية . وقد كان (شهر - ورز) =

على (دمشق) و (قيصرية) إلا في السنة الخامسة من حكم هرقل . وأرسل ذلك القائد على ما يلوح رسلاً من مقره في قيصرية إلى بيت المقدس يدعوها إلى التسليم للملك الأعظم ، وقد حدث ذلك فأسلم اليهود المدينة إلى قواد الفرس بعد أن غلبوا المسيحيين من أهل المدينة على أمرهم[1] . وما هي إلا

= كما هو معلوم لقباً يلقب به تكريماً ولم يكن اسماً له . وهذا القائد عينه غصب عرش الفرس فيما بعد واستقر عليه مدة قصيرة ويعرف بلقب آخر ، ففي كتب الأرمن نجد اسمه (أرزمن) و (رزمن) و (رومزان) أو (رميكزان) وفي كتب الإغريق نجد اسمه (رسميزاس) أو (روميزانس) ونجده في صورته الصحيحة (رزميوزان) في كتاب (موسى الكاغنكتوتي) ونجده (رومبازان)*[11] في كتاب (تيوفانس) . وكان اسمه غير هذه الألقاب كلها فهو (خوريام) . أنظر (Journal Asiatique) الحلقة السادسة سنة ١٨٦٦ صفحة ١٩٧ . على أن اسم (خوريام) لا يرد في كتب مؤرخي الفرس وقد حدثني المستر (بلاطس) أن اسم هذا الملك في كتب تاريخ الفرس هو (كراز) وهو الخنزير أو (شهربرز) أو (شهريار) .

(١) جاء ذكر العداوة القطيعة التي يحملها اليهود للمسيحيين في كتاب (قيلدرينوس) وهو يروي أن في السنة الأخيرة من حكم (فوكاس) أوقع اليهود بالمسيحيين في أنطاكية فأرسل إليهم (فوكاس) قائده (بونوسوس) فأنزل بهم إنتقاماً وبيلاً تحدوه قسوة تقشعر من وصفها الأبدان (أنظر ما سبق ذكره في الفصل الثاني صفحة ٦١) . ولا شك أن يهود أنطاكية ساعدوا الفرس في السنة التي تلي ذلك . وكذلك فعلوا في بيت المقدس (أنظر « Corp. Hist. Bizant. Script » الجزء السابع صفحة ٧٠٨) . وانظر المقريزي « ترجمة ملان » صفحة ٦٨ . ولما جاء شاهين أو (ساين) في سنة ٦١٠ إلى قيصرية في إقليم (قبادوقية) نزح المسيحيون هاربين ولكن اليهود استسلموا وخضعوا للفرس ، ويتفق مع ذلك ما جاء في (سبيوس) من الأدلة وهو يذكر الأمر ذكراً صريحاً فيقول : « خضعت كل بلاد فلسطين في ذلك الوقت لحكم ملك الفرس خضوعاً طائعاً . وثار الباقون من أبناء العبرانيين بالمسيحيين ودفعهم حقدهم الموروث إلى أن ينكلوا بالمؤمنين تنكيلاً عظيماً ثم لحقوا بالفرس ونبتت بينهم مودة وثيقة » . وإذا شئنا أن نجد فوق هذا براهين أخرى على كراهة اليهود للمسيحيين كراهة لا هوادة فيها فلنرجع إلى كتاب (زكريا المتليني) ففيه وصف لما أتاه ملوك الحميريين في بلاد العرب من المنكرات في رعاياهم المسيحيين وكان هؤلاء الملوك يهوداً (أنظر ترجمة هملتون وبروكس صفحة ٢٠٠ وما بعدها) .

شهور قليلة بعد ذلك حتى وثب المسيحيون بالفرس فقتلوا قادتهم وملكوا الأمر على الجنود المرابطة وأغلقوا أبواب المدينة ، وعند ذلك جاء (شاه ـ ورز) وحاصرهم ثم ساعده اليهود على هدم الأسوار فاستطاع جنوده أن يدخلوا المدينة في اليوم التاسع عشر من مجيئه . وكان دخولهم من نقب أحدثوه في الأسوار ، وأخذوا المدينة[١] عنوة ، وأعقب ذلك مشاهد مروعة من التقتيل والنهب والتدمير ، وكانت الضحايا عظيمة ، وأقرب ما قيل فيها إلى الإفهام قول (سبيوس) و (توماس الأرظروني) إذ قالا إن عدد القتلى بلغ ٥٧,٠٠٠ وعدد الأسرى ٣٥,٠٠٠ ؛ على أن مؤرخي بيزنطة يقولون إن عدد من هلكوا كان ٩٠,٠٠٠ وهو تقدير غير دقيق[٢] ، فقول كتاب الأرمن أقرب إلى الحقيقة . على أنه من الثابت أن القتلى كان بينهم آلاف كثيرة من الرهبان والقديسين والراهبات . وبعد أن قضى الفرس في المدينة واحداً وعشرين يوماً في القتل والنهب خرجوا من المدينة وأوقدوا فيها النيران فخربت بذلك أو جردت مما بها كنيسة القبر المقدس وسواها من البيع العظمى التي بناها قسطنطين[٣] . أما الصليب المقدس وكان قد دفن في الأرض بغطائه الذهبي ذي الجواهر[٤] فأخرج منها وقد عرف مكانه بالتعذيب[٥] وأخذ هو وشيء لا حصر له من الآنية المقدس من الذهب والفضة وجعل كله غنيمة . وأسر عدد عظيم من الناس كان

---

(١) جاء هذا الخبر في كتاب (سبيوس) ونظن أنه هو الذي أورده وحده دون كل المؤلفين .

(٢) يتفق في إيراد هذا العدد المؤرخون (تيوفانيس) و (قيدرينوس) و (زوناراس) ونجده كذلك في كتاب « Tarikh Regum Persiae » صفحة ١٥٥ وهو عدد يتفق مع ما أورده (سبيوس) إذا أضفنا عدد من قتل إلى من أسر ولكن جاء في نسخة مخطوطة من كتاب (سبيوس) أن عدد القتلى ١٧,٠٠٠ .

(٣) إذا أردت أن ترى وصفاً لهذه الأبنية البديعة فانظر كتاب (Pal. Pil. Text Society) الجزء الأول وانظر قصائد (غزل صفرونيوس) في كتاب (ميني) (Part. Gr.) الجزء الأول صفحة ٨٧ (٣) .

(٤) تاريخ الفرس لملكولم الجزء الأول صفحة ١٥٧ .

(٥) دفن الصليب في حديقة وزرعت عليه الخضر .

من بينهم البطريق (زكرياس). فأما صندوق الصليب المقدس والبطريق فأرسلا هديتين إلى مارية زوج كسرى ، وأمـا سائـر الأسرى فـإذا نحن صدقنـا ما رواه (قيدرينوس) فقد اشترى اليهود كثيراً منهم ليمتعوا أنفسهم بتقتيلهم . وقد قال كاتب (ديوان بسكال) وفي قوله رنة الأسى : « إن كل هذا لم يحدث في سنة ولا في شهر بل في بضعة أيام » وكان تاريخ هذا على سبيل البت في شهر مايو سنة ٦١٥[١] .

من هذا نعرف أن المدينة المقدسة قد نزلت بها كوارث السيف والنار ومن لم يدركه القتل والأسر من أهلها هرب لائذاً إلى الجنوب في القـرى المسيحية

---

(١) يقول (تيوفانيس) إن السنة الخامسة من حكم هرقل هي ٦١٠٦ للخليقة وهذه السنة من الخليقة هي سنة ٦١٥ للهجرة ويدل على هذا أن سنة ٦١١٣ للخليقة هي السنة التي قام فيها هرقل بغزوته وهي سنة هجرة النبي محمد (أي سنة ٦٢٢) (ويقول سبيوس إنها سنة ٢٥ لحكم كسرى ، والنصف الأخير من تلك السنة يقع في النصف الأول من عام ٦١٥ .

وأما تاريخ اليوم فقد اختلط الأمر فيه على كتاب الأرمن فيقول (توما الأرظروني) إن فتح المـدينة كـان بعد الفصـح بعشرة أيـام في الثامن والعشـرين من (مـرجـاتـس) ويقـول (دولـوريـيه) في كتـاب «Chron. Armen» صفحة ٢٢ ـ ٣ إن التـاريخين لا يتفقـان فـإنـه في سنة ٦١٤ وهي السنة التي يقول (دولورييه) إن بيت المقدس فتح فيها قد وقع عيد الفصح في ٣١ مارس فيكون بعد ذلك بعشرة أيام اليوم العاشر من إبريل . في حين أن الثامن والعشرين من (مرجاتس) هو يوم ٢٦ مايو ويتفق ما جاء في كتاب سبيوس مع ما جاء في كتاب (توما الأرظروني) ولكنه يجعل اليوم العاشر بعد عيد الفصح يقع في ٢٧ (مرجاتس) ويقول المستر (Conybeare) إن ذلك يوافق اليوم العشرين من مايو ولكن عيد الفصح من عام ٦١٥ يقع في يوم ٢٠ أبريل ، فإذا فرضنا أن عدد ١٠ في النسخة الخطية هو تحريف ٣٠ كان لدينـا إتفاق على يـوم ٢٠ مايـو . وفوق ذلـك قد جـاء في (ديوان بسكال) أن فتح المدينة كان قرب شهر يونيه وهذا فيه الفصل في الخـلاف الواقـع بين مؤرخي الأرمن ، ولكن يجب أن نلاحظ أن (ديوان بسكال) يجعل فتح المدينة في السنة الرابعة من حكم هرقل وعلى ذلك فإن (قيدرينوس) و (ساويرس) يتفقان معه على أن تاريخ فتحها سنة ٦١٤ ، وليس من السهل علينا ألا نأخذ بتاريخ (ديوان بسكال) ولكنا في هذا الموضع مضطرون إلى عدم الأخذ به لرجحان الأدلة ضده .

من بلاد العرب[1] . وكانت تلك القرى جماعات وادعة فعكر صفوها ما بلغها من صدى الدعوة الجديدة دعوة نبي الإسلام . ولعل ذلك الحادث من إنتصار الفرس أهل الأوثان في بيت المقدس هو الذي نزلت بمناسبته الآية الشهيرة « غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين »[2] ولكن الملجأ الأكبر للهاربين المشتتين من المسيحيين كان القطر المصري ولا سيما الإسكندرية وكان عدد سكانها قد تزايد بمن كان يرد إليها من اللاجئين الذين كانوا لا ينقطع سيلهم منذ ابتدأت غزوة الفرس في بلاد الشام .

وقد كان كرم (حنا الرحوم) وما عنده من المال لا يكفيان لسد الحاجة الشديدة التي عمت البلد قبل أن يأتي إليها وفود اللاجئين من بيت المقدس ، فما بالك بالحال وقد جاءت إليها تلك الوفود . ثم زاد البلاء اشتداداً إذ كان فيض النيل في ذلك الصيف فيضاً ضعيفاً مخطراً ، وكانت عقباه مجاعة[3] جرت على البلاد كلها ذيل الخراب . على أن الهبات كانت لا ينقطع مددها عن الكنيسة ، وقلما جاء قاصداً إلى (حنا الرحوم) إلا وجد عنده تحقيق أمله « كما تلجأ السفينة إلى المرفأ الذي لا موج فيه » . فكان ذلك البطريق الطاهر يطعم الطعام للفقراء ، وفوق ذلك بنى الملاجيء والمستشفيات للمرضى والجرحى ولم ترضَ نفسه أن يعنف الأغنياء إذا هم بلغت بهم ضعة النفس أن يستفيدوا من إحسانه . ولكن هذا البذل لا يمكن أن يدوم . فلما اشتد القحط وجد حنا خزائنه قد أخذت تخوي . وفيما كان في شدة من أمره أصابته فتنة شديدة ، وذلك أن أحد الناس أتى إليه وكان قد تزوج مرتين ، ولهذا كان غير صالح أن يدخل بين رجال الدين[4] . وقد أتى إليه بمقدار عظيم من المال وشيء كثير من

---

(١) نجد وصف هذه الطوائف في كتاب (ريت) ، (Chris. in Arabia)

(٢) نقلناها نحن من سورة الروم ولكن المؤلف أخذها من النص الإنجليزي لترجمة القرآن وبه حواش من (Sale) . (المعرب) .

(٣) ليونتيوس في كتاب ميني (Pat. Gr.) الجزء ٩٣ مجموعة ١٦٢٥ .

(٤) أنظر كتاب المسز ا . ل . بوتشر (Story of The Church in Eg.) الجزء الأول صفحة ٣٤٥ .

القمح مهراً لكي يبيح له الدخول في زمرة رجال الدين ، وكان حنا لم يبق لديه إلا كيلان من القمح في خزائنه ، فتردد في أمره ولكنه لم يتردد طويلاً ثم أبى أن يقبل الهبة . فجوزي على ذلك بأن أتته بعد قليل أنباء بأن سفينتين من سفن الكنيسة تحملان مقداراً كبيراً من القمح آتيتان عند رأس فاروس مقبلتين من صقلية ، وما عتمتا أن صارتا في المرفأ .

ولكن بر البطريق لم يكن مقصوراً على مصر ولم يكن معناه إطعام الجائعين وحدهم ، فإنه ما كادت المدينة المقدسة تنهب وتدمر حتى أتى راهب اسمه (مودستوس) ، كان قد نجا من القتل ، فقطع أرض فلسطين ذاهباً إلى مصر في طلب المعونة على إعادة بناء الكنائس المخربة . وقد نجح في سعيه وعاد إلى بيت المقدس ومعه مقدار كبير من المال ، فوجد أن اليهود قد خسروا حباء الفرس وتعضيدهم ، وكان الفرس قد بذلوهما في أول الأمر ثمناً لما قدموه من المساعدة ، وصار المسيحيون بعد ذلك في مكان الحظوة عند الفرس . فجعل (مودستوس) على رئاسة جماعة المسيحيين في الحكم الدنيوي والديني ، وأبيح له أن يعيد بناء الكنائس . وأرسل كسرى ـ كما جاء في (سبيوس) ـ أوامر خاصة يأمر بالإحسان إلى الأسرى ، وأن يعيدوهم إلى حيث يستقرون ، وأن يرجعوا بناء بيوت الدولة ثم أجاز طرد اليهود فتسابق الناس إلى إنفاذ أمره .

ويذكر لنا المؤرخ نفسه نص خطاب أرسله (مودستوس) إلى (كومتاس) (رئيس الدين في أرمينيا) بعد أن تم العمل في الكنائس ، وفيه يقول « لقد جعل الله أعداءنا أصدقاء وأنزل الرحمة والرضوان في قلوب غزاتنا ، على حين أن اليهود الذين اجترأوا على معاداة هذه الأماكن الشريفة وإحراقها قد شردهم الله من البلد المقدس ، وقدر عليهم ألا ينزلوا به ولا يروه ، وقد أرجعت فيه بيوت العبادة إلى سابق عزها ومجدها » . ثم جاء فيه بعد ذلك « لقد عادت كل كنائس بيت المقدس إلى سابق سيرتها تصلي فيها القسوس ويسود السلام على مدينة الله وما حولها » .

وليس بأقلّ غرابة من هذا ما رواه الكاتب نفسه عن مجمع عقدة المسيحيون وأوحى به كسرى ، ولا تزال هذه القصة محفوظة بين طيات خطاب كان أرسله الجاثليق الأرمني ومطارنته رداً على رسالة جاءتهم من قسطنطين خليفة هرقل . وقد جاء في هذا الخطاب أن الملك الأعظم أمر مطارنة الشرق وأشور أن يجتمعوا في بلاطه وقال لهم « لقد سمعت أن في المسيحيين فرقتين تلعن إحداهما الأخرى ، فمن يدرينا أيهما على الحق ؟ فليأتوا جميعاً إلى مجلس واحد فليأخذوا بالحق وليذروا الباطل » . وقد جعل الطبيب الأكبر للملك ورجلاً آخر اسمه (سمباط البجرتوني) عميدين لهذا الإجتماع وكان بين من جاءوا إليه من الخواص (زكرياس) بطريق بيت المقدس كما جاء سواه من « رجال حكماء كانوا فيمن أخذ أسيراً من الإسكندرية » وكان ذلك المجمع أولاً كثير الصخب والإضطراب ، فاضطر الملك أن يخرج منه أتباع كل الفرق التي لا تدين للمذاهب التي أقرها أحد المجامع السابقة ، وهي مجمع (نيقة) و (القسطنطينية) و (أفيسوس) و (خلقيدونية) . ثم أمر الملك المجتمعين من رجال الدين أن يفحصوا ما تقرر في هذه المجامع وأن يرسلوا إليه بما يرون في ذلك ، فجاءت إلى الملك كتب عدة يبسط فيها أصحابها مختلف الآراء ، وجعل هو يفكر فيها ويزنها في عقله ، ثم جعل يسائل فيها (زكرياس) وأهل الدين الإسكندريين ، وكانوا يقسمون له أن يقولوا الصدق . فأجمعوا على أن الدين الحق هو ما أقرته مجامع (نيقة) و (القسطنطينية) و (أفيسوس) ، وتبرأوا من مجمع (خلقيدونية) ، وعلى ذلك حكمهم (للمنوفيسيين) . ومذ سمع الملك هذا أمر أن يبحث في خزائنه ومكاتبه عن الصحيفة التي كان مذهب (نيقة) مدوناً بها فوجدوها ورأوا أنها وفق عقيدة الأرمن ، فأمر كسرى « أن يؤمن المسيحيون في دولته جميعاً بما آمن به الأرمن » . وكان ممن رضي عن ذلك « الملكة شيرين التي تحب الله ، وسمباط الباسل ، وكبير أطباء الملك » . وختمت الصحيفة التي كتب فيها المذهب الصحيح كما أقره المجلس بخاتم الملك الأعظم وجعلت في (ديوان السجلات) بالدولة .

وليس لدينا ما هو أكبر دلالة على ما كان عليه كسرى في معاملته

للمسيحيين من هذه الرواية التي بقيت محفوظة للتاريخ في ثنايا خطاب المطارنة الأرمن ، وإنا لنلمح الصدق في لهجة الخطاب ، وليس بنا ما يدعو إلى الشك في صحتـه . وكانت كتـابته حـوالي سنة ٦٣٨ أي بعـد نحو عشـرين سنـة من المجمع الذي جاء ذكره فيه ، ذلك المجمع الذي انعقد عقده بعـد زمن قصير من فتـح الفرس بيت المقـدس . وهذا الخـطاب يصور لنـا الملك الأعظم في صورة غير التي ألف الناس رؤيتها ، فلم يكن الملك الوثني المتعصب يضطهد أصحاب الصليب ويقاتلهم ، بل كان على غير ذلك يبيح للمسيحيين حقهم في اعتقـادهم ، ويبدي غيـرة وإقبالاً عجيبين على فهم عقـائدهم ، ويعجب أشـد العجب من خلافهم وتطاحنهم وتنابذهم وهو ما لا يتفق مع روح دينهم ، ويظهر الحرص على إزالة ما بينهم من الشقاق والخـلاف . ولا ندري أكـان ذلك من حدب على ما فيه صلاح أمرهم أم كان الباعث عليه حـرصاً على الكيـاسة في تصريف أمور الدولة . فكان يجلس معهم وهم يتناظرون ويسائلهم فيما هم فيه ويتدبر ما يجيبونه به . فلما أن استقر رأيه على قرار وحكم حكمه قيل إنه توعد بعض المطارنة أن يضرب أعناقهم ويهدم بيعهم إذا هم عصوا ما أمر به . على أن القصة تدل في مجملها على هوادة ورفق يقربان من العطف على المسيحية ، وهو ميل بدا منه من قبل عندما أمر أن يعيـد المشردين من المسيحيين إلى بيت المقدس والإذن لهم بإعادة بناء ما تهدم من معابدهم . وقد جاء في كتاب (حنا النقيوسي)[١] أن أبا (هـرمزداس) وهـو (أنوشـروان) الكبير بقي مـدة يضمر الإيمان بالدين المسيحي ثم عمده أحد المطارنة . ولسنا ندري ما مبلغ هذا من الحق ، ولكن أثر نساء الملوك من المسيحيات وأثر الأطباء والفلاسفة في بلاط هؤلاء الملوك ، جعل في قلوبهم عطفاً على المسيحية وجعلهم يعرفون عنها من العلم شيئاً كثيراً[٢] . وفي الحق إن عجبنا من أن الفرس كانوا في حكمهم على مثل هذا الرفق لا يحيدون عنه في معاملة الكنيسة المسيحية أشد من عجبنا من

---

(١) صفحة ٥٢٦ .

(٢) أنظر ما سبق لنا قوله في صفحة ٩٦ هامش ٣ ونقول إنه قد جاء في الطبري (لناشره دي =

سورة البطش التي كانت توقع بتلك الكنيسة في بعض الأحايين .

وخلاصة القول إن (حنا الرحوم) مطران الإسكندرية بذل في سبيل إعادة الكنائس في بيت المقدس إلى سابق عهدها ما يقال إنه بلغ ألف عدل من القمح والخضر وألف بغل وألف سفينة من السمك وألف خابية من الخمر وألف رطل من الحديد وألف صانع[1] . وقد كتب حنا إلى (مودستوس) في خطاب له : « أعتذر إليك أني لا أستطيع أن أرسل شيئاً جديراً بكنائس المسيح . وما كان أحب إلى أن أجيء فأعمل بيدي في بناء كنيسة القيامة »[2] . ويروي عنه أيضاً أنه بعث مرة عيراً تحمل من الذهب والقمح والثياب وما إلى ذلك مع رجل اسمه (كريسيبوس) وقد تكون هذه رواية أخرى للقصة السابقة عينها . ويروي أنه أرسل (تيودور) مطران (أماتوس في قبرص) و (جريجوري) مطران العريش (رينوقولورا)[3] و (أنستاسيوس) رئيس دير الجبل الأكبر دير (القديس

= غويه الجزء الأول صفحة ١٠٠٠) أن كسرى بعد أن ولي الملك بمدة يسيرة أمر المسيحيين في بلاده أن يعيدوا كنائسهم وأن ينصروا المجوس إذا استطاعوا مدعياً (أن أنو شروان) أمر بمثل ذلك من قبل بناء على عقد اصطلح مع قيصر عليه . ويقول اليعقوبي (لناشره هوتما الجزء الأول صفحة ١٩٤) إن كسرى عندما انتصر في أول أمره وأرسل أنباء ذلك إلى (موريق) أرسل إليه الأمبراطور ثوباً به زخرف من الصلبان فلبسه وقد أخذ عليه الناس ذلك . ثم أمر بإعظام المسيحيين وأقامهم في أعلى المناصب وقال إنه قد صالح ملك الروم على عقد لم يسبق لملك أن يعقد مثله .

(١) سعيد بن بطريق في كتاب ميني « Pat. Gr. » (الجزء ١١١ المجموعة ١٠٨٢ وما بعدها) ولا شك أن ابن بطريق مخطىء في زعمه أن هذه الحوادث وقعت قبل السنة السادسة من حكم (فوكاس) فإنها في حكم هرقل كما جاء في (قيدرينوس) و (تيوفانس) وجاء ما يقرب من ذلك في كتاب (ليونيتوس) عن عطاء حنا وأضاف إليه ألف قطعة من الذهب وذكر « سلوكا من السمك » بدل قوله السمك المملح في القدور .

(٢) قد وصف زكريا فتح الفرس ونجد وصفه مذكوراً في كتاب ميني (الجزء ٨٦ المجموعة ٣٢١٩ وما يليها) وقد نقلت عنه ، وكان زكرياس بطريقاً لبيت المقدس من سنة ٦٠٩ إلى سنة ٦٢٨ أو سنة ٦٢٩ وأسره الفرس .

(٣) كانت (رينوقولورا) مدينة على حدود مصر من جهة فلسطين ويقول ديودور الصقلي إن =

أنطون)[1] وأرسل معهم مالاً كثيراً وتقدم إليهم أن يفدوا به من استطاعوا فداءه من الأسرى . وكان هذا في النصف الثاني من سنة ٦١٥ .

= اسمها مشتق من قصة ، وذلك أنه كان في مصر ملك اسمه (أرتيسانز) وكان يتخذها منفى للمجرمين الذين كانت تقطع أنوفهم أو تجدع ، وقد سميت المدينة في مدة العرب بالعريش ، أنظر (مذكرات كاترمير الجزء الأول صفحة ٥٣) « Rec. de l'Eg » الجزء الثاني صفحة ١٠ و ١١ و ٢٠ وأما (شمبوليون) فإنه لا يقبل هذا الاشتقاق الذي جاء به ديودور ، وقد كان جدع الأنوف عقاباً معروفاً في القانون اليوناني الروماني في ذلك الوقت (انظر كتاب جبون لناشره بوري الجزء الخامس صفحة ٥٢٩) ويقول (سبيوس) : إن هرقل أوقع تلك العقوبة بمن اشترك في مؤامرة (أثالاريك) بعد رجوعه من بيت المقدس .

(١) قد يكون الدير المقصود هنا هو الدير المعروف على ساحل البحر الأحمر ، كما يدل على ذلك وصفه ، وقد يكون ديراً آخر بالاسم نفسه في جبل بقرب قفط ، وهي مدينة على النيل بقرب قنا (انظر كتاب أبي صالح « كنائس مصر ودياراتها » صفحة ١٥٩ - ١٦٢ وصفحة ٢٨٠) وقد ذكر شارب هذا الدير (دير القديس أنطونيوس) في كتابه « Hist. of Eg. » (الجزء الثاني صفحة ٣٦٨) ويقول إنه في العاصمة ولكن يلوح لنا أن هذا زعم لا أساس له .

الفصل السابع

فتح الفرس لمصر

إتحاد كنيسة مصر القبطية وكنيسة الشام - سير الفرس إلى مصر - فتح حصن (بابليون) و (نقيوس) وحصار الإسكندرية - هرب (نيقتاس) و (حنا الرحوم) - موت حنا - خيانة طالب وممالأته على فتح المدينة وهو بطرس البحريني - موت (أندرونيكوس) - حال القبط مع الفاتحين - تفنيد المزاعم السائرة بين الناس - قصة (بيزنتيوس) ومعاملة القبط - معاملة الاسكندرية - حصن الفرس .

في الوقت الذي كانت فيه العير التي أرسلها حنا الرحوم تقطع الصحراء آتية من مصر إلى بيت المقدس في أول خريف سنة ٦١٥ ، أتى إلى (أنستاسيوس) بطريق القبط ضيف نزل عليه وهو (أنستاسيوس) بطريق أنطاكية ، وكان قد اعتزل عند غزوة الفرس . وكان لقاؤهما كما ذكرنا آنفاً في دير (الهانطون) على الساحل إلى غرب الإسكندرية . ولعل بطريق أنطاكية كان يصحبه مطران أو اثنان من مطارنة الشام وكان قد حل في الدير من قبل مطارنة آخرون أمثال (توما الهركلي) و (بولص التّلوي) وكانوا دائبين في عملهم العظيم ألا وهو مراجعة ترجمة الإنجيل السوريانية ومقابلتها على النص اليوناني ، وكان سواهم في مصر مثيرون جاءوا إليها لائذين ، فإنه « قد هرب كل من استطاع الهروب إذ كان الفرس يفسدون في الشام خوفاً أن يدركهم شرهم ، وكان فيهم ناس علمانيون من كل الطبقات وقسوس من جميع الدرجات

ومعهم مطارنتهم ، جاءوا كلهم إلى الإسكندرية يحتمون بها »[1] . فكان على ذلك من المحتمل أن تصدق الأقوال الشائعة عن وجود خمسة من المطارنة مع البطريقين عند إجتماعهما . وقد كان من أثر هذا الإجتماع إتحاد الكنيستين الشامية والقبطية . ولم يبق (أنستاسيوس) في مصر إلا شهراً واحداً ، ثم عاد إلى الشام وشهد فيها أول عهد التسامح العجيب الذي كان على ما يظهر يحل سريعاً في إثر غزاة الفرس عقب القتال الأول العنيف الذي كانت الدماء تسيل فيه غزاراً ، إذ كان الفرس في حربهم غلاظ القلوب ما دام السيف في أيديهم ، وكانت غلظتهم وحشية لا يبررها عقل ولا تدعو إليها حاجة ، حتى كان يخيل إلى الناس أن جندهم لا يمل من سفك الدم . فإذا ما ساد السلام وعاد الأمن صار حكمهم عادلاً وديعاً على غير توقع . كانوا على ذلك في بلاد العرب وفي الشام وفلسطين ، وكانوا على ذلك أيضاً في مصر كما تشهد حوادثها بعد حين .

استغرق فتح الشام سنين ستة ، وكان فتح بيت المقدس آخر ما كان عليهم القيام به هناك ، لم يبق بعده إلا قليل من الأمور . فلما اقترب خريف سنة ٦١٦ كان الاستعداد قد تم لغزو مصر . ويظهر أن القائد لم يكن (خوريام) وهو (شاه ـ ورز) ، بل كان قائداً آخر اسمه (شاهين)[2] . سار شاهين على

(١) كتاب جلزر (Leontios Von Neapolis) الجزء الثاني صفحة ١١٢ .

(٢) جاء في (الديوان الشرقي) والمقريزي أن كسرى نفسه هو الذي غزا مصر ، ولكن لعل هذا القول لم تتحر فيه الدقة . وجاء في قصة أخرى أن اسم القائد (ساين) أو (سايس) وهو شاهين ، ولعل هذا هو الحق وأنه لم يكن (خوريام) كما جاء في قول سعيد بن بطريق . وليس في التاريخ ما يدل على أن كسرى ترك قصره ومتاعه وذهب إلى مشقات القتال في حرب مصر أو الشام ، ومن الطبيعي أن يقال إن خوريام سار من فلسطين إلى مصر ، ولكن الطبري عمدة في مثل هذه الأمور وهو يقول إن (روميوزان) وهو (خوريام) كان القائد الذي فتح بيت المقدس وإن قائداً آخر اسمه شاهين أمر بالسير إلى مصر وبلاد النوبة وأرسل مفاتيح الإسكندرية إلى كسرى ، وأن قائداً ثالثاً وهو (فرّوهان) أرسل إلى القسطنطينية . ويدل على أن شاهين كان هو القائد ما جاء في أوراق البردى الفارسية في مجموعة (رينر) ، انظر كتاب (قراباسك) « Fuhrer durch die Ausstellung » صفحة ١١٣ .

محجة الحرب وطريقها الواضح ، وهي الطريق التي سار فيها قمبيزو (أنطيوخس أبيفانس) والإسكندر الأكبر ، والتي كان مقدّراً عليها أن تشهد سير عمرو بعد سنوات قليلة وهو يقود جيوش العرب .

كان أول تلك الطريق عند العريش (رينو قولورا) وكانت تتبع ساحل البحر إلى الفرما ومنها إلى ممفيس ، ثم تبلغ مفترق الفرعين عند رأس مصر السفلى . ومن (ممفيس) كانت تصل إلى (نقيوس) متبعة فرع النيل الغربي ، ومن هناك تسير إلى الإسكندرية . ولم يكن لدى أهل وادي النيل رغبة في قتال شديد ولا قدرة عليه ولهذا لا نجد ذكراً لوقعة ذات شأن ولا لسعي شديد في سبيل الدفاع عن البلاد .

ويصف مؤرّخو اليونان كل هذه الحرب في كلمة قصيرة ، إذ يقولون : « جاء الفرس فأخذوا مصر كلها والإسكندرية وليبيا إلى حدود أثيوبيا ، ثم عادوا ومعهم عدد عظيم من الأسرى وغنائم جليلة المقدار »[1] . ويزيد المؤرّخون المصريون على تلك القصة شيئاً يسيراً لا يشفي غلة ، على أننا نعرف منهم أنه قد فتحت الفرما بغير كبير عناء ، وأن الفرس خربوا من كنائسها الكثيرة وأديرتها[2] . ولا يرد ذكر لإخضاع حصن بابليون بقرب ممفيس ولنا أن نقول إنه كان غير محصن ولم تكن فيه حاميات من الجنود تدفع عنه ـ ولو أن الفرس كانوا بلا شك أهل السبق والتبريز في فنون الحصار وحروبه ـ وكذلك نعرف منهم أن جيش الفرس سار في البر بعد فتح (ممفيس) يساعده أسطول عظيم في نهر النيل وسار متبعاً الشاطىء الشرقي من الفرع الأكبر الغربي ، ومر بمدينة (نقيوس) في طريقه إلى الإسكندرية[3] .

---

(١) تيوفانس وقيدرنيوس .

(٢) أبو صالح صفحة ١٦٨ ونسخة خطية لساويرس في المتحف البريطاني صفحة ١٠١ وقد أشير إلى ذلك في هامش تلك الصفحة .

(٣) قد جاء أن فتح بابليون وفتح (نقيوس) كان قبل فتح الإسكندرية فيما ذكر الراهب القبرصي حنا وكان في حجه في بلاد مصر وكلماته هي : « وكنت في الإسكندرية عندما =

وأما فتح الإسكندرية فقد بقي وصف شائق له[1] . يقول كاتبه إن تلك المدينة العظمى « بناها الإسكندر كما أوصاه أستاذه أرسطو فجعل لها سوراً وأجرى وراء الأسوار مياه النيل وجعل لها أبواباً قوية » ، وقد ظل الحصار زمناً ولم يستطع الفرس أن يدخلوا ذلك المعقل المنيع مع ما كانوا عليه من بصر بأمور الحصار . والحق أن حصونها كانت قوية لا يكاد عدوّ يجد فيها مطمعاً وكان ذلك الحصار في عام ٦١٧ أي بعد آخر غزوة غزاها الفرس مصر بنحو ١١٧ عاماً . وقد استطاع الفرس في تلك الغزوة السابقة أن يفتحوا مصر السفلى وغمر أتيّهم أرضها جميعاً ، ولكنه ارتد عاجزاً عند أسوار الإسكندرية[2] . وقد قامت هذه الأسوار نفسها منذ ثمان حجج ماثلة بين يدي جيوش (بونوسوس) فارتدت عنها تلك الكتائب المستمية وهي خاسئة كأنما هي أمواج البحر ترتطم بصخور الساحل . وقد أراد الله أن تقوم تلك الأسوار مرة أخرى بعد ربع قرن وهي راسية قوية تحاد جيوش العرب حتى استطالت بها مدّة الحصار . فمن الواضح على ذلك أن تلك الأسوار كانت في الوقت الذي نصفه هنا لا تزال على عهدها خطاً عظيماً من الحصون والآطام ذات بأس ومنعة . ولو أتيح لها جند عاهدوا أنفسهم على الدفاع يداً واحدة لكان في استطاعتها أن تثبت حتى يكل المحاصرون وتنفد قوّتهم ولاستطاع جندها عند ذلك أن يسحقوهم وقد أنهكت قواهم ، أو أن يرغموهم على رفع الحصار وترك المدينة ، ولا سيما وقد كان البحر من ورائها تأتي منه الأمداد تترى إليها ، إذ كان الروم لا يزالون سادة البحر إلى ذلك الحين .

= دخل الفرس إلى مصر وامتد ملكهم إلى نقيوس وبابليون في مدة احتلالهم لمصر »*(١٢) وهو يصف « الضجة والإضطراب من غزوة الفرس »*(١٣) في الإسكندرية إذ هو عائد إلى بلاده وقد اقتبس جلزر ذلك في كتابه « Leontios Von Neapolis » صفحة ١٥٢ .

(١) انظر الديوان الشامي (نشرة جويدي وترجمة ت . نولدكه) . وقد اقتبس منه جلزر .

(٢) حوالي سنة ٥٠٠ للميلاد في أيام الإمبراطور (أنستاسيوس) إذ أحرق الفرس ضواحي الإسكندرية ولكنهم لم يستطيعوا شيئاً فوق هذا .

ولكن أنى لها ذلك وقد بعد عهدها بإجتماع الشمل وتوحيد الكلمة وصار أهلهـا أخلاطـاً مضطربـة من قبط وروم وسوريين ويهـود ، وجماعـة من طلاب العلم ، وآخـرين من اللاجئين أتـوا إليها من كـل أنحاء الـدولة . فكـان القبط والسوريون يكرهون الروم وكان اليهود يمقتون أتبـاع المسيح مقتـاً لا يسله من قلوبهم الخـطر الداهم عليهم جميعـاً ، وكانـوا جميعاً لا يـدركون أن الـواجب عليهم أن يجتمعوا من كل جنس أو طبقة أو مذهب يربطهم رباط الإشتراك في الوطن وهو الوسيلة لا وسيلة غيرها إلى ضم شملهم . ما كـانوا ليـدركوا معنى لهذا بل كانوا يسخرون منه ، فلم يكن عجيباً مع هذا أن نرى الخيانة تعمل على وقوع المدينة في يد أعدائها .

وكان الفرس في أثناء مدة الحصار يوقعون بما حول المدينة من الريف ولا سيما بما فيه من الأديرة ، يشفون بذلك ما في نفوسهم من الغيظ لفشلهم . وقد جاء في الأخبار أنه كان بأرباض الإسكندرية نحـو ستمائـة من الأديرة لهـا آطام على شكل أبراج الحمـام[1] ، وكان الـرهبان آمنين وراء هـذه الحصون واثقين

(١) كتاب (ساويرس الأشمونيني) عن نسخـة خطيـة في المتحف البريطاني صفحة ١٠٠ ونسخـة في باريس صفحـة ٨٧ وتوجـد أمثال هـذه الآطام في أديـرة وادي النطرون إلى الآن ، ولقد كان بجوار الإسكندرية عدد عظيم من الأديرة وذلك لا شك فيه ، وقد جاء في ورقة قبطية قديمة ترجمهـا (أميلينو) في كتـابه (Hist. des mon. de la Basse Eg.) صفحـة ٣٤ أن (مقـاريـوس) يقـول إنـه قضى ثـلاث سنـوات في الأديـرة التي حـول الإسكندرية بين قوم عظام امتلأت قلوبهم بجميع الفضائل يبلغ عددهم الألفين . وكان هذا في القرن الرابع وقد زاد عددهم زيادة عظمى في القرن السابع ، ونجد في سنة ٤٨٥ مثلاً في كتاب (ديوان زكريا المتليني) أنه بعد إعلان الإمبراطور (زينـو) لأمره اجتمـع ٣٠,٠٠٠ راهـب وعشـرة مطارنـة في كنيسـة (الشهيـد القديس أوفيميـا) خـارج أسـوار الإسكندرية وهناك عولوا على ألا يدخلوا المـدينة خـوفاً من اضـطراب أهلها ، فـأوفدوا المـطران (تيودور) في سبعـة من المـطارنـة و ٢٠٠ (أرشمنـدريت) ليمثلوا بين يـدي البطريق بطرس في الكنيسة الكبرى ويخاطبوه فيما يريدون . وهذا الخبر يدل على أن ما جاء في كتاب (ساويرس) له أساس كبير من الحقيقة .

بمناعتها ، فلم يلتفتوا إلى إتخاذ الحيطة وإعداد الأمر لسلامتهم بل دفعهم الإطمئنان إلى الجرأة على محادة عدوهم جهراً . ولكن جاءت إليهم كتيبة من الغرب[1] حيث كان معسكر الفرس وأحاطت بأسوارهم ، وما أسرع أن دكت حصونها الضعيفة الساذجة . ثم قتل الفرس من فيها من الرجال لم يكد يفلت منهم أحد إلا النزر اليسير ممن دخلوا الجحور والثنايا ، ونهب ما في الأديرة جميعه من مال ومتاع ، وهدمت الكنائس والأبنية أو أحرقت وأصبحت خاوية على عروشها ، وظلت كذلك أطلاله ماثلة إلى زمن طويل بعد فتح العرب مصر .

ولكن ذلك العدو أخذ فيما أخذ من الغنائم الثمينة كنوزاً علمية كانت تملأ مكاتب الأديرة . ولسنا نعلم علم اليقين ماذا كان من أمرها ، ولكن لا شك في أن كل تلك المكاتب لم تهلك ، بل بقي بعضها . وأكبر ما حدث أن الدير الكبير دير (الهانطون) لم يصل إليه أذى لبعده عن الإسكندرية ، وأغلب الظن أن ما كان فيه من الكتب والمنسوخات لم يمسه سوء . ويدلنا على أن الدير نجا من الخراب أن البطريق (سيمون) سنة ٦٩٤ للميلاد نشأ منه ثم دفن فيه[2] وكان سيمون هذا سوري المولد معروفاً بضلاعته من علم الفقه المسيحي . ومن هذا نرى أن ذلك الدير بقي على صلته بسوريا وأنه احتفظ بما عرف عنه من شهرة بالعلم ويتردد ذكره في صفحات التاريخ بعد هذه الأيام . وكذلك أفلت من الدمار دير آخر وهو دير (قبريوس) وهو إلى الشمال الشرقي من الإسكندرية على ساحل البحر[3] . ومن هذا نرى أن تخريب الفرس حول المدينة العظمى

---

(١) قد أخذت هذا من (ساويرس) وإن قوله يفيد أحد أمرين إما أن معظم الأديرة كانت إلى الجهة الشرقية من المدينة وهذا لا يتفق مع ما نجده في الكتب الأخرى ، وإما أن جيوش الفرس قد أحاطت بالإسكندرية وهاجمتها من الغرب أو الجنوب الغربي .

(٢) راجع كتاب (فون جوتشمت) (Kleine Schriften) الجزء الثاني صفحة ٥٠١ والدير الذي يسميه (ساويرس) دير الزجاج هو دير (الهانطون) عينه وقد بينا هذا .

(٣) يقول (ساويرس) صراحة في أول ترجمة حياة (بنيامين) إن هذا الدير نجا من تخريب الفرس ويقول (تيوناس) رئيس ذلك الدير في أثناء القصة إنه قد مضى عليه عند ذلك =

كان في حدود ضيقة الرقعة لم يتعدها ، وهو أمر غريب سببه أن الفرس كانوا أثناء الحصار بين أمرين : إما أنهم كانوا في شغل من حصارهم ، وإما أنهم كانوا أقصر همة من أن يبعثوا البعوث بضعة أميال في الصحاري الرملية ليضيقوا على تلك البيوت المنعزلة ومن فيها من الرهبان ، ولا بد أن الأديرة التي دمروها ونهبوها ـ وكانت عدتها كبيرة ـ كانت كلها على مرأى من معسكرهم أو تكاد تكون على مرأى منه .

ولا بد لنا هنا أن نخالف (ساويرس) في رواية رواها عن فتح الإسكندرية ، فقد روى أنه عندما أتت أنباء هدم الأديرة وقتل رهبانها إلى الإسكندرية إستولى الرعب على أهلها ففتحوا أبواب المدينة . وكان (سلار) الفرس أي قائدهم قد رأى فيما يرى النائم أن عظيماً ظهر له ووعده أن يسلم المدينة إلى الفرس ثم تقدم إليه أن يأخذ أهل المدينة بشدة لا لين فيها وألا يغادر من أهلها أحداً ينجو من النكال ، وذلك لأنهم كانوا جميعاً من أهل الكفر والنفاق . فأمر (السلار) أو هو (شاهين) أن يخرج كل من في المدينة من الرجال ذوي القوة ممن كانوا بين الثامنة عشرة من العمر والخمسين ، مظهراً أنه قد أعد لكل منهم قطعتين من الذهب ، فلما خرجوا إليه جميعاً في صعيد واحد أمر بأسمائهم أن تكتب ثم أمر جنده أن يفتكوا بهم ويقتلوهم وكانوا نحو ثمانين ألفاً .

هذه روايته ولا يصدقها عقل . ولندع ما جاء فيها من ذكر الرؤيا وما فيها من تحريض للفرس على جماعة مخالفة من المسيحيين، وإن كنا نستطيع من سياق

= (في عام ٦٢٢) خمسون عاماً في الدير ، وذلك الرجل هو خلاف (تيوناس) وكيل (الهانطون) الذي كتب إليه (صفرونيوس) حوالي سنة ٦٠٥ قصيدة لا تزال باقية . انظر كتاب ميني « Pat. Gr, » الجزء ٨٧ . وجاء في النسخة الخطية التي بالقاهرة من كتاب (ساويرس) أن اسم هذا الدير (قبريوس) في حين أن النسخة الخطية التي في لندن تسميه (قيرنوس) ولا نظن تلك التسمية الأخيرة صحيحة .

القصة أن نرى ميل الكاتب (ساويرس) لمذهب المونوفيسيين وما كان يختلج في قلبه من السرور إذ يفكر في مذبحة تحل بأهل المدينة العظمى وهم من أتباع المذهب الملكاني . ولكن من ناحية أخرى كان الرهبان الذين هلكوا من (المونوفيسيين) وهم القبط . ولذلك كان كل ما كتبه (ساويرس) تظهر منه كراهة شديدة للفرس ومقت لهم . فهذه القصة على ذلك لا يمكن أن نتوسع في دلالتها فنقول إنها تدل على إتفاق أياً كان نوعه بين القبط والفرس . وعلى أي حال فإن الفرس وإن كانوا قساة كانت شريعة الحرب عندهم لا تبيح لهم أن يقتلوا أهل مدينة سلمت إليهم بغير قتال[1] . ولا شك أنه من المضحك ما جاء في تلك القصة من ذكر الوعد الذي وعده القائد بإعطاء المال ، وكذلك كتابة أسماء ثمانين ألفاً من الأسماء تمهيداً للقتل . هذا إذا سلمنا أن أبواب المدينة كان من الممكن أن تفتح بغير عهد يستأمن للناس على حياتهم . إذن فلندع (ساويرس) وروايته ولنرجع إلى الديوان (السوري) ففيه رواية أخرى لفتح المدينة أقرب لأن يسيغها العقل .

نعلم أن الترعة التي كانت تأتي بالماء العذب إلى الإسكندرية وتحمل إليها الأقوات كانت تسير في إلتواء بإزاء السور الجنوبي ، ثم تذهب فجأة إلى الشمال فتدخل إلى المدينة وتشقها حتى تصل إلى البحر ، وكان على كل من منفذيها باب قوى الحصون عليه آلات شديدة من آلات الحرب . فإذا وقع للمدينة حصار قل نقل الأشياء على الترعة إلى ما وراء المدينة أو إمتنع ، وذلك لأنها تكون عندئذ تحت سلطان العدوّ ، أو على الأقل ما كان منها بعيداً عن مرمى المجانيق التي مع المدافعين في الحصون . ولو اتفق وجود شيء في الترعة عند ذلك من السفن التي تحمل الغلال أو سوى ذلك من الزوارق لاستولى عليه المحاصرون . ولكن الباب الذي كان يلي البحر كان مفتوحاً أبداً لكي تدخل منه السفن الآتية بتجارتها من البحر ، ولتدخل منه زوارق صيد السمك الكثيرة التي تأتي كل يوم إلى أسواق المدينة بما تحمل ، وكان ذلك

---

(١) هذا واضح كل الوضوح من تاريخ (سبيوس) .

الباب على طرف المرفأ وفيه سفن الحرب الرومانية لا يدافعها مدافع ، ولهذا كانت حراسته من غير شك مهملة بعض الإهمال .

فوجد الخائن في هذا الباب فرصته ، إذ تسلل خفية إلى ما وراء الأسوار وذهب إلى فسطاط قائد الفرس فأفضى إليه بخطة يستطيع بها أن يفتح المدينة . فاستحسن القائد رأيه وأتبعه ، فجاء الفرس بعدّة من سفن الصيد وجعلوا فيها الجند في لباس صيادي السمك ، وخرجت بهم السفن في ظلام الليل إلى البحر . فلما كان وقت السحر جاءت تلك السفن الصغيرة حتى صارت عند الباب الشمالي ، ونطق من فيها بشعار القوم فلم يعترض أحد سبيلهم ، ودخلت السفن حتى بلغت القنطرة التي فوق الترعة ، وهي التي يتصل بها الطريق الأعظم في المدينة ، وعند ذلك أخذ القوم سيوفهم وكان الظلام لا يزال سادلاً ستره ، ثم نزلوا إلى البر وساروا في الطريق الأعظم إلى الغرب بغير أن يحدثوا ضجة حتى بلغوا (باب القمر) ، ولم يفطن إليهم أحد بفضل تنكرهم . فلما أن صاروا هناك هبطوا على الحراس فجأة فأخذوهم على غرة وقتلوهم ، وكان كل ذلك في وقت قصير ، فاستطاعوا أن يفتحوا الأبواب الضخمة قبل أن ينذر القوم بهم ، فلما طلع النهار مشرقاً على قصور الإسكندرية ومعابدها كانت جموع (شاهين) تتدفق إليها رافعة ألوية النصر هاتفة باسم كسرى من رءوس الأسوار .

وجاء في (الديوان السورى) بعد ذلك أن من استطاع النجاة من الناس هرب ، وأن خزائن الكنيسة وأموال عظماء الدولة ، كانوا قد جعلوها في السفن حرصاً عليها ، وحذراً من أجلها ، قد هبت ريح عاصفة دفعت السفن بها إلى الساحل على مقربة من عسكر الفرس ، أي إلى غرب المدينة[1] ، فأخذ الفرس

---

(١) وكانت تسمى على ذلك (كنز الريح) ولكن هذه القصة قد جاءت في كتاب للمؤرخ العربي (ابن قتيبة) (القرن التاسع) عن السفينة التي أودع فيها هرقل آنيته الثمينة وجواهره عندما عزم على ترك القسطنطينية والهجرة إلى قرطاجنة ، فقال إن تلك السفينة ساقتها الرياح إلى الإسكندرية فوقعت في يد الفرس (كتاب المعارف نشره فوستنفلد صفحة ٣٢٩) .

ما بالسفن من الذهب والفضة والجوهر وأرسلوه مع مفاتيح المدينة إلى كسرى . ومن العجيب ألا يرد بالديوان السوري ذكر للمقتلة العظيمة التي ذكرها (ساويرس) . ولكن من أبعد الأشياء أن يكون هذا المؤرّخ المصري مخطئاً كل الخطأ وهو الذي كان يقيم في مصر ويعرف أخبارها . وإن مقتلة كهذه التي يذكرها المؤرخ المصري تتفق كل الإتفاق مع ما اعتاده الفرس في حربهم إذا ما فتحت مدينة عنوة ، لم تسلم عن رضا ولم يستأمن لأهلها بعهد ولا عقد .

على أنه من الظاهر أن المدينة كانت تتوقع أن ينزل بها ما نزل إذ أنذرها به منذر ، ألا وهو اليأس . فقد أخذ من جندها عدد كبير ليدافع عن بلاد أخرى من الدولة أو ليدافع عن بيزنطة ذاتها ، إذ كان الفرس يفتحون أرضاً بعد أرض من بلاد الدولة « ويطأونها كما يطأ الثوار أرض البيدر »[1] فكان هذا سبباً في إضعاف المدافعين عنها إضعافاً جعل المدينة في خطر داهم ، وفوق ذلك كان القمح لا يصل إليها من ريف مصر . حقاً إن أهل الإسكندرية كانوا يطعمون جزءاً صغيراً من القمح الوارد إليها ، ولكن تجارة القمح العظيمة كانت تصدر عن الإسكندرية إلى كل جوانب البحر الأبيض المتوسط ، فكانت التجارة كلها تتدفق إلى خارج المدينة ، فلما انقطع المورد لم يكن من الممكن أن تنقلب الحال ويصبح وارداً ما كان بالأمس صادراً . فلما استطال الزمن على ذلك الحال وقل ما كان في الخزائن بغير أن يأتي مدد من (هرقل) ، كان لا بدّ أن تشتدّ الحاجة بالناس ويوقنوا أنهم لا بد أن يسلموا عندما يفتك بهم الجوع . إذا عرفنا هذا لم يكن بعد عجيباً أن يهرب (نيقتاس) حاكم القطر وهو من نعرف فيه الشجاعة في الحرب والقوّة في العمل والولاء والإخلاص لدولته . وقد هرب (نيقتاس) في سفينة إلى القسطنطينية يصحبه (حنا الرحوم) ، وذلك « عندما كانت الإسكندرية على وشك التسليم للكفرة الفارسيين »[2] فبلغت السفينة بهما إلى (رودس) ثم مرض البطريق ، ولما أحس بدنوّ أجله سافر إلى قبرص فنزل

---

(١) هذه كلمات (ساويرس) .

(٢) هذه هي الكلمات ذات المعنى التي قالها (ليونتيوس)*(١٤) .

بها ثم مات بعد قليل في الموضع الذي ولد فيه وهو (أماتوس) وذلك في ١١ نوفمبر سنة ٦١٧[١] .

إذن لابد لنا أن نقر أن أهل الإسكندرية كانوا قد ضاع أملهم في النجاة ، وكل ما فعله بطرس طالب العلم الغريب الذي دل على عورتهم هو أنه أسرع بهم إلى القضاء المحتوم الذي كان لا بد نازلاً بمدينتهم ، وأغلب الظن أن ذلك القضاء لم يتقدم إلا زمناً قصيراً . ولسنا نعرف عن ذلك الخائن إلا أنه أتى من إقليم البحرين الواقع في الشمال الشرقي من بلاد العرب ، ولسنا نستطيع الوثوق من دينه أكان مسيحياً أم يهودياً أم وثنياً ، ولسنا ندري أكان له باعث على خيانته لتلك المدينة العظيمة ، التي كانت مقر العلم وآوته إلى أحضانها ، سوى خوفه الدنيء على حياته وسعيه لتخليصها مهما بذل في سبيل ذلك . ولكنا نعرف أن البحرين كانت تحت حكم فارس ، وأن أهلها كانوا كما وصفهم العارفون خليطاً أكثره من الفرس واليهود[٢] ، وبقيت كذلك إلى ما بعد العصر الذي نصفه الآن . وعلى هذا فإنه من الممكن أن ذلك الطالب قد ذهب إلى خيانته متستراً بستار الإخلاص لدولته . وقد جاء في القصة أن بطرس هذا قرأ يوماً في ديوان سجلات المدينة كتاباً جاء في آخره « إذا ما عصفت الحوادث بالإسكندرية من

---

(١) أنظر كتاب (لبو) « .Hist. du Bas Emp » (الجزء التاسع صفحة ٥٣) ولكن يجب أن نلاحظ أن قصة حنا جعلت في هذا الكتاب بعد فتح الفرس لمصر وعلى ذلك فتاريخها خطأ ، ويظهر أن القبط قد جعلوا (حنا الرحوم) فيما بعد شهيداً كما جعلوه قديساً وهذا رأي (بريدنباخ) وقد زار مصر في القرن الخامس عشر وجيء به إلى موضع في الإسكندرية قيل له إنه موضع استشهاده . انظر كتابه (Descriptio, Terrae Sanctae) صفحة ١٢٢ (الجزء ١٤٨٦)، ولا شك أن منشأ هذه القصة وهم وقع فيه الناس ، فإن حنا مات في ١٢ نوفمبر وهو تاريخ ذكرى موته في الكنيسة الشرقية في حين أن ١١ نوفمبر يوم ذكرى وفاة (ميناس) انظر كتاب جو تشميت (Kleine Schrifte) الجزء الثاني . وتوجد ترجمة قصيدة للبطريق كتبها القس (هـ . ت . ف . دكورث) واسمها (حنا المحسن) (طبعة بلاكول في أكسفورد سنة ١٩٠١) ويقول : إن جسد حنا الآن في الكنيسة الكبرى في برسبرج .

(٢) أنظر كتاب (دي غويه) (Memoires des Carmathes du Bahrain) (صفحة ٧) .

الباب الغربي الذي من قبل البحر فقد آن أوان سقوطها » ولا شك أن هذه النبوءة قد وضعت بعد هذا الحادث ، ولو أنها تصدق على فتح (نيقتاس) للمدينة في سنة ٦٠٩ ، ولكنها على أي حال لا تكشف لنا عن الباعث الذي دفع الخائن إلى عمله ولا عن ديانته ، بل الذي يمكن أن نعرفه منها هو أن بطرس كان يعرف أنه كان ينفذ قضاء محتوماً على المدينة عندما ذهب إلى الفرس وبايعهم على أن يدلهم على عورتها .

ولعل مفاتيح الإسكندرية قد بعثت إلى كسرى في أول سنة ٦١٨ . أما أهلها فقد قتل منهم كثيرون عند أول فتح المدينة ، ولكن الفرس أبقوا على عدد كبير منهم أخذ بعضهم سبياً وأرسل إلى بلاد الفرس[1] ، وبقي البعض الآخر لم يمسه سوء . وكان بين الذين نجوا بغير أذى البطريق (أندرونيكوس) وقد لقي من الرفق على ما يلوح ، مثل ما لقي (مودستوس) في بيت المقدس ، وكان ذلك عن أمر ملك الفرس نفسه . ولكن أثر المصائب التي شهدها تحل بقومه والخراب الذي نزل بهم في جميع أنحاء أرض مصر لم يزل في قلبه يملؤه حزناً وأسى حتى قضى على حياته[2] .

قد رأينا أنه قد أبيح للبطريق أندرونيكوس أن يبقى في الإسكندرية مدة ولايته للدين ، وذلك لأنه كانت له عترة ذات بأس ، وكان ابن عمه كبير (مجلس الإسكندرية) عندما وُلِّيَ الأمر . وهذا الخبر كبير الدلالة إذ نعلم منه أن بعض القبط كانوا يبلغون المراتب العالية في الدولة حتى في أيام هرقل ، ونعلم منه أيضاً أن الفرس عندما استقر بهم الأمر في البلاد بعد الفتح استخدموا كبار رجال الدولة السابقة التي أزالوها وحلوا محلها ، وسنرى بعد حين أن

---

(١) يذكر أسرى الإسكندرية خاصة فيمن أطلق سراحه بعد فتح هرقل مدينة دستجرد .

(٢) ترجمة حياة (أندرونيكوس) التي كتبها (ساويرس الأشمونيني) ما هي إلاّ ذكر للمصائب التي أنزلها الفرس عن فتحهم وقد ختمها بقوله : « فقضى البطريق (أندرونيكوس) ست سنوات في ولايته البطرقة لاقى فيها ما لاقى من فظاعة الفرس وشهد فيها هذه الأمور الشنيعة وقاساها بنفسه وتحملها ثم ذهب إلى مقره بعد ذلك » .

العرب ساروا على السنة ذاتها غير حائدين عنها شيئاً . وليس في الإستطاعة من سبيل غير ذلك كلما غزا جيش أجنبي بلاداً لها مدنية تسبق مدنيته ، ويرى واجباً عليه أن يدبر أمورها وهي منظمة تنظيماً حسناً في أوضاع جليلة ذات شعب وفروع . ولا نزاع في أن القبط قد اشتركوا في هذا الأمر وما كان لهم أن يرفضوا ذلك الإشتراك ، إذا أن الرفض حمق لا مبرر له . ولكن ذلك الإشتراك شيء وما يعزوه إليهم الكتاب المحدثون عادة شيء آخر ، فإنهم يعزون إليهم أنهم رحبوا بالفرس ورأوا فيهم رسل الخلاص[1] ، فإن هذه التهمة لا مبرر لها وهي فوق ذلك قلب للحقيقة ومسخ لها .

يجب أن نذكر أن الفرس جاءوا إلى مصر وأيديهم لا تزال ملطخة بما اقترفوه من النهب والقتل زمناً طويلاً ، وكان أكثر ضحاياهم من المسيحيين الذين

---

(١) يظهر أن هذه العبارة مأخوذة من كتاب (شارب) إذ يقول . « مما لا شك فيه أن الجنود التي فتح بها كسرى مصر وملكها بهم كان بعضهم من أهل الشام وبعضهم من العرب وكان هؤلاء يمتون إلى الفلاح المصري بصلات الدم والود ، وهذا هو السبب في ميل البلاد كلها إلى التسليم بعد هزيمة الروم ، ولكن هذا السبب عينه هو الذي أضعف الفرس وسبب لهم خسارة ما فتحوه سريعاً وذلك عندما تمرَّد عليهم العرب» «History of Eg.» الفصل ٢١ صفحة ٣٧) وقد اتبع المستر (ملن) كتاب شارب فذهب إلى تأكيد الأمرين مع فارق واحد فقال : « فملك حكام مصر الجديدون تلك البلاد بغير منازع ، ولا غرابة في ذلك ، إذ كان جيش الفرس مستمداً من الشام وبلاد العرب فلم يلقوا مشقة في حكم مصر ، ولعل الأغنياء في مصر كان بينهم كثير من العرب فرحبوا بأقربائهم في حين أن أسوأ ما حل بالفلاحين هو سادتهم . فلما ثار العرب عندما دعاهم محمد إلى دينه فقد الفرس أكبر عدة لهم في الجيش وسنحت للروم فرصة استرجاع مصر » « Eg. under Rom. Rule » صفحة ١١٤) فالعبارتان (١) أن أهل مصر رحبوا بالفرس و (٢) أن فتح هرقل لمصر كان سببه خذلان العرب للفرس بدخولهم في الإسلام لا مبرر لهما في نظرنا . فالعبارة الأولى وهم لا حقيقة له والثانية لا يفصلها عن الوهم إلا شيء قليل . وإنه لمما يؤسف له أن يأخذ (ملن) في كتابه القيم بعبارات شارب الغامضة المجملة ، وقد فعلت مسز بوتشر مثل ذلك في كتابها (Story of The Church of Eg.) الجزء الأول صفحة ٣٤٧ .

اتحدوا مع القبط ، وبعيد أن يعطف الفرس في مصر على مثل من قتلوا في الشام ، في حين أن دفاع الإسكندرية ومقاومتها لهم ذلك الزمن الطويل لا بد أن يكون قد أثار حقدهم ولا سيما وقد كان فيها أولئك اللاجئون الذين أتوا إليها من بيت المقدس . فلا شك إذن أن المقتلة كانت لا تمييز فيها لأحد على آخر . غير أن المقريزي[١] يقول إن اليهود اتفقوا مع الفرس كما فعلوا من قبل في فلسطين ، وقد جاء في كتابه أن كسرى وجنوده جاءوا إلى مصر فقتلوا طائفة كبيرة من المسيحيين وأسروا عدداً عظيماً منهم وساعدهم اليهود على إهلاك المسيحيين وتخريب كنائسهم[٢] . ونص هذه الرواية مثل سائر النصوص مضطرب بعض الإضطراب، ولما كانت لا تفرق بين حرب الشام وحرب مصر كان لنا أن نقول إن المقصود منها مساعدة اليهود في بيت المقدس وحدها ، على أنه قد كان في مصر عدد كبير من اليهود . وكان لهم حي في الإسكندرية ، ومن الجائز أن يكون اليهود قد انتهزوا في مصر فرصة جديدة ليساعدوا أعداء الصليب . ولكنا نستبعد أن يكون القبط قد أظهروا شيئاً من المودّة للكفار الذين كانت أيديهم ملطخة بدماء إخوانهم في الدين في (أنطاكية) و (بيت المقدس) ، ولعل بطرس البحريني كان يهودياً ولعله كان أداة خطة مكر بها اليهود للكيد لأعدائهم . فإذا كان الأمر كذلك كان عمله في الخيانة أقل دناءة وخسة وكان من السهل على الأفهام إدراكه .

---

(١) لعل المؤلف يشير إلى ما جاء في كتاب الخطط للمقريزي صفحة ٣٩٢ من الجزء الرابع . طبعة المليجي بالقاهرة وهي :

« وفي أيام فوقا (يقصد فوكاس) ملك الروم بعث كسرى ملك فارس جيوشه إلى بلاد الشام ومصر فخربوا كنائس القدس وفلسطين وعامة بلاد الشام وقتلوا النصارى بأجمعهم وأتوا إلى مصر في طلبهم فقتلوا منهم أمة كبيرة وسبوا منهم سبياً لا يدخل تحت حصر وساعدهم اليهود في محاربة النصارى وتخريب كنائسهم وأقبلوا نحو الفرس من طبرية وجبل الجليل إلخ » ولا يخفى أن قول المقريزي يشير إلى ما فعله اليهود بالشام أكثر من إشارته إلى فعلهم بمصر . (المعرب) .

(٢) ترجمة ملان صفحة ٦٨ .

ولكننا لسنا في حاجة إلى القياس والتخمين لكي نظهر براءة القبط مما عزي إليهم ، فإنه لا شك في أن أكثر من هلك من الرهبان فيما حول الإسكندرية كانوا من القبط . ولو لم يكن لدينا من الأدلة إلا هذه الحقيقة لكانت كافية لدحض إفتراء المفترين على القبط بأنهم رحبوا بالفرس . ولكن ليست هذه الحقيقة كل ما لدينا ، فإنا نعلم أنه بعد فتح الإسكندرية سار قائد جيوش كسرى بجنده صعداً إلى الجنوب بحذاء النيل لكي يفتح الصعيد ، وكانت معاملته للقبط واحدة في كل مكان واحدة : يحل الموت والخراب حيث حل . ويقول ساويرس إنه لما بلغ مدينة (بشاتى) وهي (نقيوس)[1] وشي إليه عدوّ من أعداء القبط بالرهبان الذين كانوا يعيشون في مغاور الجبال قائلاً إن عندهم مالاً كثيراً وإنهم أهل فساد وظلم ، ثم قال له إن كثيرين منهم كانوا مجتمعين عند ذلك في الحصن[2] . فأثرت فيه هذه الوشاية فحاصر المكان في الليل بجنوده ولما أصبح الصباح اقتحموه وأوقعوا بمن فيه من المسيحيين فقتلوهم ولم ينج منهم أحد .

ولا شك أن الرهبان الذين قتلوا في ذلك المكان أيضاً كانوا من القبط . وقد حدث في الصعيد مثل ما حدث في (نقيوس) . ولدينا في هذا الموضع رواية رواها من هو أصدق من (ساويرس) وأقرب منه عهداً بتلك الحوادث ، وتكاد كتابته تكون في نفس ذلك العهد الذي يقص علينا نبأه . فقد كان بمدينة

---

(١) أنظر كتاب (كاترمير) « Mem. Geog. et Hist. » (الجزء الأول صفحة ٧٢٠ وما بعدها) وهو يبرهن على أن (نقيوس) هي بعينها (بشاتي) والظاهر أنه لا يعلم بهذه النبذة من كتاب (ساويرس) وهي التي يقول فيها صراحة : « ومدينة (نقيوس) وهي التي تسمى أيضاً (أبشادي) .» وهو يستعمل ذلك الاسم على صورته العربية ولكن كلمة (كاترمير) جديرة بأن تقرأ . وقد بينا أن موضع (نقيوس) عند قرية (شبشير) في الوقت الحالي وليس عند (أبشادي) فإنها ليس بها آثار قديمة .

(٢) كان الحصن بلا شك يشبه حصن (بابليون) في أنه كان يشتمل على كنائس عدة ، فقد كانت المدينة مقر (أبرشية) كبرى ، وكان الإجتماع الذي ذكره (ساويرس) عبارة عن مجمع من أجل أعمال تخص الكنيسة أو من أجل عيد عظيم .

قفط بالصعيد في وقت غزو الفرس مصر مطران لتلك الأبرشية اسمه (بيزنتيوس) ومن حسن الحظ قد بقيت ترجمة حياته وترجمها عن القبطية (المسيو اميلينو)[1] . وهذه القصة فيها عدّة أمور تسترعي النظر ، ولهذا لا حاجة بنا إلى الاعتذار عن إيرادها هنا مع شيء من التفصيل .

معلوم أنه كان من المعتاد في كل عام أن ينشر بطريق الإسكندرية كتاباً على الناس يبين فيه يوم عيد الفصح . وأن في المتحف البريطاني قطعة من أحد هذه الكتب وهو حسن الخط مكتوب بحروف مستديرة ومؤرخ حوالي سنة ٥٧٧ . ويكثر وجود أمثال هذا الكتاب أو قطع منها . ونجد في ترجمة (بيزنتيوس) أنه في عهد غزو الفرس أو قريباً من ذلك جاء كتاب البطريق المعتاد ، فكتب (بيزنتيوس) موعظة بعث بها إلى أبرشيته كلها وقال فيها « لقد خذلنا الله لما نقترفه من الذنوب ، وسلط علينا من الأمم من لا يرحمنا »[2] . وكان قد بلغه نبأ عبدة النار ونزولهم بالديار ، وأزعجه ما سمع من قسوتهم . ولم يكن يريد البقاء حيث هو ليكون شهيداً فآثر الهرب ، فلما أعد عدّته لذلك وتصدّق على الفقراء بما يملك ، ذهب إلى جبل (جيمي) بقرب المدينة وكان معه تلميذه المخلص حنا . وكان هذا قبل أن يطلع العدوّ على الصعيد ، فلم يكن هروبه في لحظة فزع تملكه على غرة ، بل كان تدبير رجل عالم بأنه إن بقي مكانه لم يكن نصيبه سوى الموت . ولم تخامره فكرة الخضوع للفرس والإحتماء بهم ، ولم يخطر بباله أن يخطب ودهم ، فعمله هذا لا يتفق في شيء مع قول من قال إن القبط رحبوا بالفرس .

ولما هرب (بيزنتيوس) وتلميذه حنا إلى الجبل أخذا معهما مقداراً كبيراً من الخبز وماء النيل ، ولما نفذ منهما الماء لقيا مشقة عظيمة لأنهما لم يجرآ على الإقتراب من النيل حتى ذهب (بيزنتيوس) تحت جنح الليل وهو حذر يترقب

---

(١) أنظر كتاب (Etude sur le Christianisme en Eg. Septième Siècle) (طبعة باريس سنة ١٨٨٧) وهذا اسمه كذلك (Vie d'un Evèque de Keft au Septième Siècle) .

(٢) كتاب أميلينو (السابق الذكر) (صفحة ٣) .

وجاء بالماء . وما زالا في ذلك المخبأ زمناً طويـلاً يصليان إلى الله نهـاراً وليلاً ويدعوانه أن ينجي قومهما من أسر تلك الأمم الظالمـة ، ويفك عنهم غلهـا ، وكان كل ذلك قبل أن يأخذ الفرس مدينـة (قفط) فلما أدركـوها وصـارت في يدهم هرب (بيزنتيوس) موغلاً في الصحراء نحو ثـلاثة أميـال أخرى ، فـوجد الرفيقان هناك باباً مفتوحاً في عرض الجبل ، فدخـلاه وكان يفضي إلى حجـرة مساحتها سبعون قدمـاً مربعـاً وكان علوهـا يناسب سعتهـا وكلها نقـر في صخر الجبل ، تدعمها ست دعائم أو أعمدة ، وكانت هـذه مدفنـاً به عـدد عظيم من الجثث المحنطة مضطجعة ضجعتها مطمئنّة في توابيتها .

فعزم (بيزنتيوس) على أن يقيم هناك وحده وأمر تلميذه حنا أن يذهب عنه على أن يغدو عليه مرة كل أسبوع بكيل من الدقيق ومقدار من الماء . فلما أزمع حنا السير وجد قطعة من الرق ملفوفة ، فنـاولها للمـطران فلما قـرأها وجـد بها أسماء من كانوا في ذلك المدفن من الموتى ..والإعتقاد الشائع أن هذه الصحيفة كانت كتابتها بلغة مصر القديمة (الهيروغليفيـة)[1] ، ومن ثم يقولـون إن تلك الكتابة كانت لا تزال معروفة إلى القرن السابع على الأقل . ولكن شيئاً من ذلك لا يأتي ذكره في الترجمة القبطية (التي نحن بصددها) . وعلى كل حال قد جاء في القصة بعد ذلك أنه لما عاد حنا إلى المغارة سمع مولاه يتكلم ، فأصغى إليه فألقاه يحدّث إحدى الجثث وقد خرجت من تابوتها ترجو منه الشفاعة ، قائلة إنها كانت هي وذووها جميعاً من اليونـانيين الذين كـانوا يعبـدون الأوثـان . وهذه القصة على ما بها من خرافة تدل على أن التحنيط كان لا يزال متبعاً إلى القرن الثاني أو الثالث كما يدل عليه ذكر أكفانها وأنهـا كانت من « الحـرير الخـالص الذي تلبسه الملوك » وكما يدل عليه تحنيط الأصابع مفردة . ولعلنا نستطيع أن نستخلص من ذلك أن الصحيفة كانت كتابتها بالحروف اليونانية[2] .

(١) عن أميلينو وسواه . والظاهر أن الدكتور (وليس بدج) يرى الرأي نفسه .

(٢) لا يسعنا أن نتخلص من فكرة عندنا وهي أن الخبر الذي جاء فيه أن (بيزنتيوس) استطاع قراءة النقوش إنما أورد برهاناً على معجزة أخرى من معجزاته . هذا إذا سلمنا بأنها كانت نقوشاً هيروغليفية .

نرجع الآن إلى قصتنا فإن الجثة بعد أن أتمت كلامها عادت إلى تابوتها ، والذي يؤسف له أنه لا يرد بعد ذلك ذكر للفرس وما فعلوه بعد أخذ (قفط) ولا كم من الزمن أقاموا في الصعيد . وقد عاد (بيزنتيوس) آخر الأمر إلى شعبه ، ولما مات دفن في الكنيسة في قرية (بسنتي) بعد أن قاموا الليل على جنازته بالصلاة المسنونة . وقد أوصى وهو على فراش موته بكل ما عنده من الكتب إلى صديقه (موسى) ، وهو الذي خلفه مطراناً على الأبرشية ، وكتب ترجمة حياته . وجلي أن كلا المطرانين كان على شيء من العلم ، ولكنهما كانا مثل سائر أمثالهما من كتاب القبط لا ينصرفان إلا إلى قصص تافهة خرافية تذكر ما كان على أيدي القديسين من الكرامات العجيبة . فلا يحلو لهم إلا ذكر المعجزات وخوارق المألوف ، ولا يذكرون حادثة حقيقية إلا عرضاً أو سهواً وإن كانت مما يرتج له العالم من حوادث وقعت تحت أنظارهم ، وهم يعلمون أنها حوادث يتوقف عليها مصير بلادهم .

على أننا نستطيع أن نستخلص أمرين من تلك القصة : الأول أن الفرس بلغوا في فتوحهم أبعد أطراف وادي النيل حتى أسوان . والثاني أن المصريين القبط لم يرحبوا بهم أو يروا فيهم الخلاص ، بل كانوا يرونهم بعين الجزع والمقت ، وحق لهم أن يفعلوا ذلك .

وكانت كتابة قصة (بيزنتيوس) في القرن السابع . وإليك صحيفة أخرى في المعنى ذاته تاريخها بعد تاريخ القصة الآنفة ولكنها في القرن نفسه ، وهي تصف ما قاساه القبط من الفرس وصفاً أدق وأكثر وضوحاً . وهذه الصحيفة هي ترجمة حياة ظهرت حديثاً[1] للولي القبطي المعروف (الأنباشنوده)[2] وقد أورد

(١) بالنسبة لوقت طبع الكتاب سنة ١٩٠٢ . (المعرب) .

(٢) كتاب (أميلينو) « Monuments pour servir à l'histoire de l'Eg. Chretienne » (طبعة باريس سنة ١٨٨٨) ، وقد أخذ النص العربي عن نسخة مخطوطة في مصر وكل تلك النسخ مأخوذة عن أصل قبطي كتب سنة ٦٨٥ أو سنة ٦٩٠ ، وقد مات (شنوده) في اليوم الثاني من يوليه سنة ٤٥١ . وقد كتبت تلك النبوءات على لسانه بعد حدوث تلك الحوادث المذكورة ولكنها كانت عند ذلك لا تزال ماثلة في الأذهان .

فيها الكاتب ذكر الغزو الفارسي وجعله في صورة نبوءة ، ولكنه كتبها ولا يزال في الأحياء جماعة من الشيوخ أدركوا الحوادث التي يذكرها ، وها هي ذي الكلمة « سيأتي الفرس إلى مصر يسفكون فيها الدماء ويسلبون أموال المصريين ويسبون أبناءهم يبيعونهم بالذهب، فإنهم قومٌ ظالمونِ معتدون. وستنزل المصائب على أيديهم بمصر ، يغصبون الكنائس ما بها من آنية مقدسة ويشربون الخمر في المحراب لا يبالون ، ويهتكون أعراض النساء على مرأى من رجالهن . وسيبلغ الشر أعظمه والشقاء قصاراه ، وسيهلك ثلث من يبقى من الناس في بؤس وعذاب وسيبقى الفرس في مصر حيناً من الدهر ثم يخرجون منها » .

ولسنا نطمع في دليل أوضح من هذا ولا أبلغ دلالة ، فهو يهدم كل ما زعم (شارب) إذ زعم أن القبط فرحوا بالفرس ، كما أنه يهدم ما ذهب إليه من أن سبب ذلك الفرح الموهوم هو صلة نسب وقرابة زعم أنها كانت بين المصريين وجنود الفرس . وإليك ما قاله (ساويرس) مجملاً وصفه لقائد الفرس ، قال : « قد اقترف ذلك (السلار) كثيراً من الظلم والقسوة لأنه كان لا يعرف الله وإن الوقت ليضيق عن ذكر كل ما ارتكبه » . وقد ظل التاريخ صامتاً لا يذكر شيئاً عن غزو الفرس لمصر حتى عرفت كلمة (ساويرس) الأخيرة التي اقتبسناها ، ثم ظهرت بعد ذلك الصحيفتان اللتان تخلفتا عن ذلك العصر نفسه أو قريباً منه ، وعند ذلك تجلت الحقيقة . غير أن صمت التاريخ إتخذ أساساً بنيت عليه قصة قوامها الظن والحدس ، فيها حط من شأن القبط لا مبرر له . فلنشهد الآن انهيار ذلك البناء .

بقي الفرس سادة البلاد عشر سنين أو اثنتي عشرة سنة ، ولعلهم قضوا ثلاث سنوات[1] يمهدون لسلطانهم في طول البلاد وعرضها في مصر

---

(١) أنظر كتاب أبي الفرج نشرة (بوكوك) ص ٩٩ وقد ذكر لفظ « ثلاث سنوات » وإن عظم المسافات التي كان على الجيش الفاتح أن يقطعها تبرر مثل هذه المدة . وتحدث عادة أخطاء لمن يقرأ كتب المؤلفين الذين يجملون ذكر الحوادث فيذكرون ما وقع منها في عدة =

و (بنطابولس) ولكن لا يرد ذكر لمقاومة عنيفة أو لقتال استطالت به المدة ، اللهم إلا عند الإسكندرية . وكان طول هذه المدة هو أكبر علة لإضطراب ترتيب الحوادث في هذه الفترة وقلة الضبط في تواريخها . وكان الفرس في أثناء القتال يظهرون قسوة عنيفة . فلما أن خبت سورتهم واستقر أمرهم صار حكمهم أبعد شيء عن أن يكون ظالماً . فلما أن أخرج جند الروم أو من بقي منهم من وادي النيل وفروا في البحر استقر القبط على شيء من الإطمئنان ، وخضعوا مرة أخرى لسيد جديد بعد زوال سلطان السيد القديم عنهم ، وقد كان هذا شأن تاريخهم السياسي من أقدم الأزمان أن تتبدل عليهم السادة وتتعاقب .

وما هو إلا أن عاد السلم حتى أمنت الكنيسة المصرية واستطاعت أن تداوي بعض ما أصابها من الجروح بعد ما عانته من السلب والتخريب ، وبعد أن كادت آثارها تمحى في بعض المواضع . على أن (أندرونيكوس) لم يقم بشيء في سبيل إعادة بناء الأديرة المخربة . وأغلب الظن أن الفرس فرضوا على الكنائس جزية تؤديها ، أو لعلهم على الأقل استصفوا ما كان للكنائس الملكانية الطريدة من أوقاف وأرزاق ، وأما الأبنية الأهلية فقد لقيت من الفرس رفقاً لم يرفقوا مثله في مكان آخر ، فقد قدمنا أنهم كانوا في الشام يمنون على المدائن والناس في أثناء الحرب كلها إذا هم سلموا إليهم أماناً . وأما إذا كانت مقاومة فقد كانت عادتهم أن ينهبوا ما فتحوه عنوة ، فيسلبوا منه كل ما استطاعوا حمله من تحف أو كنوز ، ثم كانوا فوق ذلك يهدمون البناء نفسه كي يأخذوا ما فيه من العمد البديعة والإطارات الجميلة والمرمر الثمين ويرسلوه إلى الملك الأعظم

= أشهر أو سنين في جملة واحدة وتاريخ واحد . فهنا مثلاً نرى أن فتح الفرس قد إستغرق على أغلب الظن من عام ٦١٦ إلى عام ٦١٨ أو ٦١٩ ، فبعض المؤرخين يذكر سنة ابتدائِهِ وبعضهم يذكر سنة انتهائِهِ ، فالخلاف بينهم إذن في الظاهر . ولكنه مع ذلك ضلل النقاد الذين لم ينعموا النظر أو الذين لهم تصور قاصر ، فإذا حدث خلاف في مدة بقاء الفرس في مصر أمكن تفسيره بمثل هذا التفسير فقد قيل إن الفرس أقاموا في مصر عشر سنوات ، وقيل اثنتي عشرة سنة وقد يكون القولان صحيحين .

يحلى به قصراً من قصوره . وأما مصر فقد حماها بعدها الشاسع من مثل هذا التخريب الشنيع ، لأن الروم كانوا لا يزالون سادة البحار ، وكان بمصر السفلى عدد لا حصر له من الترع لا قناطر عليها، وكان بين مصر والشام شقة واسعة من صحراء ذات رمال ، فكان حمل ما ثقل من الأشياء من قطر إلى آخر أمراً عسيراً فوق الطاقة . وكذلك نعرف أدلة تدل صراحة على أن الأبنية العامة الشامخة بالإسكندرية لم يصبها أذى من الفرس في أكثر الأحوال ، على خلاف ما حدث للأديرة التي في ظاهر أسوار المدينة . وفي الحق أن أثر هؤلاء الغزاة في البناء كان أعظم من أثرهم في التدمير في تلك العاصمة ، إذ بنوا بها قصراً عظيماً بقي معروفاً إلى زمن بعيد بعد ذلك باسم قصر الفرس[1] ، وأكبر ظننا أن أخبار تدميرهم وتخريبهم للمواضع الأخرى مبالغ فيها ، فمثلاً يقول (جبون) إنهم محوا من الوجود مدينتي (قيرين) و (برقة) في حين أن العرب وجدوا هاتين المدينتين بعد سنين من ذلك الوقت وكانتا جديرتين بفتح جديد ، بل إن هاتين المدينتين في هذا الوقت الذي نصفه لم تذهبا وتنمحيا . وإنا لا نستطيع أن نفسر قوله هذا بأنهما نزعتا إلى الأبد من الدولة الرومانية فإن ذلك لم يكن . وليس في الأخبار ما يبرر أن حظ هاتين المدينتين كان غير حظ مصر ، فإنها جميعاً دخلت في حكم كسرى وبقيت على ذلك حيناً من الدهر ، ثم قدر لها أن تعود إلى حكم هرقل قبل أن تدخل في الإسلام وتصير إلى الأبد في حكمه[2] .

---

(١) الديوان الشرقي ، ويقول (ساويرس) كذلك إن (السلار) بنى في الإسكندرية قصر اسمه (طراوس) ويسمى الآن « قلعة الفرس » ، وقد ذكر ابن العبري كذلك هذه القلعة في (كتاب تاريخ الكنائس الجزء الأول الباب ٣٦٢) ، ويظهر من قراءة ما جاء في كتابه أن موضع القلعة كان في المكان الذي ينزل فيه الناس إلى البر من سفنهم إذا أتوا من الشرق . ويقول (ساويرس) بوضوح إن القلعة كانت في الإسكندرية وإلا لذهبنا إلى أنها كانت بعيدة بعض البعد عنها . والحق أن من قرأ السيوطي وسواه يتضح له أنها لم تكن في داخل أسوار المدينة .

(٢) يبرهن مؤرخو العرب برهاناً واضحاً على أن (قيرين) و (برقة) ظلتا في يد الدولة (الرومانية) إلى مدة غزو العرب ثم نزعتا منها عند ذلك .

وإنا لا نعرف عن حكم الفرس في مصر إلا قليلاً ، غير أنا نعلم أن هؤلاء الفاتحين لم يكونوا من الصلابة في أمر دينهم بحيث يرغمون المغلوبين على عبادة النار[1] وكذلك نعلم أنه بعد أن إستقر لهم الأمر ساروا على سنة التسامح في أمور الدين . وكانت تلك سنتهم في فلسطين وبلاد العرب ، فقد رأينا أن كسرى سمح للمطران (مودستوس) أن يجمع المال ليعيد بناء كنائس بيت المقدس ، ثم أباح لبطريق القبط أن يبقى في الإسكندرية حتى موته وأن لا ينازعه منازع في رئاسة الدين . وكذلك يظهر لنا أن انتخاب خليفته (بنيامين) تمَّ في سلام واطمئنان ، وأنه قضى أول سني ولايته مستظلاً بحكم الفرس . وكانت تلك السنين هادئة مطمئنة إذا قيست بسائر مدة ولايته الطويلة المليئة بعواصف الحدثان . وكما أن طرق الإسكندرية وأبنيتها العامة بقيت على عهدها من الفخامة والشموخ لم يعتريها فساد على يد الفرس ، كذلك قد بقيت تلك (المدينة العظمى) على عهدها مقراً للعلوم لم ينطفىء نورها وإن اعتراه شيء من الضعف .

(١) جاءت في ترجمة حياة (الديراني صمويل) قصة مفردة وهي أن الهمج (وواضح أن المقصود بذلك هم الفرس) سعوا إلى أن يجبروه على عبادة الشمس فلما أبى قرن إلى جارية سوداء ولكنه داوى ابن الرجل الذي أسره فأطلق سراحه وأعيد إلى ديره ومات فيه بعد أن تنبأ بمجيء العرب (ولعله قد رآهم) وبأن المسيحيين سوف يغلبونهم (وذلك ما لم يره) (أنظر المجلة الأسيوية سنة ١٨٨٨ ص ٣٨٤ ـ ٥) ومن الواضح أن عبادة (مثرا) أدخلت إلى مصر وأقيمت بها في مدة احتلال الفرس وتدل على ذلك آثار كثيرة غير جميلة وجدت في منف وسواها من المواضع وهي الآن في متحف القاهرة . والذي يدل على أن الصور المنقوشة على الآثار تمثل (مثرا) هو وجود أشعة الشمس بها حول الرأس والقلنسوة الفريجية .

الفصل الثامن

الفن والأدب

التاريخ ـ الطب ـ الفقه ـ زيارة (حنا مكسوس) مكاتب الإسكندرية ـ العالِم كزماس ـ التصوير ـ الفلك ـ العمارة والفسيفساء وصناعة المرمر ـ الإسكندرية ـ إيضاح الكتب بالرسم ـ النحت ـ العاج ـ صناعة المعادن ـ الخزف ـ الورق والزجاج ـ المنسوجات ـ التجارة ـ السفن وتجارة البحر .

قلما تخلف عن هذا العصر أثر من آثار الأدب وإن كان ما كتب عنه كثير فوق ما يتوقعه الإنسان[1] ويقول بعضهم إن حنا (فيلوبونوس) كان عند ذلك لا يزال حياً في الإسكندرية ولكن ذلك غير صحيح[2] . على أن أثر مذهبه ـ وإن شئت قلت أثر إعتزاله وانشقاقه ـ كان لا يزال باقياً حتى لقد رأى البطريق (سرجيوس) أن الأمر جدير بعنايته، فشرع يكتب في نقض آراء حنا وتفنيدها مشتركاً في ذلك مع (جورج البيسيدي)[3] . ولم يكن حنا هذا بصاحب الرأي الطريف المبتكر ولكنه كان عالماً ضليعاً بفنون كثيرة من العلم ولا تزال بعض

---

(١) نجد باباً قصيراً على آداب عصر هرقل في كتاب الأستاذ بوري « Hist. of The Later Rom. Emp. » الجزء الثاني (صفحة ٢٥٤ ـ ٧) ولمراجعة حالة العلوم في الإسكندرية (أنظر كتاب « ماتر ») « Ecole d'Alexandrie » .

(٢) قد برهن (ا . ناوكيوس) على أن (فيلوبونوس) كان من أهل القرن السادس (Encycl. Halensis) القسم الثالث الجزء ٢٣ صفحة ٤٦٥ ، أنظر أيضاً ما كتبناه فيما بعد عما آلت إليه مكتبة الإسكندرية .

(٣) كتاب (درابيرون) (L'empereur Heraclius) صفحة ٢٩٣ .

مؤلفاته باقية وهي حواش على كتاب أرسطو . وفي ذلك الوقت كتب قس من الإسكندرية اسمه هرون رسائل في علم الطب باللغة السريانية بقيت معروفة يرجع إليها العرب كما قال أبو الفرج [1] .

وكان أطباء الإسكندرية معروفين مشهوداً لهم زمناً طويلاً وكانت مدرسة الطب في تلك المدينة كعبة للطلاب يقصدونها من كل أنحاء الدولة . وقد جاء في كتاب زكريا المتليني عن وصفه للقرن السادس أن طبيب الإمبراطور بازيليكوس كان من أهل الإسكندرية . وجاء في موضع آخر في وصف (سرجيوس[2] طبيب ريزاينا الأكبر) ، أنه كان يطلع على كثير من كتب الإغريق ، وكان فوق ذلك فقيهاً في الدين وعالماً في الطب في الإسكندرية وكان يجيد السريانية قراءة وكلاماً[3] . ولعلنا نفهم من هذا الوصف أنه قد كان ثمة اتصال خاص بين لغة السريان ودراسة الطب وأنه لا يبعد أن أعظم كتب الطب في القرنين السادس والسابع كانت باللغة السريانية ، ولا شك أن تلك اللغة كانت ذائعة بين الناس وأن آدابها كانت دائماً تدرس في الإسكندرية حتى قبل أن تفد جموع العلماء إلى مصر من سوريا عند غزو الفرس لها .

ومن العجيب أن (هرون) و (سرجيوس) كلاهما كان فقيهاً في الدين وعالماً في الطب في وقت واحد وكذلك البطريق أوتيكيوس . وقد قام أكبر الأدلة على أنه قد ازدهرت في ذلك الوقت مدرسة مستقلة من مدارس الفقه ، فنسمع أن جماعة من العلماء السوريين كانوا قبيل غزو الفرس مصر يراجعون الترجمة السريانية للإنجيل ويترجمون إلى السريانية كتاب التوارة السبعينية من جديد . وكان أكبر من اشترك في هذا العمل (توما الهركلي) و (بولص التلوي)[4] .

---

(١) نشره بوكوك .

(٢) ذكر أبو الفرج رجلاً اسمه (سرجيوس) وقال إنه أضاف مقالتين إلى الثلاثين مقالة التي ألفها (هرون) ولكن ذلك لا بد أن يكون شخصاً آخر .

(٣) زكريا المتليني (صفحة ٢٦٦) .

(٤) أنظر « Dict. Christ. Biog. S. V. » ونجد بعض أخبار هؤلاء العلماء في كتاب (شارب) :

وقد قامت الجماعة بعملها في أكثر الأوقات في الدير المعروف دير (الهانطون) . ولسنا في حاجة لأن نبرهن على أن ذلك العهد نشط إلى دراسة الكتاب المقدّس نشاطاً كبيراً ، ولكن (أجاتياس) يحدثنا أحاديث مدهشة عن الهوة السحيقة من التضليل والكذب التي قد تهوى إليها المناظرات الدينية ، فإنه يحدثنا عن حاكم من كبار حكام الدولة أنه جمع أربعة عشر كاتباً أو ناسخاً يعملون في تحوير ما كتبه الآباء ولا سيما (قيريل) حتى يستطيع أن يدعم المذهب الذي ينتمي إليه بما شاء من أكاذيب يعزوها إلى أكبر حجج الدين في ما ينشره من الكتب . وإنا لنرجو أن تكون هذه الأكاذيب قليلة الحدوث ، ولكنها كتبت في أوائل القرن السابع حين كان الخلاف المذهبي على أشده لا يتورع أصحابه عن الكذب ومخالفة الفضائل في سبيله . ولم تكن دور الكتب في دير (الهانطون) وحده بل كان لكل دير مكتبته وقصاده من أجل العلم ، ولعل الدير السورياني[1] أو الدير السوري الذي لا يزال إلى اليوم في صحراء وادي النطرون قد نشأ في ذلك الوقت عندما جاء إلى مصر كثير من السوريين وعلمائهم هاربين من خطر حرب الفرس . وكان الرهبان والزهاد في صوامعهم في كل مكان في الصحاري والجبال بعيدين عن العاصمة وما فيها من حياة العلم يكتبون باللغة القبطية رسائل في خلافاتهم وتراجم لحياة بطارقتهم ، ولكنهم لم يكتبوا من حوادث التاريخ إلا قليلاً .

لم يبق مما كتب في ذلك الوقت من التاريخ الصحيح إلا شيء يسير فقد بقيت بعض أخبار قيمة كتبها (تيوفيلاكت سيموكاتا) . على أنه قلما يذكر الإسكندرية وإن كان من أبنائها ، في حين أن الكاتب المجهول الذي ألف

= « Hist of Eg. » (الباب ٢١ صفحة ٣٨) ويقول شارب إنهم كانوا يدرسون في دير القديس أنطون والقديس (زاكيوس) بالقرب من الإسكندرية ولكن الظاهر أنه لم يفهم معنى للقول الذي نقل عنه وقد أفضنا في الكلام على زيارة هؤلاء العلماء السوريين وما ألفوه من الكتب في ذيل هذا الكتاب عن تاريخ فتح الفرس .

(١) أنظر « Ancient Coptic Churches » الجزء الأول صفحة ٣١٦ تجد فيه وصفاً لهذا الدير .

(ديوان بسكال) أو (الديوان الإسكندري) قد خلف لنا صحيفة يصف فيها عصره لها قيمة جليلة وهي جديرة بكل عناية . وكتب (حنا النقيوسي) ديوانه في أواخر القرن السابع ، ولكنه كان من غير شك يأخذ عما سبقه من المؤلفات التي لم يبق منها شيء حتى الاسم .

وهذه الأسماء التي ذكرناها تدلنا على أنه قد كان في ذلك العصر درس وبحث في التاريخ والفلسفة وفقه الدين والطب ، ولكنها مع ذلك قليلة العدد لا تكفي للدلالة على ما كان بالإسكندرية من نشاط أهل العلم في مختلف الفنون ، فقد ضاعت أكثر مؤلفات ذلك العصر في أثناء عواصف الفتوح التي اجتاحت مصر في النصف الأول من القرن السابع . على أنه قد بقي منها ما يشهد للإسكندرية بأنها كانت جديرة بأن تكون مقر الآداب في العالم أجمع ، ومقصد طلاب العلم ، وكان لا يزال بها أثر يزدهر من العلم القديم وإن كان أكثر العلم فيها عند ذلك خاصاً بالدين . وقد ألفت رسائل في الأخلاق المسيحية أو المثل الأعلى المسيحي قصد بها أن تكون قائمة على أساس مذاهب أفلاطون وأرسطو ، وكما أن (بولص السيلنتياري) كتب مدحة يذكر فيها فضائل (القديسة صوفيا) في شعر هومري[1] من ذي المقاطع الستة ، كذلك رأى (صفرونيوس) وهو في الإسكندرية أنه لا عار عليه في أن يكتب قصيدة يبث فيها شوقه إلى الأرض المقدسة في صورة شعر غزلي على نمط تشبيب الشاعر الإغريقي (أناكريون)[2] .

وقد إتفق أن بقي في كتب (حنا مسكوس) شيء من الوصف الشائق للحياة في الإسكندرية في ذلك العهد ، على أن هذا الوصف الذي بقي لا يكفي لأن يملأ صحيفة كبيرة من الرقاع التي كانت تستعمل للكتابة ، وقد كتبه الكاتب عرضاً بغير أن يقصد به شيئاً ، غير أنه مع ذلك يصوّر لنا صورة عجيبة . وكان (حنا مسكوس) هذا سوريّ المولد ولسانه لسان الإغريق وقد طاف في

---

(١) نسبة إلى هومر شاعر الإغريق .

(٢) أنظر كتاب ميني « Pat. Gr. » الفصل ٨٧ .

مصر بضع سنين قرب آخر القرن السادس مع صديقه وتلميذه (صفرونيوس) وهو دمشقي الموطن ، وقضيا مدة طويلة معاً في أديرة (الثيبائيد) وهو صعيد مصر ، ولما رجعا إلى وطنهما حمل حنا تلميذه (صفرونيوس) على أن يترهب . ويقال إنهما طردا من الشام في سنة ٦٠٥ في أثناء حروب (فوكاس) فذهبا إلى الإسكندرية وقضيا مدة أخرى نحو ثمان سنين أو عشر في القراءة والكتابة ، وكانا بين حين وحين يزوران الأديرة المجاورة للإسكندرية وأديرة الصحراء والواحة الكبرى ، وكان كلاهما صديقاً (لحنا الرحوم) ، على أنه قد كان أقل منهما علماً . وقد هربا مثله من الإسكندرية في وقت غزو الفرس حتى لقد قيل إنهما صحباه إلى قبرص ، وإن (صفرونيوس) ألقى خطبة على جنازته ، ولكن الأدلة تنقض هذه الرواية . ومن المحقق أنهما ساحا في الجزائر الإغريقية ورحلا بعد ذلك إلى رومة وهناك أعاد (حنا موسكوس) قراءة كتابه ونقح فيه التنقيح الأخير ، ولما وافاه أجله أعطاه إلى تلميذه صفرونيوس لينشره . فلما رجع الأمن حوالي سنة ٦٢٠ ، وأبيح للمسيحيين أن يعودوا إلى التعبد على دينهم تحت حكم الفرس ، عاد (صفرونيوس) إلى فلسطين ونشر بعد حين جزءاً من كتاب أستاذه وهو الجزء الباقي إلى اليوم واسمه (مسارح الروح)[١] .

وهذا الكتاب على ما فيه من قصص شفاء الأمراض بالمعجزات ، ومن الأحلام وأمثال ذلك مما لا قيمة له عند المؤرخ ، يشتمل على أخبار قيمة ينشرح لها الصدر إذا ما استطاع الباحث أن يستخرجها منه بشق النفس . والكتاب مع ذلك فيه شيء من فوضى علمية واستطراد غير منظم يجعله شهي المقرأ ، ويخلع لذة على المواضع التي تدعو فيه إلى الملال والسأم . وسنرى فيما بعد بعض ما جاء به عن وصف إقليم الإسكندرية ، ولكن لا بدّ لنا من أن نذكر هنا صفة تظهر في كل صفحة من صفحاته ، ألا وهي حب العلم حباً شديداً . فقد

---

(١) والأشهر عنه اسمه اللاتيني « Pratum Spirituale » أنظر كتاب ميني « Pat. Gr. » الجزء ٨٧ .

وانظر « Dic. Christ. Biog. » وانظر (صفرونيوس) .

كان الصديقان لا يستقرّ لهما قرار في طلبهما للعلم ، ويدل على ذلك تنقلهما في الأقطار ، وإن كان بعض رحلاتهما إنما قصدا فيه القيام بخدمات للكنيسة[1] . فبينا كانا في الإسكندرية يحدّثان مطران (دارنه) أو هي (دارنيس) على ساحل البحر في ليبيا إذا هما مع رئيس الدير (تيودور الحكيم) أو مع (زويلوس القارىء) . وكان (تيودور) و (زويلوس) كلاهما نادرة في العلم والخلق ، وكانا فقيرين فقراً مدقعاً فقد ورد عنهما أنهما لم يكن لأحدهما من حطام هذه الدنيا إلا رداؤه وبعض الكتب . وكان (تيودور) عالماً بالفلسفة في حين أن (زويلوس) كان مفسراً للكتب المخطوطة[2] ويوضحها بالرسم . وقد وجد الصديقان غير ذلك رئيس دير قريب من الإسكندرية وكان شيخاً جليلاً قضى في الرهبانية ثمانين عاماً[3] ، وكان يحب الناس ولكنه كان فوق ذلك متصفاً بخصلة أخرى قلما اتصف بها أحد وهي حب الحيوان . فكان كل يوم يطعم طير الجوّ والنمل صغاره وكباره حتى الكلاب التي كانت تسرح حول الدير . وإذا كنا قد وصفنا (تيودور) و (زويلوس) بأنهما كانا لا يملكان إلا شيئاً واحداً احتفظا به وهو الكتب فقد كان هذا الشيخ الذي يحب الحيوان لا يبقي على شيء . فلم يكن عنده درهم ولا رداء ، بل لم يكن عنده كتاب ، إذ كان يعطي الفقراء وأهل الحاجة كل ما يملك[4] .

ولكن أرعى موضع للنظر في كتاب (حنا مسكوس) قطعة غير كاملة إذا قرأها الإنسان إستزاد منها فلم يجد منها زيادة ، وهي تصف صلة الصاحبين بكزماس العالم[5] ، وكانت صلة وثيقة العرى . وكان حنا إذا وصف شيئاً استعمل صيغة المثنى في وصفه يقصد نفسه وصاحبه (صفرونيوس) الذي كان

---

(١) ترجمنا الكلمة اليونانية*[(١٥)] بقولنا « بخدمات » ولكنها قد يكون معناها « من أجل تقدمنا العلمي » ومعنى ذلك أنهما قصدا إلى (أغراض علمية) .

(٢) أنظر كتاب حنا مسكوس الباب ١٧١ .

(٣) أنظر نفس الكتاب الباب ١٨٤ .

(٤) أنظر نفس الكتاب الباب عينه .

(٥) *[(١٦)] أنظر الكتاب عينه الباب ١٧٢ .

شريكه في أسفاره ومباحثه جميعاً . وهذه القطعة عظيمة الشأن فلنا العذر إذا نحن أوردنا هنا شيئاً يشبه نصها .

قال حنا « ولن نقول عن (كزماس العالم) كلمة ننقلها عما يقوله الناس بل سنكتب ما خبرناه وشهدناه بأعيننا . كان رجلاً لا كلفة فيه زاهداً طاهراً . وكان هيناً ليناً مؤلّفاً كريماً يعطف على الفقراء وقد انتفعنا به انتفاعاً كبيراً إذ فاض علينا من علمه ورأيه[1] وكانت عنده فوق ذلك (خير مكتبة في الإسكندرية وكان يعير من كتبها في سخاء لمن يحب أن يقرأ)[2] . وكان فقيراً فقراً شديداً فلم يكن في بيته من الأثاث إلا فراشه ومنضدة ، على أن الكتب كانت تملؤه . وكان يبيح لكل من شاء أن يدخل مكتبته ومن أراد من القارئين كتاباً طلبه وقرأه هناك . وكنت أزور (كزماس) كل يوم ولست أذكر إلا الحق إذا قلت إني ما دخلت بيته يوماً إلا وجدته مكباً على القراءة أو الكتابة يردّ على اليهود أو يجادلهم . وكان لا يحب أن يترك مكتبته فكان كثيراً ما يبعثني لأجادل بعض اليهود بما جاء في الكتب التي كتبها .

وقد تجرأت يوماً على أن أسأله سؤالاً فقلت « أتتفضل علي بأن تخبرني كم من الزمن بقيت منعزلاً في مكانك هذا ؟ » فأمسك ولم يرد عليَّ حرفاً فقلت له عند ذلك « عزمت عليك بالله إلاَّ ما قلت لي جواب مسألتي » فتردّد أوّلاً ثم قال « بقيت هنا ثلاثاً وثلاثين سنة » ولما أن ألحفت عليه بالسؤال قال لي إنه قد تعلم أموراً ثلاثة مما قرأ وهي ألا يضحك ولا يحلف ولا يكذب .

وهذه صورة ولا شك بديعة لعالم فقير في الإسكندرية جعل بيته مرتاداً لطالبي الكتب ومحبيها[3] وهي صورة تجعل القارىء يستزيد ولكن لا يجد فيها

---

(١) ترجم ميني لفظ*(١٧) على البناء للمجهول فكان معناها « عند حضوره » ولكن اللفظ نفسه كان لا يزال يستعمل للنظر الفلسفي*(١٨) فمثلاً جاء في زكريا المتليني أن حنا القسطنطيني صار من أهل الشك الكفرة الذين يتبعون النظر .

(٢) *(١٩) ولكن من سوء الحظ أن الأصل ليس فيه شيء يدل على التمييز بين المكاتب العامة والمكاتب الخاصة في المدينة .

(٣) في متحف القاهرة أثر ذو شأن أقيم ذكرى لأجد محبّي الكتب في ذلك العصر وذلك الأثر =

ما يشفي شوقه ويرجع ذلك إلى أمرين : الأول أنها لا تذكر شيئاً عن نوع الكتب التي كانت في المكتبة أو أنواعها ولا عن عددها ، والثاني أنه يسوءنا كثيراً أن (حنا مسكوس) و (صفرونيوس) لا يذكران شيئاً ما عن المكتبة العامة الكبرى بالإسكندرية وقد طبق ذكرها الخافقين ، مع ما كانا عليه من حب القراءة والعلم وعظيم العناية بأمر الكتب وجامعيها . فلسنا ندري أكانت تلك المكتبة في أيامهما موجودة أم غير موجودة ، وقد كانا قاب قوسين أو أدنى من إبانة ذلك الأمر فكانا يستطيعان بكلمة يقولانها أن يجليا سر تلك المكتبة الذي ما زال مكنوناً يضل فيه الباحث ، ولكنهما يوليان عنه في صمت وينصرفان .

ولا شك أن سكوتهما في نفسه متى قرن إلى صمت غيرهم من الكتاب ، وهم كثر ، له دلالة في الأفهام . ولكن ليس هذا مقام القول في الوقت الذي ضاعت فيه تلك المكتبة العظيمة وسيأتي مقامه في موضع آخر من هذا الكتاب . وأما هنا فحسبنا أن نظهر الأسف على أننا إذا قرأنا كتاب (حنا مسكوس) « مسارح الروح » أو إذا قرأنا ما بين أيدينا من كتب صفرونيوس الضخمة لا نجد في أي موضع منها إشارة واحدة نعرف منها أكانت تلك المكتبة لم تزل إلى أيامهما باقية في السرابيوم أم لم تكن .

ولكن كل شيء يذكر كتب الإسكندرية في هذا الوقت أو قريباً منه له في بحثنا هذا قيمة عظمى ، ولو كان قطعة من دليل أو نتفة من خبر ، وعلى ذلك فقد يكون لنا العذر إذا نحن أوردنا ذكر مجموعة أخرى من الكتب وهي مجموعة مطران (آمد) السوري (مورو باركستانت) في النصف الأول من القرن السادس . قيل في وصفه إنه كان « فصيحاً يتكلم اليونانية » ولكنه « نفي إلى (بطرة) بعد أن أقام في مقر رئاسته للدين مدة قصيرة ، ثم نفي بعد ذلك إلى الإسكندرية فأقام بها حيناً وجمع مكتبة تحوي كثيراً من الكتب القيمة ، يجد فيها من يرغب في العلم من أهل البحث والفهم فوائد جليلة . وقد نقلت هذه

= هو رسم بارز على غطاء تابوت لطالب علم يمسك في كلتا يديه بلفافة من المخطوطات .

الكتب بعد موته إلى خزانة كنيسة (آمد) وما زال يتعمق في القراءة وهو في الإسكندرية حتى لحقه السبات » ومن هذه النبذة الهامة التي جاءت في كتاب (زكريا المتليني)[1] يمكننا أن نستخلص أمرين : الأول أن الإسكندرية كانت إلى ذلك الوقت سوقاً رائجة لمن أراد أن يجمع الكتب ، والثاني أن إصدار الكتب إلى البلاد الأخرى كان مباحاً .

على أن إقبال أهل العلم في الإسكندرية لم يكن على آداب الإغريق وفقه الدين وحدهما فقد كانت مدينة بطليموس وإقليدس لا تزال مشهورة بخدمتها لعلم الفلك معروفة بمهارة من فيها من علماء الرياضة وعلم الحيل[2] ، وكان فيها من لا يزال يمارس التنجيم ، ولم يخل ذلك من فائدة للعلم لأن هؤلاء المنجمين كانوا على شيء من العلم بالنجوم . وكان الملوك وحكام البلاد يرسلون من كل أقطار العالم إلى رهبان الصحارى لينبئوهم بما في ضمير الغيب لهم ، وكانوا في ذلك يعتمدون على علم الرهبان بالكواكب أكثر من اعتمادهم على ربانيتهم ، ولم يخل هؤلاء المنجمون من التأثير في أمور السياسة . وكان أكبر علماء الفلك في ذلك الوقت (اسطفن الإسكندري) ولا يزال كتابه في علم الفلك باقياً . وهو معروف أيضاً بدرايته بالتنجيم ، ولو صح أنه تنبأ بمجيء دولة الإسلام[3] لكان من المؤكد أن كثيرين من سرعان أهل وطنه صدقوا ما قاله منذ سمعوه ، وداخلهم خوف خلع أفئدتهم ووهن من قوتهم عندما جاء وقت النضال والبلاء . ولكن (اسطفن) كان فذاً في الرجال ويلقبونه « بحكيم العالم » و « علامة الزمان » وليست درايته بالتنجيم لتزيد في قدره إلا قليلاً . وكان علم تقويم البلدان من فروع العلم المعروفة في ذلك الوقت ، فقد زادت معرفة

---

(١) صفحة ٢٠٩ .

(٢) علم الميكانيكا . (المعرب) .

(٣) جاء فيما كتبه (هـ. أوسنر) عن (اسطفن الإسكندري) ما لا يجعل أحداً يشك في علمه ولكن يتضح من ذلك أيضاً أن ما عزى إليه من التنبؤ ما هو إلا وضع نسب إليه في عصر بعد ذلك بزمن طويل . أنظر كتاب « De Stephano Alexandrino » .

الناس بالبحار الشرقية ، بفضل رحلات الكشف التي قام بها (كزماس) المعروف « بالبحار الهندي » وكان تاجراً من أهل الإسكندرية جريئاً على المخاطر ، قام بسياحات علمية طويلة حول بلاد العرب والهند ، دفعه إليها حبه للأسفار والإطلاع على مجاهل البلاد أكثر مما دفعه إليها حب المال والربح . وقد مات قبل ذلك الوقت الذي نصفه ببضع سنين ، غير أن ما كتبه كان لا يزال فيه باقياً في أيدي الناس يعجبون به . ولكن من سوء حظنا أن أكثر ما كتبه وأعظمه قيمة ضاع ولم يصل إلى أيدينا[١] .

وإذا حق لنا أن نقول إن الآثار الأدبية كانت لم تزل باقية يعتز بها في الإسكندرية فإنه يحق لنا أكثر من ذلك أن نقول إن الفنون كانت بها زاهية مزدهرة . فقد كان بنيان المدينة يأخذ بالألباب بعظمته ورونقه ، من أسوار منيفة وحصون منيعة وقصور براقة وكنائس فخمة وطرق ذات عمد مرصوصة . وكانت مهارة البنائين على عهدها لم تضمحل ولم تضعف عما عليه في أيام (جستنيان) إذا اتخذ من أهل الإسكندرية ذلك البنّاء الذي أقام الساحة الكبرى بالقسطنطينية ، بها ألف عمود وعمود ، ولا تزال إلى الآن باقية . ورءوس الأعمدة في هذه الساحة يرجع إليها الفضل كما يقول الأستاذ (فريمن) في الإنفصال عن قيود الماضي إنفصالاً تاماً وتمهيد للبناء الجليل الذي أقامه (أنتيميوس) ألا وهو بناء القذيسة صوفيا[٢] . وكان حجر السماق الأحمر والأخضر الذي استعمل في تحلية هذا البناء يؤتى به من مصر محمولاً في النيل[٣] ، وكانت مصر منذ أيام الفراعنة شهيرة بما فيها من المرمر البديع ، وكانت حلية الكنائس والقصور في جميع بلاد العالم من هذا الحجر الثمين ، وكانت سوقه في الإسكندرية وبقيت هناك حتى قضى عليها في أيام الفتح العربي .

---

(١) أنظر كتاب ماتر «Ecole d'Alexandrie» ، (الجزء الثاني صفحة ٣٨١) ففيه وصف (قزماس انديكوبلستس) وهذا الكتاب يحوي طائفة عظيمة من الأخبار .

(٢) أنظر كتاب « St. Sophia, Constantinople » ص ٢٤٩ تأليف (ليتابي وسوينسن) .

(٣) قال (بولص السيلنتياري) « كانوا يحملون الأحمال في السفن على صدر النيل » .

وكان فن التصوير من أتباع فن البناء يستخدم في تجميل الجدران في داخل البناء كما كان من وسائل ذلك التجميل نقوش الفسيفساء ذات الألوان وصور الفسيفساء[1] الزجاجية وأفاريز المرمر فوق الجدران وتغطية الأرض بالرخام . وقد احتفظ القبط زمناً طويلاً وهم تحت حكم العرب بالدراية في هذه الفنون ، فنون البناء وصناعة فسيفساء الزجاج وصناعة خاصة بالمرمر كان يطلق عليها اسم « الفن الإسكندري »[2] تمييزاً لها . وكانت أسوار العاصمة الجديدة (القاهرة) وما فيها من مساجد بديعة ، من صناعة المصريين في بنائها وزخرفها ، وما كان نبوغهم في هذه الصناعة وأساليبهم فيها إلا ما ورثوه كابراً عن كابر في الفن عن الإسكندرية القديمة .

ولا ننس في تفسير الكتب وإيضاحها بالرسم . وقد رأينا أن (سيموكاتا) يذكر صديقاً له كان (مفسراً) . وأن (حنا مسكوس) يصف (زويلوس) بأنه كان ممن يعالج هذا الفن . والحقيقة أن فن الكتابة المزخرفة ورسم الصور الصغيرة في الكتب كان شائعاً بالغاً حده من الإتقان في هذا العصر في كل بلاد الشرق . وكان خير المخطوطات إذ ذاك يتخذ من الرق يدهن بلون أرجواني ويكتب عليه بحروف من الذهب ، وكانت أمثال هذه الكتب تتخذ لمكتبة

---

(١) أنظر كتاب « أبي صالح » إذا أردت قراءة وصف الفسيفساء الزجاجية في مصر ١٤٨ وكذلك أنظر ما كتبناه في الهامش عن ذلك وإنا عندما كتبنا هامشنا لم نكن نعرف أن بعض أمثلة من تلك الصناعة لا تزال موجودة بمصر ، ولكن رأس القِبلة في جامع ابن طولون ما زالت بها الفسيفساء الزجاجية التي جعلت حولها منذ القرن العاشر وقد رسم حولها رسم على نمط ما كان يرسمه القدماء ويوجد مثل آخر من ذلك في مسجد شجرة الدر ومثلان في الأزهر وهما في (قبلة الطبرسية) و (قبلة الأقبغاوية) ، وهذه الأمثلة تدل على ندرة وجود هذا الفن إذ ما كان يستعمل إلا قليلاً في تزيين أعظم المباني الإسلامية رسوماً وأجلها زينة ، ومع ذلك فوجودها دليل على أن تلك الصناعة بقيت إلى القرن الرابع عشر . أنظر تقرير لجنة حفظ الآثار العربية (القاهرة سنة ١٩٠٠) كتبه ماكس هارتز بك .

(٢) Opus Alexandrinum .

الإمبراطور . وإن بين أيدينا خطاباً خطيراً أرسله أكبر مطارنـة الإسكندريـة وهو (تيوناس) إلى رجل اسمه (لوقيانوس) وهو الوصيف الأكبر للإمبراطور وأمين خـزانة كتبـه ، ولعل هـذا موضـع صالـح لـذكـره وإن كـانت كتـابتـه في سنـة ٢٩٠ للميلاد . وقد جاء في أول ذلك الخطاب وصف لما ينبغي أن يسير عليه الكتاب في دواوين حسابهم وما في عهدهم من الخلع والحلى ، ووصف لطريق إثبات ما في الخزائن من آنية الذهب والفضة ، والبلور وقماقم المر وغير ذلك من تحف القصر . وجاء فيه بعد ذلك أن المكتبة أثمن ما في القصر وأنه يجب على المسيحي ألا يترفع عن مطالعة كتب الأدب الدنيوي ، وأنه يجب على أمين خزانة الكتب أن يكون ملماً بكل ما فيها ، وأن يرتبها على نظام ثابت ويجعل لها ثبتاً تدوّن فيه أسماء كتبهـا . وعليه أن يستـوثق من أمر الكتب وأن النسـخ التي عنده منها صحيحة غير محرّفة وعليه أن يعيد كتابة النسخ وتزيينها بالصور إذا هي بليت . وجاء في آخر خطاب (تيوناس) هذا أنه ليس من الضروري أن تكون (كـل) الكتب منسـوخـة بحـروف من ذهب على رق أرجـواني[1] إلا إذا أمـر الإمبراطور بذلك أمراً . وهذا الخطاب يدلنا على الأقل على أن كبير المطارنـة كان له علم بـأمور مكتبـة عظيمـة جليلة . وقد ازدادت صنـاعة إيضـاح الكتب بالرسم وانتشرت في أثناء القرون الثلاثة التي تلت كتابة هذا الخطاب ولم تنقص شيئاً ولم تتبدل تبدلاً كبيراً في الوقت الذي نكتب عنه عما كانت عليه في وقت كتابة الخطاب . وكان أكثر إيضاح الكتب في مصر عند ذلك يقوم به الرهبان في الأديرة ، وذلك نظير ما حدث في أوربا فيما بعد . وقد كانت أعظم المـواضع التي تخرج هذا الفن القسطنطينية والإسكندرية . على أنه قد كان من الـرهبان في مواضع أخرى من يقضون أعمارهم في كتابة الكتب القيمة وتحلية صفحاتها بأبدع أنواع الزخرف وأجمل الألوان[2] ، ومن تلك المواضـع ما كـان في مصر ومنها ما كان في آسيا الصغرى أو الشام أو بلاد الفرس .

---

(١) أنظر كتاب (كورّا لوزي) (Pergamene Purpuree) .

(٢) أنظر كتاب المرحوم الأستاذ (مدلتون) (Illuminated Manuscripts) (طبعة كامبردج سنة ١٨٩٢) الباب الرابع .

وأما النحت في هذا العصر فلا نعرف عنه إلا القليل ، فلا نعلم عنه إلا أنه كان لا يزال من المعتاد أن تجعل تماثيل للإمبراطور الحاكم في العاصمة وفي أكبر مدائن الريف . وعلى ذلك فلم يكن هذا الفن مضيعاً كل التضييع [1] . وكانت المدرسة البطليموسية في هذا الفن أولى مدارس العالم في ذلك العصر وإن في بعض ما صنعته لجمالاً كأنك به عين جمال صناعة القدماء ورونقه ، فقد بقيت آثار الصناعة حتى في العصور المسيحية . ومن أمثال ذلك التمثال الجليل الضخم لأحد الأباطرة من حجر السماق الأحمر ومقره الآن دار الآثار المصرية بالقاهرة [2] .

على أنه لا شك في أنه ما أتى القرن السادس حتى كانت صناعة النحت قد اضمحلت ولكن الصناعة البيزنطية الخالصة صناعة نحت العاج بلغت وقتئذ قصارى الكمال ، ترى بها دقة الصناعة وإبداع الفن [3] . وكذلك كانت صناعة الذهب وتطعيم المعدن ، فقد برعت مدرسة الإسكندرية فيها جميعاً وبرزت فيها . وإذا كانت هذه الصناعات تمت بأصلها إلى صناع مصر القديمة ، فإنها بقيت إلى ما بعد فتح الإسكندرية بزمن طويل وعادت الحياة إليها في القرون الوسطى ، وكانت عند ذلك النشور بارعة ، ولم يخب نورها بل لا تزال باقية إلى أيامنا هذه .

---

(١) ولكنه لم يبق طويلاً بمصر بل اضمحل أمره سريعاً في حكم العرب ومدة حكم الروم إبان حكم الإمبراطورين الجاهلين مكسري التماثيل وهما (ليو) و (ايسوريان) في أوائل القرن الثامن .

(٢) ولكن الرأس من سوء الحظ لم يوجد ويظن أن التمثال لإمبراطور في الدولة المتأخرة ويقول الأستاذ (سترزجوسكي) إنه صنعة مسيحية وملابسه ووقفته وصقله غاية في الحسن وإذا ظن أنه من عمل العصور السابقة كان قريناً للتمثال البديع الذي أقيم للإمبراطور (مرقص أوريليوس) وهو في متحف الإسكندرية .

(٣) أنظر ديهل (La Civilisation Byzantine au VI Siècle) (صفحة ٦٥١ وما بعدها) ونجد في صفحة ٦٥٣ تفسيراً بالرسم من « عرش مكسميان » وقد علق عليه ديهل باقتباس رأي مولينييه وهو « ليس في أي أثر بالعاج في عصر قبل ذلك ما يظهر فيه زخرف مثل هذا قد برز في مهارة فنية تفوق كل مدح » ثم استمر بعد ذلك يبرهن على أن هذه التحفة وكذلك =

وكان بالإسكندرية عدا ما ذكرنا صناعات زاهية مزدهرة نذكر منها صناعة الورق وعمل الزجاج والمنسوجات وبناء السفن ، فكان في مصر السفلى عدد عظيم من غياض فسيحة تنبت البردى ذلك النبات الطويل الحسن ، وكان الورق يتخذ من لبابه يشق شرائح تجعل منها صحائف بالضغط ثم تصقل بآلة من العاج . وكانت الصحائف بعد ذلك يوصل بعضها ببعض فتكون لفائف يسهل استعمالها . وكانت مقادير عظيمة من البردى تصدر من مصر من مراسي الإسكندرية المزدحمة ، ولسنا ندري متى ضعف أمر هذه التجارة ولا الأسباب التي أدت إلى القضاء على هذا النبات في مصر[1] . وأما صناعة الزجاج فقد بقيت معروفة ذائعة الصيت زمناً طويلاً في الإسكندرية وصحراء النطرون وقد قال سترابو إن صناع الزجاج في مصر كانت لهم أسرار يحفظونها ولا سيما في معامل (ديوسبوليس) وإنهم كانوا يقلدون الجواهر في صناعاتهم ويعملون قماقم المر . وكان الزجاج من بين الأشياء التي فرضها (أغسطس)[2] على مصر ترسل عيناً ضمن الجزية السنوية ، ولا تزال في متحف الإسكندرية أمثال بديعة من منتجات هذه الصناعة . ولا خلاف في أن هذه الصناعة أسلمها القبط بعضهم لبعض جيلاً بعد جيل حتى العصور الوسطى ، وكان آخر ما أخرجته تلك الصناعة المصابيح المطعمة الفاخرة التي كانت تزين الكنائس والمساجد ، وهي

= الجواهر الصغيرة وصناديق الآثار المقدسة والنقوش كلها مصرية في فكرتها وفي أصلها . وقد كان لمدرسة الفن السورية المصرية أثر كبير في ذلك الوقت في الفن البيزنطي عامة . وإن ما كتبه (ديهل) في فن البناء (صفحة ٦٤٢) وفي النقوش الدقيقة (صفحة ٦٥٠) لجدير بالقراءة كما أن كل كتابه جدير بذلك .

(١) تجد أخباراً حساناً في هذا الشأن (Mittheilungen a. d. Papyrus Erzherzog Rainer) صفحة ١٠١ وما بعدها ، ومنه تعرف أن لفافة البردي في القرن التاسع واسمها قرطاس (*١٩) كان ثمنها ٦ قراريط وذلك ربع دينار أو شلنان وستة بنسات وكان الطومار (وطوله ثماني أقدام وست بوصات) يساوي سدس هذا الثمن وذلك خمسة بنسات .

(٢) أنظر (Notice Historique de l'art de la Verrerie) في الكتاب النابوليوني (Descri- Ption de l'Egypte) وانظر كتاب أبي صالح صفحة ١٤٩ و ١٥٠ .

اليوم مفخرة المتاحف التي تجمع آثار العصور الوسطى . أما صناعة الخزف فلا نعرف على وجه البت في أي وقت بدأ أمرها في الظهور ولكن ذلك كان لا بد في عصر قديم . فقد ذكر سائح فارسي[1] جاء إلى الفسطاط في سنة ١٠٤٧ للميلاد أمر صناعة الزجاج الرقيق وذكر سوى ذلك القيشاني المزخرف الذي وجده يصنع هناك . قال عنه « وكان رقيقاً شفافاً حتى إن الإنسان ليرى من وراء الآنية يد من يمسكها » وقد ذكر أيضاً الأواني اللامعة المختلفة الألوان التي تشبه نسيج الحرير المعروف باسم (بوقليمون) وهو الذي يتغير لونه كلما تغير موقع الضوء من سطحه . وهذه الشهادة ذات قيمة عظمى إذ تدل دلالة قاطعة على ما بلغته صناعة الخزّاف والزجاج من التقدم في القاهرة في القرن الحادي عشر . ولا شك في أن الصناعة الإسبانية المغربية التي جاءت بعد ذلك وذاع ذكرها وشاع ترجع بأصلها إلى صناعة القاهرة .

وأما المنسوجات فقد كانت لها تجارة رائجة وكانت متعددة الأنواع والأصناف فكان الكتاب الدقيق لا يزال ينسج ، ولعله كان أدق خيطاً وصنعة مما كانت تخرجه مناسج مصر القديمة . وفوق ذلك قد صار الحرير منذ حكم (جستنيان) أكثر شيوعاً بين الناس[2] وكان تخرج على أيدي النساجين بدائع

---

(١) (Relation du Voyage de Nasiri Khusrau) من كتاب (شفر) صفحة ١٥١ ويدل على وجود هذه المصنوعات الوطنية ما نجد في بقايا القمائن التي كشفت في أطلال الفسطاط .

(٢) أنظر (Catalogue of Egyptian Textiles in S. K. M.) (تأليف آلان كول ١٨٨٧ صفحة x) ، وكان الحرير في القرن الثالث يساوي وزنه ذهباً وما جاء القرن الرابع حتى رأينا (جريجوري النازيانزي) وسواه من كتاب المسيحيين ينعون على الناس لبس الحرير ويقولون إنه ترف أخذ الناس في الإنغماس فيه . فلما انتصف القرن الخامس كان استعمال الحرير قد شاع في الناس فلم يكن مقصوراً على لبس الإمبراطور بل أصبح أهل الحاشية والأغنياء جميعاً يلبسونه وكانت طرق القسطنطينية ومنازلها تخفق بالحرير الخالص في وقت تعميد الطفل (تيودوسيوس الثاني). انظر كتاب (Bury) «His. of the later. Rom. Emp.» (الجزء الأول ص ١٩٦ ، ٢٠٤ ، والثاني ص ٩٦ - ٩٧ ، وكذلك الجزء الأول ص ٤٧٢) . وكان الحرير في مصر مستعملاً قبل استعماله في

من الحرير والكتان تحليها زركشة تأخذ بالألباب وقد كشفت حديثاً بقايا كثيرة من منسوجات ذلك العصر أو ما هو قريب منه ـ وجدت في إخميم بالصعيد واسمها القديم (بانوبولس) وهي محفوظة اليوم في مجموعة (سوث كنزنجتون) بانجلترة وفي مجموعات أخرى . وكل هذه المنسوجات من الكتان وهي أبسطة منسوجة ، وأما أنماطها ورسومها فمختلفة ، فبعضها يشبه في رسمه المنسوجات القديمة وبعضها عليه أثر واضح من المسيحية وقسم منها عليه أثر ظاهر من أنماط الفرس ، فإن مدة إقامة الفرس بمصر وهي تلك السنون العشر أو الاثنتا عشرة لا بد قد أثرت فيها الرسوم الفارسية في الصناع فجعلتهم يخرجون منسوجاتهم على مثالها . والشبه عظيم بين مجموعة من ورقة البردى في فينا تنسب إلى (تيودور جراف) وبين مجموعة هذه المنسوجات . فمجموعة الأوراق التي تختلف تواريخها بين سنة ٤٨٧ وسنة ٩٠٩ للميلاد فيها لغات شتى ، فاليونانية والقبطية والفارسية والساسانية والعبرية والعربية ، ومجموعة المنسوجات التي ترجع إلى نحو هذه العصور تنطبع فيها صور ما مر على مصر من صروف الدهر المختلفة ، وغير الحادثات السياسية كما تنطبع صورة في مرآة[1] . ومن أهم الأمور أن نتذكر أن مادة صنوف المنسوجات ورسومها وألوانها تكاد تكون واحدة سواء في ذلك ما وجد في صقارة أو الفيوم أو الصعيد . وهذه

= أوروبا ، فكانت الأكفان تصنع منه للجثث المحنطة في آخر القرن الرابع . أنظر مقالة « وصف كفن قبطي » كتبها الدكتور (وليس بدج) في « أركيولوجيا » (المجلد ٥٣ الجزء الثاني ص ٤٤٢) . وانظر في الموضوع جمعية كتاب (Yates) « Textrinum Antiquorum » وقد ذكر في تلك المقالة . ويمكننا أن نعرف من كتاب (أكلى) مقدار شيوع الحرير في القرن السابع . فيقال إن هرقل كان له أكثر من ٣٠٠ حمل من الحرير الملون والحرير المزركش بالذهب في دمشق (ص ١٥٠ ـ ١٥٦) ، وكانت تكثر الملابس الحريرية في الغنائم والظاهر أن القواد كانوا يلبسون الحرير حتى في ساحة القتال (أنظر الصفحات ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٩ ، ١٨ ، ١٩٨ ، ٢١١) . وقد ذكرت ستور الحرير المزركشة بزهور الذهب في صفحة ٢٢٦ ، وقال المسعودي إن أغطية من الحرير الأخضر كانت تعلق على شوارع الإسكندرية لتقي من وهج الأبنية التي من المرمر .

(١) أنظر كتالوج (S. K. M,) (صفحة XIII) وكل المقدمة في هذا الكتالوج جديرة بالقراءة ، =

حقيقة تدلنا على إشتراك النساجين في الأنماط وتشابههم في الأذواق أكثر مما تدلنا على شدة محافظتهم على القديم وتمسكهم به . فكان ما جد من طرق الصناعة ورسومها يتنقل سريعاً في نهر النيل ، وهو المحجة العظمى ، ذاهباً إلى طائفة بعد طائفة من الصناع في البلاد المنتشرة في ريف مصر . وكان ما تخرجه المناسج يحمل إلى الأسواق الكبرى في منف والإسكندرية ، أو كان يحمل في الصحراء مرحلة قصيرة حتى يبلغ ميناء (بيرينيقة) على البحر الأحمر ومن ثم ينقل في السفن إلى البلاد الأخرى . وكانت منسوجات الكتان والستائر ذات الصور ـ التي تتخلل نسيجها خيوط من الذهب وتوشيها النقوش البديعة من التطريز في ألوان جميلة ـ كانت كلها من صناعة الصانع القبطي . وإنا كلما أمعنا في درس تاريخ مصر سواء منه ما كان في العصر البيزنطي أو العصر العربي زاد يقيننا بأن القبط كانوا أصحاب الفضل في بقاء آثار الصناعة حية ماثلة في البلاد وذلك في كل شعبة من شعبها : في صياغة الذهب وتطعيم المعادن والزخرفة بالميناء وصناعة الزجاج وغير ذلك من صناعات الإنشاء أو التجميل .

على أنه لا بد لنا أن نتدارك خطأ قد يقع فيه من يتصور أن المهارة في الصنعة وحسن الإختيار والبصر كانا وقفاً على القبط فاقوا فيهما كل من عداهم من صناع الدولة البيزنطية أو أرمينيا وأشور وفارس ، فإن ذلك لم يكن . والحق أنه قد كان بكل بلاد الشرق صناعة فائقة تخرج من المنسوجات والمطرزات وآنية الذهب والفضة والجواهر البديعة الصنع . ولقد كانت مصر تصنع الطنافس الجميلة ، ولكنا لا نقدر أن نقول إنها كانت تضارع ما تخرجه بلاد الفرس من

= وانظر كذلك كتاب (Gerspach) «Tapisseries Coptes» Les وكتاب «Romische und Byzantinische Seiden Textilien » تأليف Forrer وفي الكتاب المسمى « Les costumes en Eg. du IIIe au XIIe Siècle » أفاض مؤلفه (Mons. A. Gayet) في وصف الكتان البديع والحرير والستور والزخرف الذي كان بمصر ويفسر اختلاف الرسوم بأن الصناع كانوا مختلفي الأجناس . وهذا في رأينا رأي خاطىء ، فقد كان الصناع مصريين ولكن رسومهم كانت تتأثر بتعاقب الفتوح واختلاف هوى الفاتحين فيها ، وقد أورد المؤلف في صفحة ٢٤٧ رسماً أشورياً له قيمة كبرى .

طنافسها البديعة[1] . وكذلك كان الحال في بعض الرسوم التي توضح الكتب ،

(١) ونـورد على ذلك دليـلاً البساط المعـروف « بساط الشتـاء » لملوك الفرس الـذي غنمـه المسلمون في المدائن فقد كان طوله ٣٠٠ ذراع في عرض ستين ذراعاً وكانوا يفرشونه في الشتاء إذا ما ذهب أوان الزهر وكان أبيض اللون يحيط به زخرف بديع من الزمـرد وعليه رسم الزهور البديعة والنباتات ذات الـروائح الـذكية وكـل ذلك من الجـواهر المختلفـة الألوان . فأرسل إلى المدينة فقسم بين قواد المسلمين فباع (علي) نصيبه بثمانية آلاف درهم (أنظر الطبري طبعة زوتنبرج الجزء الثـالث صفحة ٤١٦) وكـانت تنيس والقيس وسواها من مدائن الساحل مواضع هامة لصناعة الطنافس وسائر المنسوجات (أنظر كتاب كاترمير « .Mem. His. et Geog» (الجزء الأول صفحة ١٤١ ، ٣٠٨ ، ٣٣٥ ، ٣٣٩) وقد ذكر (قيدرينوس) الكتان والحرير والطنافس فيما ذكره من الغنائم التي أحرقها هرقل في قصر كسرى في (دستجـرد) وفي القرن التـاسع أتى ببسـاط أخذ من الفـرس إلى الخليفة المنتصر (الذي قتل أباه المتوكل) وكانت عليه صورة ملك متوج على ظهر جواده وقد نقشت على حوافي البساط تلك القصة « أنا شيرويه بن خسرو وقتلت أبي ولم أحكم إلا ستة أشهر » (أنظر المجموعات الشرقية الجزء الأول رقم ٣ هامش صفحة ٢٢٤) . وكانت (دمياط) تضارع (تنيس) عندئذ في دقة منسوجاتها الرقيقـة ومطرزاتهـا وثيابهـا المطرزة بالذهب وبقيت كذلك مدة ثلاثة قرون أو أربعة بعد ذلك (أنظر كتاب أبي صالح صفحة ٦٢ ، ٦٣ ، وهوامشهـا) وقد ذكـر اليعقوبي جملة من المنسـوجات التي كـانت تصنع عند ذلك وقد كتب حـوالي سنة ٩٥٠ للميـلاد . وكان يصنـع في الفيوم نـوع من الكتـان الخشن وفي (القيس) كانت تصنـع الأثواب التي كـانت تسمى باسم المـدينـة وكذلك كانت تصنع منسوجات بـديعة من الصـوف . وفي البهنسا كـانت تصنع أثـواب الستور يسمى أحدها (البهنسي) وكانت تصنع المنسوجات الدقيقة في أهناس والأبسطة الحمراء في سيوط والطنافس الصغيـرة والنمارق والجلود في أخميم والكتـان الناعم في شطا وكانت تصنع في تنيس الثياب المشهـورة بالـدابقي على أنواعهـا الخشنة والـدقيقة وذلك عدا أنواع الحرير الرقيق والثياب المخططة والمخمل والدمقس وغير ذلك . وكانت تصنع في دمياط أنواع من المنسوجات المتينة الدابقية والكتـان الناعم والحـرير الـرقيق « Bibl. Geog. Arab » (الجزء السـابع صفحة ٣٣٠ ، ٣٣٢ ، ٣٣٧) . ولا شك في أن هذه المصنوعات لم يدخلها العرب إلى البـلاد بل بقيت من زمن الـرومان . وإذا أردت قـراءة شيء عن المنسوجـات المطرزة التي كـانت بمصـر فـانـظر كتـاب (Strzygowski « Orient oder Rom » صفحة ١١٣ وما بعدها وكذلك صفحة ٩٠ وما بعدها .

فقد جاء بعض بدائعها من صناعة فارس والعراق كما جاء من صناعة بيزنطة . وكانت أكبر المصابغ التي يصبغ فيها الحرير الأرجواني الذي يصنع منه برد الملك في مدينة بصرى بالشام ، وهي المدينة التي فتحها الفرس ثم العرب من بعدهم . وقد رأينا فيما سلف أن كسرى لم يكن من الملوك الهمج أو أشباههم بل كان رجلاً مهذباً عالماً . وكانت فنون الفرس في عهد الساسانيين قائمة على آثار القدماء من الأشوريين والبابليين ، وكانت تضارع فنون الدولة البيزنطية في الدقة وحسن الإنسجام .

وكانت فوق ذلك ذات أثر أبلغ من أثر الروم في صناعة العرب ونشأة مذهبها في الرسم والنقش وهو المذهب الذي اشتهرت به دمشق في العصور الوسطى .

ولعل أكبر صناعات الإسكندرية كانت صناعة بناء السفن . فإن الإسكندرية كانت أكبر أسواق العالم وأكثر ثغوره إزدحاماً وحركة ، وكانت بها تجارة عظيمة في القمح والكتان والورق والزجاج وغير ذلك من صنوف ما تخرجه البلاد . وكانت تحمل إليها مقادير عظيمة من الذهب والعاج من بلاد النوبة وأثيوبيا ، وكانت فوق ذلك أنواع البهار والحرير والفضة والجواهر وغيرها تأتي من بحار الهند والصين إلى البحر الأحمر ومن القلزم (وهي السويس) فتحمل في الترعة إلى (منفيس) ومنها تنحدر في نهر النيل إلى الإسكندرية حيث كانت تبعث إلى أطراف البحر الأبيض المتوسط . ومثل هذه التجارة العظيمة لا بد لها من عدد كبير من السفن . وكانت مصر منذ الأزمنة القديمة خلواً من موارد الخشب الذي تصنع منه السفن ، ومع ذلك قد كانت الأخشاب تشتري من بلاد الشام وغيرها لبناء السفن في الإسكندرية ، إذ كان بناؤها هناك في مقر التجارة التي تحتاج إليها أعود بالربح وأجدى على التجار ، وكانت مصر فوق كل ذلك تنبت نوعاً من التيل يليق كل اللياقة لعمل الحبال وأدوات السفن[1] .

---

(١) يقول ابن الفقيه (القرن العاشر) « ومن عجائب مصر نوع من الكتان اسمه الدقس كانت =

وقد رأينا فيما سلف أن إحدى سفن الغلال التي كانت للكنيسة في الإسكندرية كانت تحمل عشرين ألف مد (كل مد خمس الأردب) ، ولم يذكر أحد أن حمل هذه السفينة كان فذاً . وأكبر الظن أن تلك السفن التجارية كانت أكبر كثيراً مما اعتاد الناس أن يظنوا فيها وكذلك كان حال السفن الحربية . وقد حدث بعد سنين عدة من هذا الوقت عندما أصبحت مصر في ملك العرب أن أمر معاوية الزعيم العربي في الشام ببناء عدد من السفن الحربية في الإسكندرية وسواها من الموانىء التي في حكم الدولة العربية ، وذلك في وقت لم يكن فيه بمراسي الإسكندرية أحد من بنائي السفن الذين هم من أصل بيزنطي محض ، إذ كانوا لا بد قد خرجوا منها جميعاً . ويقول (سبيوس) إن السفن كانت على نوعين أحدهما يمكن أن نسميه (البوارج) ، والآخر (الطرادات) . وكانت البارجة تحمل ألف رجل في حين أن السفن الصغرى كانت تحمل كل منها مائة رجل[1] ، وكانت تجعل للسير السريع واللف حول السفن الكبرى . ويذكر ذلك المؤرخ وصفاً مسهباً عظيم القيمة لما كان في سفن الحرب من الآلات والسلاح ، فكان بها عدد القذف (مجانيق وآلات رمي الحجارة) وكان في بعضها صروح عالية فوق ظهرها حتى إذا ما جاءت السفن بحذاء أسوار محصنة استطاع المهاجمون أن يكونوا هم والمدافعون على علو سواء ، وأمكنهم أن

= تصنع منه حبال السفن وكانت تسمى القبرقس « Bibl. Geog. Arab » الجزء الخامس صفحة ٦٦ » .

(١) هذه الأرقام واضحة في النسخة المخطوطة من كتاب (سبيوس) كما قال لي المستر (Conybeare) ولا أرى داعياً إلى الشك فيها ولو أن السياق يفيد أن عدد السفن الكبرى ٣٠٠ كل منها يحمل ١٠٠٠ رجل و ٥٠٠٠ طرادة كل منها يحمل ١٠٠ رجل ، فيكون ذلك كله ٨٠٠,٠٠٠ رجل أرسلوا بالبحر لغزو بيزنطة ما عدا من أرسلهم معاوية بالبر إلى (خلقيدونية) ، وهذا بالطبع عدد غير ممكن . ولا بأس علينا إذا قللنا من عدد السفن فإنه قد كان عليها شيء كثير من السلاح والآلات التي يذكرها (سبيوس) وكذلك من الخيام والمؤونة . ولعلها كانت تحمل خيلاً ولا بد قد شغل كل هذا جزءاً كبيراً من السفن .

يثبتوا من تلك الصروح إلى الأسوار ، أو أن يقيموا قنطرة على الفضاء القليل الذي بينهما ويعبروا عليها إلى حصون الأسوار .

وأعظم شأناً من هذا ما جاء في كتب (سبيوس) من الوصف الصريح لما شهده من تلك السفن الكبرى ، وأنها كانت مجهزة « بآلات تقذف النار » ، وهي آلات ترمي بالنار المهلكة المعروفة (بالنار الإغريقية) وكانت مزيجاً قوياً من مواد سريعة الإلتهاب ، وكانت تشتعل اشتعالاً شديداً لا يمكن إطفاؤه ، ولعلها كانت فوق ذلك ذات قوة على النسف والتمزيق ، وكانت لذلك تحدث تخريباً كبيراً وخوفاً شديداً . ولكن أكبر ما يسترعي النظر فيما جاء في كتاب (سبيوس) من ذلك الوصف أنه يقول : إن السفن التي بنيت في مصر بعد الفتح العربي بأمر العرب كانت مجهزة بالمجانيق لقذف المواد الملتهبة وهي المواد التي قيل إن تجهيزها كان إلى القرن السابع على الأقل سراً مكنوناً اختص به أهل بيزنطة . وقد جرت العادة أن يقولوا إن أول من اخترع النار الإغريقية رجل اسمه (قلّينيكوس) وهو مهندس في مدينة (هليوبولس) ويقولون في تسرع إن (هليوبولس) المقصودة هي التي بالشام وليست هي المدينة القديمة الشهيرة بمصر . أما المؤرخ (جبون) فإنه يعتمد على ما جاء في كتاب (قيدرينوس) ويقول إن (قلينيكوس) كان مصرياً ولكنه يزعم خطأ أن (هليوبولس) كانت عند ذلك أطلالاً بالية[1] . وإننا لا يمكن أن نتصور أنه كان من الممكن أن تبنى سفن في الإسكندرية بعد فتح العرب لمصر بما لا يزيد إلا قليلاً على عشرين سنة ، ثم أن تجهز بتلك الآلات التي تقذف النار الإغريقية ، اللهم إلا إذا كان إختراع مزيج تلك النار وعمل آلاتها أصله في مصر ذاتها .

ومهما كان من أمر هذه النار فإنه لا شك على كل حال في أن صناعة بناء

---

(١) انظر كتاب «Decline and Fall» الباب ٥٢ هامش ٢ وفيه « وقد أتى قيدرينوس بهذا الصانع من أطلال هليوبولس ، وكانت الكيمياء العلم الخاص بالمصريين » . وقد كتب (ليو) كذلك كلمة مستفيضة في « النار الإغريقية » (الجزء الحادي عشر صفحة ٤١٩) أنظر كذلك كتاب الأستاذ « Bury « Later Rom. Emp. (الجزء الثاني ٣١١ ، ٣١٩) .

السفن كانت عظيمة في الإسكندرية في النصف الأول من القرن السابع ، وأنها لم تضمحل عندما إنتهى أمر الدولة البيزنطية في مصر . وفي هذا ما يدل على أن الصانع القبطي في هذه الصناعة وفي غيرها من الصناعات الكبرى في وادي النيل كان مستقلاً بنفسه بغير إرشاد ولا تسيير من الروم إذا لم نقل إنه كان في الحقيقة الصانع المعلم .

قد ألجأنا هذا الفصل المجمل في كلامنا على الفنون والآداب في الإسكندرية حوالي وقت غزو الفرس لمصر إلى أن نخوض في تاريخ ما سبقه وما جاء بعده من العصور ، ولكنا قصدنا إلى ذلك قصداً لأمرين : أولهما أن نبين على وجه الإجمال والتقريب ما كانت عليه المدنية المادية في هذا العصر ، وثانيهما أن ندل على أن سير تلك المدنية كان متصلاً ولم يقطعه على الأقل فتح الفرس للبلاد . فإن جيوش كسرى لم تسبب أذى كبيراً للتحف الكبرى في العاصمة سواء كان ذلك بنياناً أو علماً ، فإن غزاة الفرس لم يكونوا هم الذين دمروا مكاتب الإسكندرية إذا كانت لم تزل إلى ذلك الوقت باقية ، وكانت المنارة الكبرى منارة (فاروس) إحدى عجائب الدنيا السبع لا تزال إلى ذلك الوقت ماثلة مشرفة فيما بين المدينة والبحر ، تكلل هامتها سحب من الدخان في النهار ، ولهب من النيران بالليل . ولم يهدم من أبنية الإسكندرية ما اشتهرت به المدينة من المعابد القديمة وساحات العمد الفسيحة والقصور التي لا تقع تحت حصر ، بل إن الكنائس ذاتها التي كانت في داخل أسوار المدينة لم يمسها أذى يستحق الذكر ، وكان المصلون يزدحمون في الكنيسة الكبرى كنيسة (القيصريون) أو في كنيسة القديس (مرقص) حيث كانت رفاة (رسول مصر)[1] لا تزال في مقرها يعلوها المذبح المنيف .

(١) تدل شهادة الحجاج بعد هذا العصر على أن كنيسة القديس مرقص بقيت سالمة . وقد بقيت بعد الفتح العربي الثاني للإسكندرية وفيه على ما يظهر تهدّمت كنيسة القيصريون .

الفصل التاسع

جهاد أصحاب الصليب للفرس

هرقل يطلب الصلح ـ يمتنع سفره إلى قرطاجنة ـ يصح العزم على حرب فارس ـ إرسال وفد إلى كسرى وإخفاقه ـ إرسال بعث إلى قليقيا ـ القيادة في البحر ـ ما حدث في كنيسة أيا صوفيا ـ تنتهي الحرب بالقضاء على قوة الفرس ـ إرجاع الصليب ـ إنتصار هرقل .

بلغت الحال بهرقل مبلغاً سيئاً وهوى ملكه حتى صار لا يتعدى أسوار عاصمته . فكانت جموع التتار أو الهون وما إليها من قبائل الهمج تضرب فيما يلي قسطنطينية من الغرب ، وذلك من ناحية القارة ، وقد كانت تلك الجموع من قبل تتنقل هناك لا يقف أحد في سبيلها حتى جاءت عند ذلك تدب حول أبواب المدينة ذاتها ، وكانت الجيوش الفارسية تقتحم آسيا الصغرى وتجتاح ما في طريقها حتى فتحت (خلقيدونية) على الساحل الأسيوي للبوسفور تجاه القسطنطينية[1] ، وذلك بعد أن بسطت يدها على فلسطين والشام ومصر . وخيبت عند ذلك الآمال التي أشرقت على الناس عند تولية هرقل أو علتها سحابة داكنة ، إذ رأوا أو خيل إليهم أنه قد ذهبت عن ذلك العاهل همته الشماء التي مهدت له سبيل العرش ، وحل محلها الفتور واليأس . وكان أول شيء فعله بعد

---

(١) قد وصف (تيوفيلاكت) موضع (خلقيدونية) وصفاً دقيقاً (الجزء السابع صفحة ١٥ ثم الجزء الثامن صفحة ١٤) (Teubner. Classics, ed. de Boor) .

استيلائه على الملك أن بعث إلى كسرى يتوسل إليه أن يصالحه ، فما كان نصيبه من ذلك إلا الدفع والرفض[1] بإزدراء .

والظاهر أن هرقل خارت نفسه وضاع منه الأمل في الخلاص منذ عرف أن مصر قد انفصلت عن دولته ، وضاع ما كان يأتي من تلك الأرض الغنية من الجزية من أموال وقمح ، ورأى أن خزائنه خاوية من المال والغلال ، وأن حوله أعداء ضارية تحصره وتهدد أسواره ، ولم يكن دونها من حماة إلا جند خائر الهمة منفرط النظام ، وسولت له نفسه أن يهرب ناجياً ، وفي ذلك ما يعزز رأي من يقول إنه كان يحس أن لا قبل له بحمل أمور تلك الدولة وهمومها ، وإن وقع المصائب قد صدع نفسه فذهب بما فيها من الشهامة والهمة ، وإنه قد انخلع قلبه وتحطم منه ما كان صلباً . وقد ثبت عند الناس أنه قد وطد العزم على أن ينضو التاج ويعود إلى موطنه في أفريقيا . ولو صح ذلك لحق للناس أن يذكروا رد فوكاس عليه إذ قال : « وهل أنت من يحكم خيراً من هذا ؟ » على أن الأمر فيه ما يدعو إلى الظن أن هرقل إنما كان يريد نقل مقر الحكومة إلى قرطاجنة حتى يقدر أن يجهز نفسه في متسع من الوقت والمجال قاصداً أن يعود بعد ذلك ليسترد أرض دولته في آسيا .

ومهما يكن من الأمر فقد سافرت سفينة تحمل الأموال والتحف التي كان يريد حفظها قاصدة قرطاجنة فلما بلغت (بنطابولس) نزلت بها كارثة فغرقت . وعند ذلك علم (سرجيوس) بطريق القسطنطينية بما عزم عليه هرقل ، فأحفظه ذلك وحال بين الإمبراطور وبين إتمام ما كان ينوي . وليس لنا من سبيل إلا الحدس لمعرفة ما كان بينهما ، فلا ندري بأية لهجة كلمه ولا بأية قوة أثر فيه فجعله ينصاع لرأيه ، وينزل عن عزمه الأول . ولكن المحقق عندنا هو أن البطريق نفخ في الإمبراطور روحاً جديداً وجعله يقسم له على المذبح

---

(١) قال (سبيوس) إن كسرى قال عند ذلك « إن الدولة لي وقد غصبها ثم هو يرسل الآن إلينا أموالنا هدية ، ولكنا نصبر طويلاً حتى نأتي به إلى قبضة يدنا » وقتل الرسل ولم يرسل إلى هرقل جواباً .

الأكبر في الكنيسة الكبرى أن يؤدي أمانته وأن يقاتل في سبيل تخليص الدولة من أعداء الصليب[١] .

ولا شك أنه قد طرأ على الإمبراطور منذ ذلك الحين تغير مشهود ، ولا ندري سبب ذلك التغير الذي أحدث أول حرب صليبية كبرى ، أكان سببه لسان (سرجيوس) وبلاغته في الموعظة ، أم كان ما شهده تحت القبة الكبرى في كنيسة (أيا صوفيا) مما يثير النفس ، أم كان بارقة من الأمل لمعت له من تغير في حال عدوه ، أم كان السبب كل ذلك وقد اجتمع وصحبه نهوض من وهدة اليأس التي تردى فيها . وكان ذلك أمراً طبيعياً في رجل مثله كان له عقل راجح يحكمه مزاج غلبت عليه الأعصاب . أما الناس فقد رأوا منه على الأقل رجلاً ينضو عن نفسه الضعف والخمول كما تنضو الأفعى عنها أديمها ، وعاد إلى ما كان عليه من خلق الزعيم القوي ، وأظهر من شيم الملوك ما هو جدير بولاء الناس وخضوعهم ، وأصبح وليس في نفسه إلا أن يجمع كل ما عنده من الموارد ويتجهز للحرب مع الفرس .

ومع ذلك فقد إتخذ هرقل الحيطة في أعماله ، فبينما كان يستعد للحرب عول على أن يفاوض قائد الفرس في أمر الصلح[٢] ، فزاره بنفسه في مدينة

---

(١) كتاب ليبو « Histoire du Bas Empire ed. de Saint Martin » (الجزء الحادي عشر صفحة ١٩ و ٢١) .

(٢) جاء في كل من (ديوان بسكال) وكتاب (تيوفانز) لفظ (شاهين)*[٢٠] أنه الاسم وقال (نيقفوروس) إن الاسم هو (سايتوس)*[٢١] أي شاهين وهو الذي يعزي إليه فتح مصر (أنظر ما سبق في هامش صفحة ١١٠) وقد جاء بوضوح في ديوان بسكال أن (ساين) هو فاتح (خلقيدونية) الأول وجاء فيه بوضوح مثل ذلك أن (خوريام) ويسميه (سالفاراس)*[٢٠] أي (شهر - ورز) هو الذي كان قائد الفرس في فتح خلقيدونية بعد عشر سنوات وقال إنه وصل هناك سنة ٦٢٦ ولا يمكن أن يكون الخبران صحيحين ، لكن الخلط بين شاهين وشهر - ورز محير وليس عجيباً ، ويسمى جبون القائد الأخير (Sarbaraza) ويتكلم بعد ذلك بصفحتين عن قائد اسمه (Sarbar) والاسمان علمان على شخص واحد ولو أن الظاهر أن (جبون) لا يعرف ذلك . وقد جعل جبون (ساين) قائداً =

(خلقيدونية) . وقد نصح الناصحون للإمبراطور أن يوفد رسلاً إلى كسرى يطلب منه الصلح ، وقالوا إنه لا بد يجيبه إلى ذلك ، فأرسل ثلاثة من خاصته وبعث معهم كتاباً لا يزال باقياً إلى اليوم ، وأرسل معهم هدايا ذات قيمة ، وأدى الرسل أمانتهم وأفضوا بالكتاب إلى الملك الأعظم ، فقبل منهم الهدايا ولكنه أجاب على الكتاب رداً قاطعاً جاهماً إذ قال : « قل لمولاك إن دولة الروم من أرضي وما هو إلا عاص ثائر وعبد آبق ولن أمنحه سلاماً حتى يترك عبادة الصليب ويعبد الشمس »[1] .

فأحدثت تلك السبة المقصودة في ردّه هذا هزة عنيفة أيقظت نفوس الروم من رقدتها ، وأظهرت لهم من جديد أن تلك الحرب كانت دينية . فثارت حفيظة القوم وتملكتهم الحماسة ، فوجد الإمبراطور فيهم عند ذلك ما شاء لتمام خطته الجديدة . وقد قيل إن هرقل عندما أرسل رسله إلى كسرى قد بعثت إلى أعدائه

= في (خلقيدونية) ويجعله يسير مع رسل هرقل ويقول إن كسرى سلخه حياً ولكن (تيوفانز) يقول إنه مات من الغم والمرض بعد هزيمته ببضع سنين وقد مثل كسرى بجثته . ويقول (سبيوس) إن شاهين أغار على (فبادوقيا) في سنة ٦١٠ ثم اشترك بعد ذلك مع خوريام ولكن (سبيوس) يقول إن (خوريام) سار عند ذلك إلى (خليقدونية) وقاد الجيوش هناك ويذكر المقالة التي قالها هرقل عند ذلك في (خلقيدونية) وهذا هو الحق لا شك فيه إذ كان (شاهين) في مصر .

(١) قد أورد (تيوفانز) بعض هذا الرد وأورد المؤرّخون الفرس البعض الآخر . (أنظر الجريدة الأسيوية السلسلة السادسة ١٨٦٦ الجزء السابع صفحة ٢٠١) وقال (سعيد بن بطريق) إن كسرى لما ضيق على القسطنطينية أرادت المدينة أن تسلم إليه ولكن هرقل أرسل إليه ١٠٠٠ تالان (وكل تالان نحو مائتي جنيه) من الذهب والفضة وألف عذراء وألف حصان وألف خلعة من الحرير . وقد أخذ عنه (جبون) هذه القصة ولعلها غير جديرة بالتصديق فهي تتناقض مع بقاء الفرس عشر سنين في (خلقيدونية) وهذا أمر غير متنازع فيه ، ولم يفسر (جبون) ذلك التناقض . ولا يذكر (ديوان بسكال) شيئاً من ذلك مع أنه كتب في ذلك العصر . ولعل هذه القصة لا تزيد على أن تكون رواية متأخرة لقصة الوفد الذي ذكرناه في متن كتابنا ، وقد روى (سبيوس) رواية أخرى عن خبر كتاب كسرى إلى الإمبراطور .

من الهمج ليهادنهم إلى حين[1] ، فأمن بذلك أن يأتيه العدوّ من ورائه من ناحية الأرض المتصلة بالعاصمة . وقد روى أنه اتفق فيما بعد مع قبيلة من قبائل الترك في شمال بلاد الفرس على أن يمدّه شيخها بأربعين ألفاً من خيله ، وأن يجزيه نظير ذلك بأشياء منها أن يزوّجه بـأخته (أودوقيـا) . ولكن هذا العهـد لم ينفذ لموت شيخ القبيلة الذي اتفق معه . على أنه من أشق الأشياء أن نجد الدليـل القاطع على وجود السلام في غرب العاصمة[2] فإن قبائل الآفار كانت لا تـزال تجوس خلال الديار في سنة ٦٢٢ أو سنة ٦٢٣ تخـرّب فيها ، وكـادوا يوقعـون بهرقل نفسه ثم يأخذون العاصمة بمكيدة دنيئة دبروها . ثم جاء جيش من الآفار عدّته ثلاثون ألفاً في سنة ٦٢٦ وحاصر المدينة حليفـاً للفرس الـذين كانـوا في مدينة (خلقيدونية) وكان قائدهم عند ذلك على ما يلوح هو (شهر ـ ورز) الذي قدم منذ قليل . وعلى ذلك لم يكن السلم بين الروم والآفار سلماً صحيحاً ولم يدم طويلاً . وأكبر الظن أن هرقل كان على بينة من أمر العهـد الذي كـان بينه وبين الآفار عالماً بقدره الحقيقي موقناً أن سلامة عاصمته أثناء غيابه إنما تكون بقوة حصونهـا وسهر السفن الحـربية على سـلامتها . وكـان إقبال النـاس على الحرب عندمـا ندبهم إليها عظيماً ، فاستطاع أن يجمع جيشـاً كبيراً ويجهـزه ، وبلغت عدته مع من اجتمع إليه فيما بعد مائة وعشرين ألفاً . وكانت خـطته أن يبـدأ أول شيء فيختار ميـداناً يستـطيع أن يـدرب فيه جنـوده ويعـودهم النـظام ويعلمهم حركات الحرب واستعمال السلاح . وفي أثناء ذلك يجمع في خزائنه الذخائر والمؤن الكثيرة . فإذا ما تم له ذلك وأصبح جيشه صالحاً للقتـال خرج قاصداً إلى قلب بلاد الفرس ليطعنها فيه . ولهذا عزم على أن ينقل جيشـه إلى

---

(١) يجعل (فيدرينوس) هذا الصلح في السنة الحادية عشرة من حكم هـرقل أي في سنـة ٦٢١ أو سنة ٦٢٢ .

(٢) لعل رواية (تيوفانز) عن هذا الأمر صحيحة ولكن من الشاق أن يدرك الإنسان تواريخه أو يوفق بينها وبين ما جاء في الكتب الأخرى ، هذا مع اعتبار الخطأ الثابت في طريقته في التاريخ فإن الهجوم على هرقل إذا وقع في سنة ٦٢٣ فـإن عودتـه إلى القسطنـطينية من ميدان القتال وإقامته بها بضعة أسابيع لا بد تكون قد وقعت في الشتاء .

خليج (أيسوس) في الركن الشمالي الشرقي من البحر الأبيض المتوسط ، وأن يجعل (قليقيا) مقره . وكانت تلك منه جرأة عظيمة ساعده عليها أنه كان يملك ناصية البحر لا منازع له فيه وأن وراءه من السفن عدداً جد عظيم .

وإنه ليتبين من هذا أكبر خطأ وقع فيه الفرس، فإنهم لو كانوا أعقبوا إنتصارهم الأول في البر بتعلم حرب البحر والانتصار فيه لما استطاع أحد أن يدفعهم عن ملك دولة الروم[1]. وقد كان من حسن حظ المدنية المسيحية أن الفرس لم يكونوا من أهل البحار ولم يعرفوا عند ذلك مقدار حاجتهم إلى ملك البحر إذا هم شاءوا أن يتم لهم النصر، وأن يبقوا على ما فتحوه. وقد جاء في كتاب (سبيوس) أن كسرى عندما بعث رده الشنيع إلى هرقل أمر جنده أن يعبروا إلى (بيزنطة)، فجهزوا عدداً كبيراً من السفن وأعدوا عدتهم للحرب في البحر ، فلما سار أسطول الفرس قابلتهم سفن الروم الكبيرة فصدمتهم صدمة انهزموا لها هزيمة قبيحة ، ومات منهم أربعة آلاف رجل[2] ، وتحطمت سفنهم كلها ووقع في أنفسهم الفشل « فلم يجرأوا بعد على مثل هذا العمل » وظلوا مقيمين نحواً من عشر سنوات لا ينتفعون بما في يدهم من ثغور البحر أمثال (خلقيدونية) وميناء الإسكندرية العظيمة وما إليها من موانىء الشام وموانىء بلاد المغرب في (ليبيا) و (بنطابولس) ، وكانوا يستطيعون لو شاءوا أن يجمعوا في هذه المواضع سفنهم ويعدوها للحرب فيسيطروا بها على بلاد البحر الأبيض المتوسط . فقد كانوا يستطيعون أن يجهزوا من الإسكندرية وحدها أسطولاً به عدته ورجاله يناجزون به أساطيل الروم وينابذونه على سواء في أمل النصر . ولكن الفرس كانوا جنوداً اعتادوا حرب البر ، فلم يفطنوا إلى قيمة البحر والسيادة فيه ، ولم يتعلموا من الحوادث درساً تعلمته جمهورية الروم القديمة بعد لأي ، ولكنها منذ لقنته برعت فيه

---

(١) قد سعى كسرى بعد احتلال (خلقيس) أن يجهز أسطولاً ولكن الأشياء التي أعدها لبنائه ضاعت في حريق فعدل عن ذلك الأمر .

(٢) وقد ذكر (توما الأرظروني) أنه قد قتل ٤٠٠٠ جندي مدرع (أنظر كتاب Brosset « Collection d'Historiens Armeniens » الجزء الأول صفحة ٨٢) .

واستفادت منه أثناء حربها مع قرطاجنة ، وهو الدرس الذي تلقنته العرب فيما بعد سريعاً في فطنة وذكاء قبل أن ينتهي ذلك القرن السابع . وعلى ذلك فقد ظلت جنود الفرس مرابطة بالشاطىء ثابتة عليه ، وكان أثرها في الحرب ضئيلاً لا ترزأ عدوها بالهجوم إلا قليلاً . فرأى هرقل بعد قليل أنه يستطيع أن يتركها حيث هي لا يعبأ بها ، فكان الروم إلى ما بعد عشر سنوات من فتح الفرس مدينة (خلقيدونية) يسيرون بسفنهم آمنين لا يخشون شيئاً في المضيق بين جنود الفرس على ضفة وجنود الهون على الضفة الأخرى[1] .

وقبل أن يبدأ هرقل رحلته حول آسيا الصغرى أعدّ العدّة لكي يجهز ما يلزم لها من النفقة ، وذلك بأن اقترض من الكنائس كل ما تستطيع إقراضه من كنوز عظيمة من آنية الذهب والفضة ، ثم سكها نقوداً . وكانت تلك وسيلة سيئة فيها كثير من الإسراف أمدّ بها خزائن الدولة ، ولكن لعله لم يكن دونه وسيلة سواها . فلما أن تم الجهاز استخلف هرقل على الحكم ولده وجعل عليه وصيين وهما البطريق (سرجيوس) والنبيل (بونوس) ، ثم انتعل نعلاً أسود ودخل الكنيسة الكبرى وخرّ ساجداً يصلي لله يسأله المعونة والبركة فيما هو مقدم عليه[2] . وكان ممن شهد صلاة الإمبراطور رجل اسمه (جورج البيسيدي) وكان شماس الكنيسة وسادتها فقال : « أسأل الله أن تصبغ نعلك في دماء عدوّك حتى يصبح نعلك الأسود وقد أحمر لونه » وتلك لعمري دعوة تقى نغتفرها لشاعر الملك[3] لا لقسيس الجيش وإمامه . إذ يظهر أن (جورج) هذا الذي ذكرناه قد

---

(١) ديوان بسكال (ميني Pat. Gr. الجزء ٩٢ المجموعة ١٠١٤) .

(٢) جاءت هذه القصة في (قيدرينوس) وقد ذكر الكلمات التي قالها هرقل في صلاته .

(٣) يمكن أن نجد في كتاب ميني « Pat. Gr. » الجزء ٩٢ تلك القصائد السخيفة التي قالها الشاعر (جورج البيسيدي) في حروب الفرس والآفار ونحن موردون هنا بعض أسطر من « هرقليته » التي تحتمل الترجمة وهي تصف الروح التي أحياها هرقل :

خشي الروم من الفرس وقد	هربوا في الحرب من وقع الأسل
وغدوا والجبن من عادتهم	منذ حل الخوف فيهم والفشل
من سوى قولك أحيا موتهم	فكساهم ثوب عزم وأمل؟ =

سار مع الجيش شاعراً وقسيساً في وقت واحد . وبدأ هرقل رحلته في يوم الإثنين يوم عيد الفصح لسنة ٦٢٢[١] ، فسارت سفنه من العاصمة نحو الجنوب ، فلقيت في سبيلها عاصفة تكشف هرقل فيها عن نفس لها ثبات القائد ورباطة جأشه ، وقوة النوتي وصبره على مقابلة الأخطار . ثم سارت السفن تشق حيازيمها الماء حتى بلغت مرساها بغير أن تنزل بها نازلة . وهبط من فيها من الجند إلى البر وأقاموا معسكراً في مدينة (أيسوس) وحلت منهم جماعة في شعب (بيلي) وهو على الحد الفاصل بين الشام و (قليقيا)[٢] .

وليس قصدنا أن نصف ما كان من الحوادث في مدة السنوات الست التي كان هرقل يشن فيها الغارة على بلاد الفرس . فقد كانت جنوده مظفرة منذ بدأ

= من سوى عزمك قد بدلهم باعثاً في كل قلب ما انخذل؟
ما سوى حزمك قد أنشرهم بعد أن كانوا كأحجار الجبل
يثقلون الأرض من كثرتهم ثم لا يغنون في أمر جلل

(١) قد أورد (تيوفانز) تاريخ تلك السنة إيراداً دقيقاً وهو يقول إنها هي السنة التي ظهر فيها محمد أي سنة الهجرة وهي سنة ٦٢٢، وجاء نفس التاريخ في (ديوان بسكال) وعلى ذلك نستطيع أن نجعله علماً في مفازة هذا العصر المجهول. وقد ذكر (جورج البيسيدي) وكان مع هرقل في سفره في البحر، ثم ذكر (تيوفانز) و (قيدرينوس) أن الامبراطور غادر العاصمة في يوم الفصح (الإثنين). والظاهر أن (جبون) يأخذ هذا عنهم ولكنه يجعل الفصح يوم الثلاثاء، وهذا بلا شك خطأ في فهم ما جاء في النص اليوناني «Feria Secunda» والعيد الأول «Feria Prima» هو بالطبع يوم الأحد وقد خلط (تيوفانز) بين الحملة الأولى والحملة الثانية.

(٢) قد أورد (جورج البيسيدي) قولاً عاماً غير مستوف. وأما (سبيوس) فإنه يؤكد هذه الرواية ويتممها. وقد ذكر (سبيوس) أن الواقعة التي كانت في جوار أنطاكية لم تكن هزيمة لأحد الجانبين على أنه قد قتل فيها خلق كثير منهما ثم رجع الروم إلى (بيلي) فهزموا فيها الفرس فجاء الفرس إلى (طرسوس) ففتحوها وفتحوا (قليقيا) جميعها. فهل معنى هذا أن الحملة أخفقت فيما قصدت إليه؟

أما (جورج البيسيدي) فإنه لا يذكر شيئاً عن مثل هذه النتيجة ولكنه يذكر أن الإمبراطور عاد إلى بيزنطة .

القتال ، واستطاع أن يجعل ممن معه من الجند ـ ولم يكن فيهم كبير أمل في مبدأ أمرهم ـ جيشاً جليلاً . فكان كمن إتخذ من مادة خسيسة سيفاً حساماً ثم جعله في يده يبطش به في عدوه بطش بطل مغوار بارع في القتال وكان هرقل ذا أيد وقوة ، نجداً هيكلاً ، ماهراً في نزال القرين ، تملأ قلبه الغيرة ويثور به إيمان قوي بأنه فارس الصليب ، وعليه أمانة يؤديها في نصرته ، ويؤثر أن يشارك جنده في تحمل المشاق . وكانت له في الجيش هيبة يملك أمره وزمامه ، فإذا اختط خطة كانت سريعة موفقة ، وإذا طرأ طارىء كان رابط الجأش مالكاً أمر نفسه . ولهذا وذاك مما بدا من صفاته بين الناس المثل الأعلى للزعيم واستطاع أن يغلب عدوه في موطن بعد موطن وينتصر انتصاراً لا مثيل له .

وكانت غزوة (قليقيا) كأنها الوتد يشق قلب الأرض التي كان الفرس يملكونها عند ذاك فيما بين النيل والبوسفور . وفي السنة التالية أرسل بعث آخر إلى (طرابزون) فكان كأنه وتد آخر أرسل ليلاقي أخاه آتياً من شمال آسيا الصغرى . فكان دفع هذين البعثين عظيماً ، ثم توالت الوقعات فاضطر الفرس أن يدعوا جيوشهم من الإسكندرية و (خلقيدونية) لتنصرهم . ولا ندري متى كان ذلك ، ولكن المؤرخين مجمعون على أن فتح كلا المدينتين كان في وقت واحد ، وتخليتهما كذلك في وقت واحد . ويختلفون بعض الإختلاف في مدّة حلول الفرس بهما . فيقول المكثر إنها كانت في كلا الحالين اثنتي عشرة سنة ، ويقول المقلل عشر سنوات . ولن نخطىء الصواب خطأ بعيداً إذا نحن جعلنا تاريخ جلاء الفرس عن ضفاف البوسفور والنيل كليهما في أول سنة ٦٢٧[1] للميلاد .

---

(١) جاء في (ديوان بسكال) أن مجيء الآفار والخاقان إلى بيزنطة كان في ٢٩ يونيه سنة ٦٢٦ ويقول إن ذلك كان بعد وصول (شاه ـ ورز) ليتولى القيادة في خلقيدونية . وقد أخفق الحصار لأن سفن الروم بقيت مسيطرة على البحر فحالت دون ما كان في النية القيام به من إجتماع الآفار والفرس واشتراكهما في القتال ، فاضطر الخاقان إلى الرجوع خاسئاً ومعه جنوده وقد نال منهم الفشل وفتك بهم الجوع وما مضت سنتان بعد ذلك حتى إنتهى القتال .

وتكللت أعمال الحرب بفتح (دستجرد) في فبراير سنة ٦٢٨ وهي مدينة على ثمانين ميلاً من المدائن وهي (طيسفون) نحو الشمال . وفي الرابع والعشرين من ذلك الشهر فرَّ كسرى هارباً هرباً مهيناً ، ثم قبض عليه وسجن ولقي على يد خلفه (شيرويه) عذاباً شديداً وذلاً ، ثم قتله بعد أيام من ذلك . وأحرق قصر كسرى فلم يبق منه شيء وذهب طعمة للحريق كل ما به من التحف والكنوز[1] التي لم يستطع نقلها ، وأطلق من كان في السجون من أسرى مصر والشام وهم كثيرون وفيهم (زكرياس) بطريق بيت المقدس ، وأعيد الصندوق الذي كان به الصليب المقدس لم يمسسه سوء إلى هرقل[2]، وانتهى القتال إلى صلح بين دولتي الروم والفرس . وهكذا انتهت تلك الحرب الصليبية الكبرى بنصر عجيب قل مثله في التاريخ فيما يثيره في النفوس .

---

(١) يظهر (تيوفانز) الأسف لتدمير « أبدع الأبنية وأعلاها فناً وأجمل القصور » ويذكر ما كان هناك من حدائق الحيوان وبيوت الطيور . ويقول إنه قد ضاعت في الحريق مقادير عظيمة من عود الند والبهار والسكر والزنجبيل والكتان والحرير والطنافس والمعادن النفيسة . ويذكر الكتاب من أهل الشرق أخباراً مبالغاً فيها عن الأموال والعجائب التي كانت في قصر كسرى فجاء مثلاً في « Tarikh Regum Persiae » (صفحة ١٦٠) أنه قد كانت هناك آلة تتحرك بنفسها بها مرصد ينبيء بالمطر والرعد وغير ذلك . وجاء في « تاريخ جاهان آرا » (ترجمة السير و . أوسلي صفحة ٦١) أن كسرى كان عنده في قصره ١٥,٠٠٠ جارية تعرف الغناء و ٨٠٠٠ رجل في حاشيته و ٢٠,٥٠٠ من الخيل و ٩٦٠ فيلا ، وكذلك كان عنده كأس لا ينضب الماء منها ويد مبسوطة من العاج إذا وضعها في الماء عند ميلاد طفل انقبضت وأنبأت عن طالعه وقطعة من الذهب لينة كالشمع ومنديل إذا لحقه الوسخ وضع في النار فعاد نظيفاً . أنظر كذلك كتاب (جبون) . « Decl. And Fall » الجزء الثامن صفحة ٢٣٠ (طبعة أدنبرج سنة ١٨٤٨) .

(٢) ليس من الواضح هل استرجع هرقل الصليب من شيرويه في الحال فقد جاء في Col. d'his. Armeniens (Brossot) الجزء الأول صفحة ٨٦ أن هرقل دعا خوريام (شاه ـ ورز) ووعده بملك فارس إذا جاء له بالصليب . وجاء في (بروسيه) بعد ذلك في هامش أن خوريام كان في (خلقيدونية) وقتئذ وأظنه مخطئاً في ذلك لأسباب : (١) ترك خوريام (خلقيدونية) قبل سقوط كسرى (أنظر درابيرون صفحة ٢٥٨) ، (٢) إذا لم يكن الأمر كذلك لم يكن الوعد ممكناً إلا بعد موت (شيرويه) . وقد جاء في (درابيرون) أن هرقل =

وجاءت البشرى يحملها رسل الإمبراطور بانتهاء الحرب والنصر في يوم عيد العنصرة الذي كان في الخامس عشر من شهر مايو من السنة ذاتها وقرئت من منبر كنيسة أيا صوفيا[1] وكان لهذا النصر وقع كبير في نفوس الكتاب في ذلك

= عاد إلى قصره بقرب (خلقيدونية) ونزل قائده (تيودور) ليأتي بالصليب من (خوريام) . فلما أتم (تيودور) ذلك عاد به إلى القصر فحمله هرقل في البحر وسار ظافراً إلى القسطنطينية وكان هذا بعد أربعة أشهر أي في ١٤ سبتمبر سنة ٦٢٨ (صفحة ٢٧٦ ـ ٧) . ويمكن أن يختلط هذا التاريخ بتاريخ عيد إعلاء الصليب في بيت المقدس . وقد اختلف (سبيوس) في ذلك مع إتفاقه في أن هرقل أخذ الصليب من (خوريام) وليس من (شيرويه) وأما بعد ذلك فإنه يصف أن هرقل لقي (خوريام) بنفسه ووعده بملك فارس في يوم موت (شيرويه) في أغسطس سنة ٦٢٨ في نظير تسليمه الصليب إليه . فأقسم (خوريام) على ذلك فذهب إلى المدائن فقتل الملك الطفل (أردشير) وكثيراً من الأشراف ووجد الصليب وبعث به مع رسل إلى هرقل سريعاً . وإذا صح هذا لم يمكن أن يكون الصليب قد وصل إلى هرقل قبل عيد الميلاد من سنة ٦٢٨ بزمن طويل أو بزمن ما . ولكن ليس من الواضح لِمَ لم يأخذ هرقل الصليب من (شيرويه) بل طلبه من (خوريام) ؟ ولم كان (خوريام) أقدر على الإتيان به أو أرغب في ذلك ؟ ويجدر بنا أن نذكر أن (سبيوس) يقول إن (خوريام) كان في الإسكندرية عندما أتاه كتاب هرقل يدعوه إلى لقائه . ولا شك في أن هذه كانت إسكندرية الشام لأسباب : (١) اعتاد (سبيوس) إذا أراد إسكندرية مصر أن يذكرها « إسكندرية المصريين » (٢) لا بد أن يكون (خوريام) قريباً فإن القصة التي تركته في (قيادوقيا) تقول إنه لا يزال « في الغرب » بعد أن فتح هرقل (المدائن وأنه رفض أن يساعد كسرى . (٣) ينكر الطبري ذهاب (شاه ـ ورز) إلى مصر ويقول المسعودي فسار إليه من أنطاكية من بلاد الشام شهريار (طبعة باربييه دي مينار الجزء الثاني صفحة ٢٣٣) .

(١) قد أدى لنا (ديوان بسكال) خدمة جليلة بأن قال عرضاً إن يوم ١٥ مايو وهو يوم الاحتفال كان أيضاً يوم (أحد العنصرة) فذلك يثبت تاريخاً علماً في حوادث ذلك العصر . والظاهر أن هذه الحقيقة لم يدركها أحد الإدراك الواجب ولكنها مع ذلك حقيقة ذات شأن كبير ، فإن السنة الوحيدة التي وقع فيها يوم ١٥ مايو في يوم أحد هي سنة ٦٢٨ . وتدل البيانات في « كنز التواريخ » على أن يوم الفصح من عام سنة ٦٢٨ هو يوم ٢٧ مارس . وما دام الأمر كذلك فلا بد أن يقع عيد العنصرة يوم ١٥ مايو وهذا إتفاق صريح مع ما جاء =

العصر ، ولا شك أنه قد أقيم من أجله ما اعتادوا إقامته في ذلك المكان العظيم

= في الديوان فكما أن تاريخ بدء هذه الحرب التي قام بها هرقل قد ثبت وقوعه في سنة ٦٢٢ لأنه كان في سنة هجرة سيدنا محمد قد ثبتت كذلك نهايته بوقوعها في يوم العيد المذكور في الديوان . والمدة بين بدئه ونهايته ست سنوات ، وهو ما ينص عليه كل المؤرخين ، وعلى ذلك يثبت لنا هذا الأمر . وقد جاء ما يؤكد هذا التاريخ في كتاب (Drapeyron) صفحة ٢٦٧ ولكنه في الصفحة السابقة على تلك قد ذكر الخطاب الذي قرىء في كنيسة (أيا صوفيا) في يوم ١٥ مايو وقال إنه قد كتب في أرمينية بعد يوم ٨ مايو ! وأما (تيوفانز) فإنه يقول إن الحرب انتهت في سنة ٦٢٦ ويجعل زيارة الإمبراطور لبيت المقدس في السنة نفسها ومقدمة الكتاب الذي كتبه (زكريا) من أسره تفيد أن موت كسرى كان في سنة ٦٢٧ (ميني « Pat. Gr. » الجزء ٨٦ المجموعة ٣٢١٩ وما بعدها) وأن عودة (زكريا) كانت في الربيع التالي سنة ٦٢٨ ولكن أين كان زكريا في هذه الأثناء ؟ إنه لم يذهب مع الإمبراطور بغير شك إلى القسطنطينية وقد جاء في كتاب (تاريخ جاهان آرا) (صفحة ١٢٥ هامش ٢) أن موت كسرى كان في ٢٠ جمادى الأولى سنة ٧ وهذا تعيين دقيق ، ولكن هذا التاريخ يوافق ١٥ سبتمبر سنة ٦٢٨ وهذا غير مقبول فإن الأدلة قائمة على أن ذلك كان في شهر فبراير ولكنا إذا خطأناه في الشهر وجب أن تكون السنة أيضاً مخطئة لأن فبراير سنة ٦٢٨ كان في سنة ٦ للهجرة ويقول المؤرخ العربي (مكين) إن خلع كسرى وموته كان في سنة ٥ للهجرة ولكن الكاتب في الجريدة الأسيوية (السلسلة ٦ الجزء ٧ سنة ١٨٦٦) يأخذ بما جاء في (سبيوس) وسواه من الكتاب الأرمن ويجعل مدة حكم كسرى من ٥٩٠ إلى ٦٢٨ وهذه التواريخ تتفق كل الإتفاق مع ما جاء في (الطبري) وهو حجة فيما رواه عن تاريخ الفرس . وهو يقول إن هجرة سيدنا محمد كانت في سنة ٣٢ من حكم كسرى أي سنة ٦٢٢ وأن موت كسرى كان في السنة الثامنة والثلاثين من حكمه أي سنة ٦٢٨ ، وإن إتفاق هؤلاء المؤرخين المختلفين مع ديوان بسكال لجدير بأن يُعَد برهاناً قاطعاً على أن التاريخ الذي عزل فيه كسرى وقتل هو شهر فبراير سنة ٦٢٨ ، ومع ذلك فإن هذا التاريخ لا يتفق كل الإتفاق مع التاريخ الذي أخذنا به لفتح الفرس بيت المقدس وهو سنة ٦١٥ إلا إذا قللنا مدة الفترة التي كانت فيها المدينة خاضعة للفرس وهي تقدر عادة تقديراً غير دقيق فتجعل أربعة عشر عاماً ، وهذا المجموع لا يمكن أن يعد صحيحاً إلا إذا اعتبرنا أن الجزء من سنة ٦١٥ كأنه سنة كاملة وإن الجزء من سنة ٦٢٨ كذلك كأنه سنة كاملة .

في مواسمهم الجليلة وحوادثهم الكبرى من احتفال باهر وزينة بالغة[1] .

ولكن الإمبراطور اضطر إلى البقاء حيناً في بلاد الشرق كي يتم عمله في القضاء على عدوه ونشر السلام على بلاده . فلما أن خرجت جنود الفرس الباقية في حصون الشام وآسيا الصغرى على بكرة أبيها وعادت إلى بلادها تحت حراسة جنوده وعاد البطريق (زكرياس) إلى مقره في بيت المقدس عاد هرقل إلى وطنه بعد أن غاب عنه ست سنوات قضاها في نضال وقتال ، ودخل القسطنطينية مظفراً منصوراً يحمل معه الصليب المقدس الذي خلصه ممن لا يعبدون الله .

---

(١) يجب على كل من يهتم بأمر هذا الأثر العظيم من فن البناء البيزنطي أن يقرأ كتاب « St. Sophia Cons. » (Lethaby and Swainson) ففي هذا الكتاب أخبار كثيرة عن تاريخها ووصف بنائها وفيه على الخصوص وصف كثير للمحراب .

الفصل العاشر

إعلاء الصليب

حج هرقل إلى بيت المقدس ومعه الصليب - اليهود في طبرية - احتفل بإعلاء الصليب في كنيسة القيامة - أعلى ما بلغه الإمبراطور من المجد في حياته - يوافق على مقتلة في اليهود - صوم هرقل - موت البطريق (زكرياس) - خلفه (مودستوس) - رأي الإمبراطور في توحيد مذاهب الدين - قيرس مطران فاسيس يولى بطرقة الإسكندرية .

في السنة التالية وهي سنة ٦٢٩ سار الإمبراطور يقصد الحج إلى بيت المقدس في أول الربيع ، وأراد عند ذلك أن يعيد الصليب إلى محله ، وكان في هذه الأثناء مودعاً في كنيسة أيا صوفيا .

وقد ذكر التاريخ حادثتين في رحلته هذه : الأولى أن بعض المؤرخين يذكرون أنه قد أتى عند ذلك رسول إلى حمص[١] (ويقول بعضهم إلى أذاسة) من قبل النبي محمد عليه الصلاة والسلام[٢] بكتاب يدعو فيه هرقل إلى

---

(١) ذكر الموضعان كلاهما ولكن ليس من المحتمل أن يكون هرقل قد حاد عن طريقه وذهب إلى (أذاسة) ولو أنه ذهب إلى تلك المدينة وأقام بها مدة طويلة فيما بعد . والحق أن البلدين يكثر الخلط بينهما في أخبار هذا العصر ، ولكنا نظن أن تلك الرواية لا موضع لها هنا فإن الكتب قد وصلت إلى هرقل قبل آخر سنة ٦٢٧ (أنظر ما جاء بعد في هامش ٢ صفحة ١٧٥ وفي هامش ٢ صفحة ١٧٦) .

(٢) إضافة (النبي) والصلاة عليه إضافة من عند المعرب وقد سار على هذه السنة في ذكر اسم الرسول عليه الصلاة والسلام جرياً على عادة المسلمين .

الإسلام ، ولعل هذه الحادثة لم تقع عند ذلك بل كانت قبل ذلك في حياة الملك الأعظم (كسرى) . وأما الحادثة الثانية فهي أن الإمبراطور عندما بلغ طبرية أرسل إليه يهودها وفداً معهم الهدايا العظيمة يطلبون منه عهداً يضمن لهم السلامة . فقد ذكروا ما أتوا من الجرائر في المسيحيين وخشوا أن يقتص الإمبراطور منهم ولكنه مَنَّ عليهم بالعهد ، وكان من حرص اليهود وحيطتهم أن أخذوا منه بذلك العهد كتاباً .

وسار الإمبراطور بعد ذلك في سبيله إلى أن لاحت له المدينة المقدسة عن بعد ، ومن السهل أن تتصور سير موكبه في خيل تلمع عدتها ، من حديد يبرق[1] وألوية على الخيل تخفق ، ومن رماة بالنبال وكماة في يد كل رمحه وعليه درعه وقد احتقب كنانته ، وفي وسطهم سار هرقل في خاصته[2] وهم جميعاً قطعة تتلألأ من الذهب وزاهي الألوان ، حتى إذا ما اقترب من المدينة خرج إليه موكب من القسوس والرهبان وعلى رأسهم (مودستوس) ، يحملون الأناجيل والشموع والمجامر ، كما كانت عادتهم في احتفالاتهم ، وجاءت من

---

(١) كانت عدة الفارس الروماني المعتادة في ذلك الوقت لأمة من الصلب ودرعاً وقفازين وحذاءين من الصلب (أنظر كتاب Oman « Art ot War in The Mid. Ages. » صفحة ١٨٤ وما بعدها) وقد قال الكاتب إن العدة التي يصفها (موريق) في كتاب (Strategicon) سنة ٥٧٨ هي نفسها العدة التي يصفها (ليو الحكيم) في كتاب (Tactica) سنة ٩٠٠ للميلاد وكانت الأعلام كذلك تحمل بأمر حربي وقد ذكرت كثيراً ـ ذكرها مؤرخو اليونان ، وكثيراً ما كان المسلمون والروم يحملون ألوية من الحرير .

(٢) روى (سبيوس) أن الإمبراطور استصحب كل حاشيته في هذه الرحلة . ويمكن أن ندرك صورة من موكب سيره إذا قرأنا وصف ما كان معتاداً في القرن الخامس في كتاب الأستاذ (Bury) فكان « حول الجسم كله ثوب ثمين من النسيج القرمزي وكانت رسوم الأفاعي تلمع فوق ثيابه الحريرية ، وكانت عدة جواده كلها من الذهب فإذا ما ركب فوق سرج أبيض كالثلج كان يحيط به الحرس يحملون الرماح لها أسنة من الذهب والدروع في وسطها الذهب وفيها عيون من الذهب » (أنظر كتاب « Later Rom, Emp. » الجزء الأول صفحة ١٩٦) .

ورائهم جموع كبيرة من الأهلين . وهكـذا سار حتى بلغ البـاب الذهبي[1] في الجانب الشرقي من المدينة ، وكان في انتظاره هنـاك البطريق (زكرياس) فسلم عليه وأظهر الخضوع ثم أخذ يعنفه على فخامـة ملبسه ، وأمـره أن يخلع رداءه الأرجواني ويطرح ما عليه من الذهب حتى يقترب من المواضع الطاهرة بما يليق بها من الخضوع والخشوع . وسار الإمبراطور المظفر بعد ذلك في لباس الحاج المنيب إلى ربه ، وكان يرى أينما ولى وجهه آثار الخراب الذي جره الفرس على البلاد منذ أربعة عشر عـاماً . ثم شكـر (مودستـوس) على ما بـذله في سبيـل الإصلاح والعمارة ، ولا سيما إعادته بناء كنيسة القيامـة وكنيسة الـرأس وكنيس قسطنطين ، ثم كان بعد ذلك الاحتفال الأكبر المشهور باسم (إعلاء الصليب) ولا تزال ذكراه إلى اليوم تحييها الكنيستان الشرقية والغربية كلتاهما في يوم ١٤ سبتمبر .

وتروي قصة عن الصليب المقدس أنه بقي محفوظاً في صنـدوقه تحليـه الجواهر ، ولم تقـع عليه نـظرة نجسـة من أعين الكفـار في مدة وقـوعه في يـد الفرس ، حتى إن كسرى نفسه لم يجرؤ على أن يدير مفتاح ذلك الكنز الطاهر ، أو يكشف غطاءه . وأكبر الظن أن الصليب لم تدركه يد التدمير لأمرين : أولهما أن الملك كان يخشاه ويحترمه مع أنه كان غير مسيحي ، وكانت خشيته نـاشئة من وهم خرافي ، وثاني الأمرين أن الصليب كان له في نفسه قيمة لما فيـه من الذهب والجوهر الذي يحيط به ، وكان كسرى يحب جمع التحف وآثار الفن . وعلى أي حال قد أرجع الصليب إلى كنيسة القيامة ووضع فيها على المذبح في احتفال باهر فخم .

---

(١) سد هذا الباب الذهبي في القرن الثاني عشر ولم يستعمل إلا في يوم أحد السعف وفي الاحتفال بإعلاء الصليب وذلك لأن هرقل دخل منه وهو عائد يحمل الصليب المقدس راجعاً به من الأسر الفارسي (أنظر كتاب « Pal. Text. Sec. » الجزء السادس مدينة بيت المقدس صفحة ١٤) .

وليس من الوهم أن نرى في هذا الإحتفال الباهر بإعادة الصليب أعلى ما بلغه الإمبراطور من المجد في حياته ، فقد أدرك عند ذلك قصارى السلطان والهيبة ، وطبق ذكره الآفاق . ولعله أحس عند ذلك أنه قد أدى أمانته وأتم أمره ، فقد قضى من قبل عشر سنين كان فيها مخذولاً ذليلاً ، يهوي به خور عجيب في النفس ، وهوت معه دولته حتى رغمت ، وضاعت منها قطعة بعد قطعة لا تحتمل أن تلمسها جيوش الهمج حتى تتداعى ، فلم يبق منها إلا أسوار العاصمة وما يليها من شريحة صغيرة من البحر تفصل بينها وبين جموع العدو الضاربة حولها . ثم نهض كما ينهض الحالم من سباته فأعجب العالم بما أظهر من مضاء في العزيمة وقوة في الجهاد ، ومن حماسة ثائرة ورأي في الحرب باهر ، ومن سرعة في بت الرأي وهيبة تخضع لها الرجال . وتلك لعمري صفات جعلته سيد قواد عصره لا يدانيه مدان ، وسارت الجيوش التي جمعها تحت لوائه يهديها بهدي عقله الراجح ، فغلبت الفرس وكانوا من قبل مغلبين ، وأزاحت نيرهم عن الدولة من ضفاف البوسفور إلى شواطىء (نهر الرس) ، ومن ثم إلى الأردن فالنيل . وفوق هذا وذاك استطاع أن يحفظ المسيحية من خطر كاد يدهمها من الوثنية إذ كانت على وشك أن تجتاحها . وأرجع من ملك الوثنيين أعز رمز لدين المسيح ، فكأن إرجاع الصليب إلى مشهده في المدينة المقدسة بمثابة الخاتم ضم الإمبراطور المظفر إلى الغازي الموفق في جهاده في سبيل الدين . وجملة القول إنه خلص دولة الروم وحفظ دين المسيح بعد أن كانا على شفا جرف هار من الضياع والدمار .

غير أنه منذ ذلك الوقت أخذ حظه يتعثر وخلقه يهن ويضمحل . وكان أول ما أمر به في أمور السياسة أن نكل باليهود تنكيلاً فظيعاً انتقاماً منهم ، وكان الناس والقسوس كلاهما يتسابق بالوشاية إلى الإمبراطور بهذا الشعب وإيغار صدره منهم ، يتهمونهم بأشنع من تهم الفرس ، وأنهم كانوا أشد منهم فتكاً بالمسيحيين وأفظع منهم جرماً في تدمير الكنائس وإحراقها . ولسنا ندري لعل تلك التهمة كانت صحيحة أو في شيء كثير من الصحة ، فإنه لأمر ما قد بادر اليهود إلى أخذ عهد من الإمبراطور يؤمنهم ، وقد كانوا ولا شك يحملون

للمسيحيين عداوة أشد مما كانوا يحملون لجيرانهم من أهل الوثنية . على أن هرقل لم يسارع إلى الأمر ، بل كان غير راغب في الإقدام على نقض عهده . فقال له قائل : إنه إنما أعطى العهد قبل أن يعلم بحقيقة ما كان منهم ، وإنه ما كان ليحفظ عهداً مع قوم خدعوه عنه ، وإنه لو كان قد علم بما فعله اليهود من فتك بالمسيحيين بالسيف والنار ، لما تردد في أن يقسو عليهم ويشتد في حكمهم ، إلى غير ذلك من الأقوال . وما زالوا به حتى أزالوه عن رأيه إما بعلو ضجيجهم وإما بالتماس الحجج لإحلاله من عهده . ولعل كلا الأمرين قد اجتمع على ذلك . فأمر أن يجلى اليهود عن بيت المقدس ويمنعوا أن يعودوا بعد ذلك إلى ما بعد أسوار المدينة بثلاثة أميال . ولكن ذلك النفي لم يكن أشد عقوبة نزلت بهم ، فإنه يلوح لنا أن هرقل قد أجاب المسيحيين من رعيته إلى كل ما طلبوه من الإنتقام ، وهناك وقعت في اليهود مقتلة تشبه أن تكون عامة[1] . ولكن البطريق ومطارنته أرادوا أن يزيلوا وساوس الإمبراطور وأن يطيبوا نفسه ويطمئنوا نفوسهم إلى ما كان ، فبعثوا إلى المدائن جميعها كتباً يأمرون فيها أن يصوم الناس أسبوعاً وأن تكون تلك سنة أبد الدهر . وما زالت تلك السنة باقية إلى يومنا هذا ، فإن أول أسبوع من الصوم الكبير عند القبط لا يزال اسمه (صوم هرقل) . ويمكن أن نقول إن القبط قد اشتركوا في تلك المقتلة لما كان بهم من ذحل وموجدة على اليهود منذ أيام فتح الفرس للإسكندرية .

والظاهر أن الإمبراطور قضى الشتاء في بيت المقدس . ويمكننا أن نستنتج من تاريخ الصيام المذكور أن مقتلة اليهود كانت في أول العام الذي بعده أي عام ٦٣٠ . وقد مات في ذاك الشتاء البطريق (زكرياس)[2] وولي مكانه على عرش البطرقة (مودستوس) عن رضى من الملك والناس جميعاً .

---

(١) جاء في المقريزي أن اليهود قتلوا « حتى لم يبق منهم أحد في دولة الروم ومصر والشام إلا من هرب أو اختفى » وهذا معناه أن المذبحة إمتدت إلى جميع أنحاء الدولة (أنظر ترجمة ملان صفحة ٧٠) ونجد تلك القصة أيضاً في كتاب سعيد بن بطريق .

(٢) جاء في كتاب (Acta Martyris Anastasii) (طبعة Usener صفحة ١٢) أن هرقل جاء =

ولسنا ندري أي البطريقين كان صاحب الرأي في مقتلة اليهود التي لطخت ذكر هرقل ، ولا شك في أن كلاهما قد رضي عنها وأقرها . ولكن الإمبراطور عندما أزمع السير إلى عاصمته استصحب (مودستوس) ليساعده على إقرار أمور الكنيسة وإعادتها إلى سابق عهدها بعد أن رجعت بلاد الشام إلى دولة الروم ، وليعمل على رد الكنائس التي كان كسرى قد جعلها للنسطوريين[1] والمنوفيسيين وإرجاعها إلى أصحاب مذهب الدولة (الأرثوذكس) . وكان مما قصد إليه الإمبراطور من صحبة البطريق أن يساعد كذلك في التماس الوسيلة لجمع مذاهب الدولة المنتضلة وتوحيدها ، وكان هذا من أعز ما يتمناه الإمبراطور . وقد بدا له الأمر ممكناً إذ كان عند ذلك بطل المسيحية وناصرها .

= إلى بيت المقدس في الخمسة عشرة الثالثة في السنة الثانية والعشرين من حكمه (وهذا يوافق السنة التي أولها سبتمبر سنة ٦٢٩) وأنه بينما كان هناك جاء جاثليق الفرس بكتاب إلى الإمبراطور وآخر إلى (مودستوس) وكان قد اختير قبيل ذلك بطريقاً . وهذا تاريخ ثان ثابت دقيق ورد في كتاب مؤرخ كان يعيش في ذلك العصر ، وقد جاء فيه عرضاً وعلى ذلك لا سبيل إلى الشك فيه . وليس اعتقاد ذلك المؤرخ في الخوارق والمعجزات بسبب يدعونا إلى الشك في صدقه في مثل هذا الأمر ، إذ لا نرى باعثاً يبعثه على الخطأ فيه فإذا صدقنا هذا التاريخ علمنا أن موت (زكرياس) لم يكن بعد شهر فبراير أو مارس سنة ٦٣٠ لأن هرقل لم يكن ليقيم في بيت المقدس أشهراً كثيرة ، ولأن (مودستوس) اختير بطريقاً قبل أن يرحل هرقل عن ذلك الموضع . وقد قيل إن مدة ولايته كانت اثنتين وعشرين سنة . وهذا يتفق مع وقت اختياره المعروف في سنة ٦٠٩ . وقد استشهد (أنستاسيوس) في أيام كسرى في ٢٢ يناير سنة ٦٢٨ وكتبت ترجمة حياته في الغالب بعد موته بقليل . وعلى ذلك فلنا أن نعدها مؤكدة لجعل تاريخ دخول هرقل في بيت المقدس في ١٤ سبتمبر سنة ٦٢٩ .

(١) روى (مكين) أن كسرى إضطر أهل مدينة (أذاسة) إلى إتباع مذهب اليعاقبة في سنة ٦٢٥ وقد كان طبيب كسرى واسمه حنا من اليعاقبة ، فحمل كسرى على الإعتقاد أن الناس إذا بقوا على مذهب الدولة كانوا أحرياء أن يوالوا دولة الروم ، فخيرهم كسرى بين الموت وتغيير مذهبهم . وجاء أيضاً في (قيدرينوس) أن الكنائس التي أعطاها كسرى للنسطوريين في (أذاسة) أعادها هرقل للملكانيين وهم أصحاب مذهب الدولة .

ولكن (مودستوس) تـوفي في شتاء سنـة ٦٣٠ ـ ٦٣١ ولم يل إلا تسعـة أشهر[١] ، فلم يجد هرقل بعده بين المطارنة من يوافق رأيه في أمر الكنيسة كل الموافقة ، ولهذا ترك مكان البطريق شاغراً . ولم يكن أحـد ليستطيـع أن يزيله عن رأيه وهو التوفيق بين اليعاقبة والملكانيين وهما حزبا الكنيسة : أولهما حزب الخوارج ، والثاني حزب الجماعة . وكان سرجيوس القسطنطيني يـرى الملك في التوفيق فاعتز ذلك الرأي به وهو الرجل الذي عرف بالقوة والإقدام . وكـان سوري المولد وهو صاحب صورة التوفيق التي أقرها هرقل، وكانت تلك الصـورة تقضي بأن يمتنع الناس عن الخوض في الكلام عن كنه طبيعة (السيد المسيح) وعما إذا كانت له صفة واحدة أم صفتان ، ولكن عليهم أن يشهدوا أن له إرادة واحدة أو قضاء واحداً . وكان الإمبراطور منذ سنة ٦٢٣ عندما كان في أرمينيا قد اتفق مع (بولص) زعيم الدين ، وكان أثر ذلك الإتفاق أن توحـدت الكنيستان كنيسة الدولة وكنيسة أرمينيـا . وبعد أربـع سنوات من ذلـك زار (اللازيين) . ودعا (قيرس) مطران (فاسيس) إلى مذهبه الجديد فوجد منه قبولاً . وفي ذلك الوقت عرض رياسة الدين في أنطاكية على (أثناسيوس (على شرط أن يقـر ما أقره مجمع (خلقيدونية) ، وأن يـأخذ بتـأويل المـوحدين (المـونوثيليتيين) . والظاهر أن الرؤساء الثلاثة اجتمعوا بالإمبراطور في (هيرابولـس) وكانت نتيجة مناظرتهم في ذلك الإجتماع أن أقروا شرط التوفيق إقراراً كاملاً . وكان المتوقع عند ذلك أن يسود السلام الكنيسة وترتق فتوقها المتسعة .

ولعل هذا الوفاق كان في صدر عام ٦٣١[٢] وأعقبته ولاية (قيرس) بطرقة

---

(١) جاء في كتاب (سعيد بن بطريق) أن المـدة كانت تسعـة أشهر ويقـول نيقفوروس إنهـا كانت سنة وقد خلفه بعد تلك المدة (صفـرونيوس) وهـو الذي كـان في سنة ٦٣٣ في مجلس الإسكندرية (راهباً) من الرهبـان ، ولعل ولايتـه كانت سنـة ٦٣٤ ولو أن (ابن بطريق) يذكر أن المحل ظل شاغراً مدة ست سنوات .

(٢) إن (درابيرون) صفحة ٣٠٣ كما بينا يخطىء خطأ واضحاً في جعل اللقاء بين الإمبراطور و (أثناسيوس) في هيرابولس في سنة ٦٢٩ . وفوق ما ذكرناه من الأدلة نقول إنه قد جاء في (قيدرينوس) أن هرقل في السنة العشرين من حكمه أمر في هيرابولس أمراً ينهي عن =

الدين في الإسكندرية . وقد أمره الإمبراطور أن يجمع المذهبين القبطي والملكاني في المذهب الموفق الذي إبتدعته حكمة المجلس الإمبراطوري . وكانت خطة الإمبراطور إلى ذلك الوقت موفقة توفيقاً أعظم مما توقعه أحد ، وجاءت إليه الأنباء من مصر في أول الأمر مبشرة بالنجاح ، فقد وصف (قيرس) نجاحه وصفاً بليغاً حتى لكان يخيل إلى الناس أن هرقل قد بدأ باسترجاع دولته وجمع شملها بعد أن نزعها الفرس من يده ومزقوها كل ممزق ، ثم ثنى بعد ذلك بالحلم الذي كان يتمنى تحقيقه في حياته وكاد يتم له الأمر كما يشتهي . فلما تم له النصر في القتال وغلب الكفار وحمى منهم المسيحية ، رأى أنه ليكون نصراً أعظم لو استطاع أن يحل السلام والوئام على الكنيسة ، وأن يزيل ما فيها من مواضع الخلاف[1] ويربط بين المسيحيين فيجعلهم إخواناً في دين واحد . وكان الصليب الذي استرجعه من العدو رمزاً ماثلاً أمام عينيه ، فلا عجب إذا لاح له فوقه ذلك الخيال الذي لاح لعيني سلفه العظيم وهو (فز إما بالموت وإما بالحياة)*[1] . فقد كان الصليب أداة نصره في الحرب وكان يستلهم من الصليب وحيه وإلهامه في أمور الدولة بعد أن ساد السلام .

= اتباع مذهب الطبيعة الواحدة أو الطبيعتين ، وذلك بعد تردد طويل منه بين مذهب (المونوفيسيين) ومذهب الدولة الأورثوذكسي . وقد كان قراره بغير شك في سنة ٦٣١ في حين أنه لم يخرج الأمر إلا بعد بضع سنوات من ذلك .

(١) اقتبس (درابيرون) في صفحة ٣٠١ ما يأتي عن اليونانية . (أن من يحمل الهمج على إلتزام السلام يحمل كذلك الأحزاب على إلتزام السكينة . حذار من الأحزاب)*[٢٢] .

الفصل الحادي عشر

دعوة النبي محمد (عليه الصلاة والسلام)

إتفاق في الزمن بين النبي وهرقل ـ كتب النبي إلى ملوك العالم وأمرائه وما أجابوا به ـ وقعة (مؤتة) ـ هزيمة (تبوك) ـ موت النبي واتحاد بلاد العرب ـ كنيسة صنعاء ـ البعث إلى الشام ـ أسباب فوز الإسلام ـ رأي المسيحيين .

ما أكثر عجائب التاريخ وعبره ! ولكن قلما حدث في التاريخ من العجائب ما هو أكثر عداً أو أعجب أمراً مما كان في عهد هرقل . فقد إتفق عندما بدأ هرقل عهد ولايته أمر الإمبراطورية أن بدأ النبي محمد دعوته وأخذ في نشرها وذلك في سنة ٦١٠[1] . وكان مقدوراً أن تكون دعوة النبي أكبر ما يصدم هرقل ويهدم ما بناه . وقد لاقى كل من هذين العظيمين في أول حياته تخذيلاً عظيماً وأخطاراً جمة صحبته نحواً من اثنتي عشرة سنة ، ثم خرج كل منهما من هذه المحن وقد قويت نفسه واستعدت للعمل العظيم الذي كانت مقبلة عليه . ففي سنة ٦٢٢ سار هرقل في سريته إلى قليقيا فضرب أول ضربة في سبيل استنقاذ الصليب المقدس وإعادته إلى الدولة الرومانية من الفرس ، وفي هذه السنة عينها هاجر النبي من مكة إلى المدينة وبدأ بذلك عصر الجهاد في سبيل تخليص

(١) ولد النبي في سنة ٥٧٠ وعلى ذلك كان عمره وقتئذ نحو أربعين سنة ، وقد اتفق في ذلك كتّاب العرب ، وكانت سن هرقل أقل من ذلك بسنوات ثلاث أو أربع . ونقول هنا إننا كتبنا هذه الفقرة عن الاتفاقات قبل أن تتاح لنا فرصة الاطلاع على كتاب (درابيرون) الجليل «L'Empereur Heraclius et L'Empire Byzantin» (راجع صفحة ٣١٨ و ٣١٩) .

بيت الله الحرام وفتح بلاد العرب لدعوة الإسلام ، فكان هذا الحدث مبدأ التاريخ الإسلامي أبد الدهر .

وليست هذه كل وجوه الإتفاق ، فإن النبي والملك كلاهما صحبه نصر لا تكاد تثلمه هزيمة مدة ست سنين[1] بعد سنة ٦٢٢ . وكان النبي يرقب بلهف حوادث القتال الطويل بين الروم والفرس ، وكم آلمه نصر الفرس في مبدأ الأمر في سنتي ٦١٤ و ٦١٥ لأن ذلك كان إنتصاراً لعبدة الأوثان على قوم من أهل الكتاب . فلما رجع النصر إلى الروم ـ وما كان أعجب ذلك ـ واستطاع هرقل أن يمحق سلطان الفرس بعد حرب ضروس استمرت ست سنوات ، بعث ذلك في النبي آمالاً كبيرة لغزو الطائفتين والتغلب عليهما وقد تضعضعت قوة الغالب منهما والمغلوب ، ورأى أن الله قد مهد بذلك للإسلام طريق النصر والفتح . ولهذا نستطيع أن نقول إن الساعة التي بلغ فيها هرقل أعلى ذروة مجدة كانت ساعة البشرى العظيمة للنبي (عليه الصلاة والسلام) .

وكان النبي قبل ذلك رأى أنه قد آن له أن يرسل إلى أمراء العالم يدعوهم للدخول في الدين الجديد ، فبعث كتباً إليهم في سنة ٦٢٧[2] ، وختمها بخاتمه

---

(١) لا يخفى أن نصر النبي عليه الصلاة والسلام لم يكن لمدة ست سنوات بل استمر إلى نحو عشر سنين إلى قبيل لحاقِهِ بربه (المعرب) .

(٢) في هذا التاريخ بعض الشك كما هي العادة. فالظاهر أن أكثر مؤرخي العرب يجعلون السنة التي كتب فيها النبي تلك الكتب سنة ٦ للهجرة وأولها ٢٣ مايو سنة ٦٢٧ للميلاد (انظر ما كتبه Evett تعليقاً على كتاب أبي صالح صفحة ١٠٠ هامش ٣). أما (Sale and Ockly) فيجعلان تاريخ ذلك سنة ٦٢٩ ولكنهما يناقضان ذلك بجعل ملك الفرس عند ذلك كسرى (أبروين) وهو المتوفى سنة ٦٢٨ (شهر مارس) ومن المعلوم أن النبي قصد إلى مكة غازياً في فصل الربيع في العيد وقد كتبت الخطابات بعد عودته من الغزوة التي انتهت بالهدنة مع قريش. فلا بد أن تكون الغزوة قد وقعت في سنة ٦٢٧ حتى يمكن أن يبلغ كتابه إلى كسرى قبل عزله في مارس سنة ٦٢٨ كما يقتضيه الخبر. فإن الطبري لا يدع مجالاً للشك في أن الملك الذي بعث إليه النبي بالجواب كان كسرى (أبروين) وأن الخطاب جاء إليه قبل موته بشهور أي لا بد أن يكون ذلك قبل نهاية

على ما جرت عليه عادة أهل الشرق ، وكان نقش ذلك الخاتم « محمد رسول الله » . وكانت الكتب جميعها تدعو إلى الدخول في الإسلام والشهادة بأن محمداً عبد الله ورسوله . وأرسلت تلك الكتب إلى أمراء اليمن وعمان[1] واليمامة والبحرين وإلى الحارث (ابن أبي شمر الغساني) أمير العرب على حدود الشام ، وإلى (جرج) وسمى (المقوقس) في الكتاب خطأ وهو حاكم الإسكندرية ونائب الملك في مصر[2] ، وإلى كسرى ملك الفرس ، وإلى هرقل قيصر الروم[3] .

= سنة ٦٢٧ وعلى ذلك فنحن مسوقون إلى أن نقول إن الخطابات أرسلت في تلك السنة. وعلى ذلك يكون هرقل قد جاءه بالخطاب في سنة ٦٢٧، أما القول الآخر الذي يجعل غزوة النبي في ربيع سنة ٦٢٧ فيدعو إلى رفض رواية الطبري رفضاً صريحاً وذلك أمر عظيم صعب، وفوق ذلك فإن عملنا هذا يحملنا على صعاب أخرى وذلك لأن الخطابات ما كانت لترسل قبل شهر مايو وقد كان هرقل عند ذلك في أرمينيا وهذا القول مبني على تصديق رواية ابن إسحاق إذ يقول إن جميع الخطابات أرسلت في وقت واحد، وقد يكون كتاب فارس أرسل قبل كتاب هرقل بسنة، على أن مثل ذلك الرأي غير قريب وأن خيراً لنا الاعتماد على ما رواه مؤرخو العرب في ذلك الشأن.

(١) قال ابن إسحاق (نقلاً عن الدكتور (Kœlle) في كتابه «محمد والإسلام» صفحة ١٩٤ و٣٣٢ و٣٣٣) إن الرسول الذي حمل خطاب النبي إلى عمان هو (عمرو بن العاص) فاتح مصر في المستقبل. ولكن يلوح لنا أن ذلك خطأ لأن عمراً لم يدخل الإسلام في ذلك الوقت (انظر تعليق المعرّب في هامش (١) صفحة ١٧٧) .

(٢) ابن إسحاق وهو الذي نأخذ عنه هذه الأخبار يقول قولاً صريحاً (وهذا بلا شك خطأ) إنه كان بمصر رجل اسمه المقوقس وقال إنه كان حاكم مصر الحقيقي في ذلك الوقت، وهذا الرجل إما أن يكون قد ولاه هرقل عند خروج الفرس من مصر وإما أن يكون هرقل قد أقره على ولايته التي كان عليها مدة حكم الفرس، ولكن الصعاب تحيط بكل هذه الخطابات وتواريخها، ومن الممكن أن تكون قد أرسلت في أوقات مختلفة كلما سنحت الفرص. (انظر تعليق (Hamaker) على الواقدي صفحة ٢٤ هامش ٥).

(٣) إذا قرأنا كتب العرب وجب علينا أن نذكر أنهم يذكرون لفظ «الروم» ويفضلونه على «الإغريق أو «البيزنطيين»، وأهمية الاسم الأول واضحة من أن العرب كانوا لا يكادون يطلقون على أهل الدولة إلا لفظ «الروم» وأنا نعلم رأي الأستاذ (Bury) في النعي على

فأما أمراء العرب فقد ردّ أثنان منهما رداً حسناً وأسلما ، وهما أمير (اليمامة) وأمير (البحرين) وأما أمير اليمن وعمان فقد ردا رداً فاحشاً[1] فدعا عليهما النبي . وأما النجاشي فقد أجاب جواباً حسناً ولم يبعد ولكنه لم يسلم . ولعل هذا موضع لأن يقول إن الحبشة هي البلاد التي لم يفتحها الإسلام دون كل البلاد التي أرسل النبي إليها الرسل . وأما (عظيم القبط)[2] فقد وعد أن

= المؤرخين الذين يسمون دولة الروم في ذلك العصر بغير هذا الاسم (انظر مقدمة كتاب «Later Rom. Emp.» . ولكني مع ذلك لم أتردد في أن أذكر «الحكومة البيزنطية» والمؤرخين «الإغريق» وقد كان أهل الدولة يسمون أنفسهم الروم وكان لفظ «الإغريق» عندهم سبة مرادفة لقول «وثني».

(١) جاء في كتاب الطبري غير هذا إذا قال في حوادث السنة الثامنة إن (عمرو بن العاص) أرسل إلى (جيفر) و (عباد) ابني جلندي (بعمان) فصدقا النبي وأقرا بما جاء به. ويذكر الطبري أن إسلام عمرو كان في السنة الثامنة، وهذا يؤيد أن رسالة النبي إلى عمان لم تكن في السنة السادسة كما يقول المؤلف (المعرّب).

(٢) قد بيّنا في ذيل الكتاب عن «المقوقس» أن ذلك لقب أطلق خطأ على الحاكم في هذا العصر ويجب عليّ هنا أن أرجع عن الرأي الذي بينته في تعليقي على أبي صالح (صفحة ٨١ هامش ٤) فإن وظيفة من أرسل إليه النبي خطابه كانت بلا شك أعلى من وظيفة حاكم إقليم وحاكم قسم فإنه لم يكن سوى «حاكم مصر» ولقبه أغسطاليس، وأن إرسال النبي الكتاب إليه لدليل على عظم شأنه. وأما الرأي الذي يجعل ذلك الحاكم حاكم قسم فإنه يصل بالقائلين به إلى حد السخف، فقد كتب المستر (ملن) في تعليق له على هذا الأمر في كتابه «Eg. under Rom. Rule» صفحة ٢٢٤ ـ ٣٢٥) «ولعل جورج كان حاكماً على إقليم (أغسطمنيكا) فإن إقليمه غير معروف وقد ذكرت أسماء ولاة مصر وأسماء حكام إقليم الوجه البحري وأركاديا (الصعيد) في ذلك الوقت في كتاب (حنا النقيوسي) في موضع آخر، وان مقامه في الناحية الشرقية من مصر يجعله أول عظيم تأتي إليه كتب النبي. ورداً على ذلك نقول إن الحكام الثلاثة الذين ورد ذكرهم ما هم إلا حكام حربيون، وإنه لمما لا يقبله العقل أن يقول قائل إن النبي كان يعرف كل شيء عن ملك فارس وعن حاكم الدولة الرومانية وعن جميع أمراء العرب ورؤسائهم، وأما حاكم مصر فلا يعرف عنه شيئاً، بل يرسل كتابه بغير قصد فيسلم إلى أول من يلقى الرسول من حكام الأقاليم ثم يرد عليه ذلك الحاكم. على أن مؤرخي العرب يجعلون الذي أرسل إليه الخطاب أكبر حاكم في مصر وهذا هو الحق.

يرى لنفسه رأياً في الأمر وأكرم الرسول وهو (حاطب بن أبي بلتعة اللخمي) ، وبعث معه هدية عظيمة كان فيها جاريتان (مارية) و (شيرين) وبغلة سماها النبي (دلدل) ، ويزعم بعضهم خطأ أنها كانت أول بغلة عرفت في بلاد العرب[1] ، وكذلك كان بين ما أهدى حمار اسمه (نفور)[2] ومقدار من المال[3] . فأما (مارية) فقد أسلمت وتزوجها النبي عليه الصلاة والسلام وأحبها وماتت سنة ٦٣٦ فلم تشهد فتح مصر وخضوعها للعرب .

وأما رد كسرى فقد كان على طريقة أخرى ، إذ شق كتاب النبي ومزقه وهو غضبان قد تولى كبره ، وكتب إلى بازان[4] عامله على إقليم (حمير) يأمره

---

(١) لعله يشير إلى رواية ابن سعد عن محمد بن عمر عن موسى بن محمد بن إبراهيم عن أبيه قال: «كانت (دلدل) بغلة النبي ﷺ أول بغلة رؤيت (في الإسلام) أهداها له المقوقس وأهدى له معها حماراً يقال له (عفير) فكانت البغلة بقيت حتى كان زمن معاوية» ولا شك أنه فرق بين قوله أول بغلة رؤيت «في الإسلام» وبين قوله أول بغلة رؤيت في «بلاد العرب» (المعرّب).

(٢) جاء في كل الروايات التي رأيناها أن اسمه (يعفور) أو (عفير) (المعرّب).

(٣) أبو صالح (صفحة ١٠١) ويزيد بعض المؤرخين أنه أهدى إليه سمناً وعسلاً كذلك.

(٤) لعله من المفيد أن نذكر هنا تاريخ حكم الفرس في بلاد العرب على وجه الاختصار، فقد كانت اليمن منذ القرن الرابع تحت حكم المسيحيين مع أن أهلها كان أكثرهم من اليهود ودخلت في القرن السادس تحت حكم الحبشة، ولما أراد أهلها أن يخلعوا نير الحبشة أرسلوا رسولاً من قبلهم (سيف) إلى امبراطور الروم فلم يرض أن يساعد قوماً يريدون أن يثوروا على دولة مسيحية. فذهب سيف إلى بلاد الفرس في سنة ٥٧٤ واحتال على (أنوشروان) فجعله يرضى بأن يرسل معه جيشاً من أهل السجون عدتهم ٣٦٠٠ وجعل عليهم (هرزاد الديلاني) وانتقلت هذه السرية في ثمان سفن تحمل كل منها ٤٥٠ رجلاً غير المؤونة والعدة. فلما نزلوا دخل معهم كثير من الناس وفتحوا صنعاء عاصمة البلاد وقد ثار أنصار الحبشة بعد بضع سنين فأرسل إليهم كسرى جيشاً آخر بقيادة القائد عينه، فهزمهم وطرد الجيشان من بلاد اليمن فانقضت بذلك دولة حمير وأصبحت بلاد اليمن مع حضر موت ومهرة وعمان تحت حكم الفرس. وأخبار هذا العهد واضحة الدلالة على أن حكم الفرس كان عادلاً لا يكاد أحد يحس له وطأة، وكان أتباع ديانة اليهود وديانة النصارى أحراراً في التعبد على ديانتهم (انظر Capt. R. L. Playfair's His-)

« إبعث إلي برأس هذا الرجل الذي بالحجاز »[1] . فقال النبي عندما بلغه ما فعله كسرى بكتابه « مزق ملكه » فكانت نبوءة ودعوة عليه ، وما مضى بعد ذلك إلا زمن قصير حتى تحققت[2] .

أما ما كان من أمر هرقل فلسنا ندري ما كان يدور بنفسه إذ هو خارج من مواكب الإحتفال عند مقدمه إلى عاصمة ملكه بعد فتوحه في آسيا ، أو عندما كان يسير وفي ركابه الظفر يشق بلاد الشام نحو بيت المقدس ، حاملاً معه الصليب الأعظم ، أكان عند ذلك يذكر ما وقع له وهو في معسكره منذ حين ، إذ طلع عليه جماعة من فرسان البدو وعليهم رئيسهم (دحية بن خليفة) الكلبي يحمل إليه كتاب النبي ؟ لا شك أن الإمبراطور قد سمع بما أجاب به من قبل ملك الفرس ، ولعله كان عند ذلك قد أتاه نبأ مقتل رسول النبي في مؤتة ، ولكنه مع ذلك أرسل رداً حسناً ، حتى إن بعض مؤرخي العرب خلق من ذلك قصة منمقة سخيفة عجيبة يذكر بها إسلام هرقل ، ولم يكن شيء أبعد من ذلك الأمر عنه .

= tory of Arabia Felix) (بومباي ١٨٥٩) صفحة ٧٢ ـ ٧٧ وانظر (Wright's Christianity in Arabia) صفحة ١٧٥ ـ ١٨٩) وكانت مملكة الحيرة كذلك خاضعة للفرس وقد تنصّر أميرها (النعمان أبو قابوس) وحكم من ٥٨٩ إلى ٦١١ وكان في مبدأ أمره وثنياً يضحي بالآدميين. ولما تم تعميده صهر تمثالاً من الذهب للآلهة فينوس (الزهرة) كان قومه يعبدونه وهذه القصة واردة في كتاب (Evagrius) الجزء السادس الباب ٢٢ ، ويقول (Wright) انها تتفق اتفاقاً ظاهراً مع ما ورد في كتاب العرب.

(١) اخترنا أن نستعمل بعض لفظ رواية ابن جرير الطبري عدا ما جاء من ذكر القتل فإنه غير مذكور بها فإن الأصل الإنجليزي فيه خروج كثير، إذ قال عن النبي على لسان كسرى (The Impostor) (المعرّب).

(٢) لعل هذه الملاحظة حقيقية وهي تدل دلالة واضحة على أن الذي جاءه الكتاب كسرى وليس (شيرويه) فقد حكم (شيرويه) ستة أشهر آخرها أغسطس سنة ٦٢٨ وجاء بعده الطفل الضعيف الذي قتله (شاه ـ ورز) وهو القائد الذي اختاره هرقل للملك عندما رأى أن الملك محتاج إلى رجل قوي، وكان هذا في صيف سنة ٦٢٩؛ وقد ظهر أن (شاه ـ ورز) ظالم من أفجر الطغاة وقتل في أوائل سنة ٦٣٠، وهذه التواريخ على ما يظهر لها ما يعززها ولكنها مع ذلك متنازع فيها.

وماذا عسى كان يدفعه إلى تصديق ما أتى به زعيم عربي لم يعرفه ، وذلك في حين كان ملكاً سيد الكتائب الكثيرة التي عركتها الحرب فأصبحت ضارية صعبة المراس .

وعلى ذلك فقد سار هرقل في سبيله ولم يعكر شيء صفاءه ولم يعر أمر تلك الرسالة اهتماماً ، ولكن فيما كان هرقل يسير في موكبه من الباب الذهبي بين الطرق المتعرّجة قاصداً إلى الكنيسة القائمة على جبل الزيتون ليقيم بها الصليب الذي استنقذه ، وفيما كانت الناس في بيت المقدس يبكون مما في نفوسهم من سورة قد غلبت عليهم جميعاً حتى لقد بكى من كانوا منهم ينشدون أناشيد النصر[1] ، كانت سرية من ثلاثة آلاف فارس أرسلها النبي تسير في الصحراء إلى مؤتة لتثأر لرسوله الذي قتل . ومن ذلك الحين بدأت الحرب مع الدولة الرومانية فلم تنته حتى كانت سنة ١٤٥٣ وفيها سلمت القسطنطينية للإسلام ، ونقش اسم النبي العربي حيث هو اليوم على جدران الكنيسة الكبرى كنيسة (أيا صوفيا) . وقد جاءت جنود الدولة فالتحمت بجيش العرب يقوده زيد بن حارثة قرب (مؤتة) وكانت صدمة القتال عنيفة فقتل أكثر القادة حتى وُلِيَ القيادة خالد بن الوليد واستطاع بما له من مهارة فائقة في الحرب ورأى سديد أن يحفظ المسلمين من القتل ، وقد سمي من ذلك الحين بسيف الله ، فانحاز بمن بقي منهم وسار إلى المدينة في أسف شديد . ولكن النبي تلقاهم ولم تقلل الهزيمة من عزمه ، وما أتى آخر شهر أكتوبر حتى جهز عمرو بن العاص في سرية صغيرة وبعثه إلى أكناف الشام ، وانتظر كي يتم نشر الدعوة في بلاد العرب ثم يخرج إلى من حوله فيناجزهم في حرب عظيمة . وقد تم له فتح مكة ثم انتصر في حنين فسار ذكره وسادت هيبته بعد ذلك كل ربوع بلاد العرب .

ثم أخذ في إعداد جيش وجاهر بأنه لغزو فلسطين يدفعه إيمانه وما في قلبه

---

(١) ذكر (سبيوس) ما كان يشمل الناس من الفرح في ذلك اليوم ثم ذكر بعد ذلك بكاءهم ونحيبهم وذرفهم للدمع ، وذكر أن ذلك عمهم جميعاً من الامبراطور والأمراء والجنود وأهل المدينة حتى «لم يكن أحد يغني أناشيد الصلاة» .

من شعور قوي بأمانته إلى الإستهانة بما قد يلقى من العقبات . ولكن كثيراً من أصحابه استصعبوا الأمر فدل ذلك على أن إيمانهم لم يعصمهم من هيبة هرقل .
وكان يحب أن يجتمع عنده مائة ألف رجل مجهزين بالعدد ، ولكن لم يجتمع إليه إلا ثلاثون ألفاً ، وتخلف عنه المنافقون والمعذرون الذين ادعوا المرض هرباً . وسار في هذا الجمع إلى (تبوك) وهي في نصف الطريق إلى مؤتة فأقام بها عشرة أيام ولم يلق كيداً ، ولعل ريبتَهُ قد حملت إليه من الأخبار ما جعله لا يتقدم إلى الشمال إلى أبعد من ذلك ، أو لعله عاد لقلة الزاد والماء معه ، فإنه قد عاد إلى المدينة وقضى بها عاماً يعد جيشاً لغزوة جديدة . وفي أثناء مقامه في (تبوك) عقد عهوداً مع كثير من أمراء العرب ، وأرسل خالداً في أربعمائة فارس إلى أمير (دومة) النصراني فنزل عليه على غرة منه وأسره . ثم أسلم ذلك الأمير وأخذ منه النبي أرضه ومدينته وحصنه وثلاثة آلاف من الإبل وأربعمائة درع[1] .

وعلى كل حال فإن غزوة (تبوك) وإن لم يصل النبي منها إلى غرضه من لقاء الروم لم تؤخر سير الإسلام ، فقد تتابع أمراء العرب إلا قليلاً منهم على الدخول في الإسلام ، وشهد ذلك العام دخول الناس جميعاً تحت لوائه ، ومن ثم سمي « عام الوفود » . وكانوا جميعاً يتبعونه ويرونه سيداً وقائداً ورسولاً من عند الله ، بعضهم يرى ذلك صدقاً عن عقيدة وإيمان وبعضهم يتراءى ذلك خوفاً ونفاقاً . وفي عام ٦٣٢[2] حج النبي إلى مكة حجة الوداع ، وقام بين المؤمنين لا يحصرهم عد ، وعلمهم شعائر الحج إلى الكعبة التي أصبحت بيتهم الحرام بعد أن كانت معبد الأوثان ، وقرر شعائر الحج التي لا تزال متبعة إلى اليوم . وبعد شهرين من منصرفه من الحج أخذ يدعو العرب إلى غزو الروم وجعل قيادة الجيش إلى أسامة ابن مولاه زيد الذي قتل في وقعة (مؤتة) ، ولكنه مرض بعد ثلاثة أيام من عقده لأسامة على الجيش وكان مرضه بالحمى وتوفي من مرضه ذاك بعد قليل .

---

(١) انظر كتاب الدكتور Koelle «محمد والإسلام» (صفحة ٢٠٧ - ٢١٠) .

(٢) وقيل إن تاريخ ذلك ٩ مارس و «الظاهر أن هذا ثابت لا خلاف فيه» انظر كتاب المستر ر. ل. ميشيل « Egn . Calendar » صفحة ٣٥ .

على أن وفاة النبي لم تضعف الإسلام بل شدت ساعده ، فإنه اهتز حيناً ولكنه كان راسخ الأساس ، فلم تكن تلك الهزة التي جاءته من داخل جزيرة العرب لتحدث فيه أثراً . وقد مات النبي بعد أن أتم ما تاقت إليه نفسه في حياته وإن لم يكن ذلك في الوقت الذي كان فيه على ذروة النصر والقوة . فكان في ذلك على غير ما كان عليه هرقل عند موته . وكان النبي لا يشعر عند موته بما يعكر صفاءه من أنه أخفق أو أنه قد مضى عزه وتقادم العهد على نصره ، بل إنه لو أتيح له أن يطلع على الغيب لعرف أنه قد ألف بين قومه وألبهم فأصبحوا وقد خلفهم قوة ذات بأس في الدين وذات أثر في السياسة وأنها ستفتح العالم بعد وفاته .

وكانت بلاد العرب قد صارت يداً واحدة قبل موت النبي ، وقد انقطع بسقوط كسرى ما كان بين الفرس واليمن وجنوب أرض العرب من علاقة السلطان ، في حين أن هرقل لم يعمل على تقوية سلطانه وتحديده في شمال الجزيرة ، بل تركه كما هو ظِلّاً غير حقيقي من الهيبة . ولا شك في أن جل نصارى العرب كانوا على المذهب (المونوفيسي) وأنهم لذلك كانوا لا يؤمنون برأي الإمبراطور في السياسة ، على أنهم كانوا ضعفاء لا يستطيعون دفع أعداء الدولة[1] .

وإذا كان ثَمَّ شيء يتم به جمع جزيرة العرب لتصبح يداً واحدة تحت سلطان واحد ، فقد قام به أبو بكر خليفة رسول الله وقد بايعه الناس بعد النبي . ففي سنة واحدة أرسل (أسامة) في بعث إلى الشام وكان موفقاً منصوراً ، وأرسل خالداً ذلك القائد الشهم المغوار فقضى على مسيلمة الكذاب الذي ادعى النبوة في بلاد اليمن ، وكان النبي قد أوصى وهو على فراش الموت ألا يبقى في بلاد العرب إلا دين الإسلام ، والظاهر أن ذلك تم بلا تريث ولا مهل ، فقد أخرج المسيحيون من الجزيرة ولم يبق منهم فيها أثر . وكذلك قضى على

(١) انظر كتاب ريت Early Christianity in Arabia صفحة ١٨١ .

ما كان عندهم من العلوم والفنون والآداب[1] .

وليست لـدينا صـورة كاملة عن الفنـون في بلاد العـرب إذ ذاك . ولكنـا نستطيع أن نعرف شيئاً عن تقدمها مما يروى لنا من وصف كنيسة صنعـاء وهي التي نالها المسلمون بالأذى وهدموها ، وهي من بناء (أبرهة الأشـرم) عامـل ملك الحبشـة على بلاد اليمن ، وذلـك بعد منتصف القـرن السادس بقليـل . ويروى أن الملك كان شديد العناية بأمر بنائها وزخرفتها فكان يقضي الوقت كله نهاراً وليلاً فيها ، وكانت تشبه كنائس الروم ني رسمها ، فكانت الأعمدة العالية من المرمر الثمين تفصل ما بين وسطها وجناحيها ، وكـان ما فـوق الأعمدة من القباب وأعالي الجـدران يزينـه زخرف بـديع من فسيفسـاء الذهب والألـوان ، وتحليها الصور . وأما أسفل الجدران فقد كان يغطيها إفريز من المرمر ، وكذلك كـانت الأرض ، وكان المـرمر من ألـوان مختلفة منسقـة تنسيقاً جميـلاً . وكان المحراب يفصله حاجز من آبنوس مطعم بالعاج بديـع النقش ، وكانت نقـوش الذهب والفضة تغـطي البناء من داخله . وكـانت الأبواب تغـطيها صفـائح من الذهب مساميـرها من الفضـة ، أو صفائـح من الفضة عليهـا مسامير كبيرة من الـذهب . وأما الأبـواب التي كانت تفضي إلى المحـاريب الثلاثـة فقد كـانت تغـطيها صفـائح كبيـرة من الذهب عليهـا حلية من الجـواهر ، وكـان على كل صفيحة من تلك صليب بارز من الذهب والجوهر في وسطه شكـل خزامي من حجـر أحمر وتحيط بـه زهور زخـرفية من الـذهب والجـواهـر ، أو من الميـنـاء المختلفـة الألـوان . تلك كـانت الكنيسـة العـظمى التي سـاعـد (جستنيـان)

---

(١) هذا كان في أول عهد عمر. وروى الطبري أن أول بعث بعثه عمر بعث أبي عبيـد ثم بعث بعلي ابن أمية إلى اليمن وأمره بإجلاء أهل (نجران) لوصية رسول الله ﷺ في مرضه بذلك ولوصية (أبي بكر) رحمه الله بذلك في مرضه وقال «ائتهم ولا تفتنهم عن دينهم ثم أجلهم من أقام منهم على دينه وأقرر المسلم وامسـح أرض كل من تجلى منهم ثم خيرهم البلدان وأعلمهم أنا نجليهم بأمر الله ورسوله أن لا يترك بجزيرة العرب دينان، فليخرجوا من أقام منهم على دينه ثم نعطيهم أرضاً كأرضهم إقراراً لهم بـالحق على أنفسنا ووفـاء بذمتهم . . . إلـخ » (المعرّب) .

(أبرهة) في بنائها[1] . ولم تكن كنيسة (أيا صوفيا) ذاتها بأغلى زينة ولا أبدع في الصناعة منها .

ولعل هذا الوصف المجمل يحمل إلينا صورة من المدنية التي وجدها الإسلام في بلاد العرب ، غير أن العرب كانوا عند ذلك لم يقبلوا على الصناعات والفنون ، ولم ينم لهم ذوق فيها ، ولذلك لم يدرك المسلمون من تلك الثروة العظيمة ومن ذلك الجمال البارع إلا أنها كانت للغنيمة إذا كانت مما يغنم ، أو للتحطيم إن كانت صوراً أو دمى . ولسنا نعرف على وجه البت في أي وقت كان هدم هذه الكنيسة وسواها من أبنية النصارى . ويقول (ريت) إنه إن بقي في جزيرة العرب أحد من النصارى في سنة ٦٣٢[2] فإنه لم يبق بها إلا قليل ، ولم تكن الأبنية وقتئذ لتترك كما هي أو تتخذ مساجد للمسلمين كما حدث في غير ذلك الوقت وفي البلاد الأخرى ، لأن الإسلام كان في أول أمره شديد الوطأة على الدين المسيحي وآثاره يمحوها ويعفى أثرها ، كما كان قبل ذلك يوقع باليهود وعبدة الأوثان . ولا شك أن المسلمين كرهوا ما في كنائس النصارى من كثرة الصور والرسوم المنقوشة بالألوان ، فحق لهم بعض الحق أن يخلطوا بين المسيحية وعبادة الأوثان . ومهما يكن من ذلك الأمر فقد أصبح المسلمون جميعاً في جميع بلاد العرب وقبلتهم الكعبة وإمامهم القرآن ، قد ضمهم دين واحد وحكم واحد في عبادة إله واحد ، سواء أكانوا قبل ذلك نصارى أو يهوداً من الفرس أو السودان أو العرب .

---

(١) انظر كتاب (أبي صالح) صفحة ٣٠٠ ـ ٣٠١ وهامشها، وقد يفهم من قوله وجود كنيسة كبرى في أيامه ولكن من المؤكد أنه أخذ عن الطبري ولعله أخذ عن نسخة خطية أقدم مما عندنا اليوم.

(٢) انظر (أوكلي) صفحة ١٨٧ ومع ذلك فهو ينقل عن (أسمان) أن صنعاء كان لها أسقف في القرن الثامن وأن اليمن كان له قسيس في القرن العاشر. ولعل الأسقف كان أسقفاً اسماً وكان منفياً أو غريباً، وقد نجد وصفاً حسناً للمسيحية في العرب قبل الإسلام في كتاب (F. M. E. Pereira) «Historia das Martyres do Nagran» .

وكانت دولة العرب التي قامت عند ذلك دولة حلفاء عدة يضمها حكم جمهوري ، وذهبت مكة بزعامتها . وقد رأى (أبو بكر) وزعماء المسلمين ما رآه النبي من قبل ، وذلك أنهم إذا شاءوا أن يحفظوا على الدولة تماسكها ويتموا عليها اتحادها فلا بد لهم أن يبعثوا البعوث لغزو ما يليهم من البلاد . وكانت بلاد فلسطين للعرب بلاداً موعودة كما كانت تلك الأرض موعودة لليهود ، أرضاً تفيض لبناً وعسلاً . وكان حب القتال غريزة في العرب ، وقد زادهم توقداً إيمانهم بأن عليهم واجباً دينياً يؤدونه . فاجتمعت لهم صفتان ما اجتمعتا في قوم إلا صار بأسهم شديداً ، فلما اجتمعتا للعرب أصبحوا ولا يكاد شيء يقف في سبيلهم .

وكتب أبو بكر إلى رؤساء القبائل من العرب لإنتداب الناس إلى المدينة ليخرجوا للقتال ، وقال لهم إنه بعث إليهم ليخبرهم أنه قد عزم على أن يرسل المؤمنين إلى بلاد الشام لينزعوها من أيدي الكافرين ، وأنه يعلمهم أن الجهاد في الدين طاعة لأمر الله[1] . فما هو إلا قليل حتى اجتمع لديه جيش عظيم ، ثم عقد عليه ليزيد بن أبي سفيان . وكان عمرو بن العاص على قسم منه[2] . وكان عمله هذا جرأة عظيمة ، فإنه حادَّ دولتي الفرس والروم وأغزى العرب بلادهما . ولكن الأمر كان أهون في الحقيقة مما يلوح للناس ، فإنه من الخطأ أن نتصور أن العرب قبل الإسلام كانوا كلهم يعبدون الأوثان ، كما أنه من الخطأ أن نتصورهم جميعاً في عزلة عن العالم تفصلهم عنه مفازات الصحارى ، ويعيشون في أرضهم لا يعرفهم أحد ، ثم جاء الإسلام فقوى جموعهم على اقتحام الفيافي والخروج إلى أمم العالم يغزونها ، فليس شيء أبعد من هذا عن

(١) أوكلي صفحة ٩٣.

(٢) جاء في رواية الطبري: «فأمد عمراً ببعض من اجتمع إليه وأمره على فلسطين وأمره بطريق سماها. . . إلخ وكتب إلى الوليد (بن عقبة) وأمره بالأردن وأمده ببعضهم ودعا يزيد بن أبي سفيان فأمره على جند عظيم هم جمهور من انتدب له وفي جنده سهيل بن عمرو وأشباهه من أهل مكة وشيعه ماشيا واستعمل أبا عبيدة بن الجراح على من اجتمع وأمره على حمص وخرج معه وهما ماشيان والناس معهما وخلفهما» (المعرّب).

الحقيقة . ولا شك في أن ضعف أسدى الروم والفرس وما كان بين النصارى من الشحناء والبغضاء ، وما انبعث في نفوس العرب من الإيمان وما كان فيهم من حب الفيء والغنيمة في هذه الحياة ، وما كانوا يأملونه من نعيم الآخرة ، لا شك في أن ذلك كله كان عاملاً قوياً على فوز غزاة العرب في غزواتهم . ولكن لعله قد كان أكبر من كل ذلك أثراً في فوزهم أنهم كانوا يمتون بصلات وشيجة من قرابة الجنس إلى طائفة كبيرة من أهل البلاد التي غزوها ، فقد كان العرب منذ الأزمنة الغابرة ينزحون إلى ما يلي بلاد الفرس والشام ، وإلى ما بعد الحد الفاصل من الإقليمين من الشرق ، فيقيمون بتلك الأرض أحياناً ويضربون في أنحائها أحياناً أخرى ، وينتجعون بلاد الدولتين فيجوسون خلالها التماساً للتجارة أو يشنون عليها الغارة[1] . وكان بعض هذه القبائل العربية يدين لهرقل بطاعة لا تتعدى اسم الطاعة ، وعلى مثل تلك الحال كان بعضهم مع كسرى ، على حين كان بعضهم معتزلاً لا إلى هؤلاء ولا إلى أولئك . وكانوا جميعاً لا يحجمون عن نصرة أي الدولتين بسيوفهم إذا تبين لهم وجه النفع معها[2] . وكانت طلائع جيوش هرقل من العرب في حين أن منهم قوماً كانوا يغيرون على آسيا الصغرى ، وهم قوم « طوال الشعر » ذكرهم (جورج البيسيدي)[3] . وكان أول نصر لهرقل يوم انتصر على هؤلاء ، وقيل إن جل جيش الروم في (مؤتة) كان من العرب ، وكانت منهم كتيبة خيل بارعة مع كسرى تساعده على فتح الشام ومصر .

فوجد الإسلام على ذلك بين هؤلاء العرب الضاربين على التخوم عدة

---

(١) نقرأ في أخبار القرن الرابع نفسه أن العرب كان لهم شأن يذكر في الدفاع عن القسطنطينية وصد القوط عنها (انظر كتاب الدكتور Hodgkin وهو «Italy and Her Invabers» الجزء الأول صفحة ٢٨٤ (أكسفورد ١٨٩٢) .

(٢) وهكذا يقول (زكريا المتليني) إن العرب أغاروا على أرض الدولة الرومانية بأمر من ملك الفرس (صفحة ٢٠٦) ثم في صفحة ٢٣٢ نقرأ عن «أهل بلاد العرب» وأنهم يحاربون مع جستنيان ليخمدوا ثورة السماريتانيين .

(٣) كتاب «De Exped. Pers. Acro» الجزء الثاني صفحة ٢٠٩ .

عظيمة من رجال الحرب شبيهين بما كان من بلاد العرب ذاتها من جنده . فما كان على المسلمين إلا أن يدخلوا هؤلاء العرب في الإسلام ، ويشعروا قلوبهم عقيدتهم ، ويثيروا فيهم روحه فيصبح لهم عيبة ومسلحة . ولم يكن الأمر في أوله بالهين فقد كان أكثر هؤلاء العرب نصارى[1] ، وكان كثير منهم يقاتلون مستميتين في سبيل دولة الروم ودين المسيح[2] ، غير أنه قد كان منهم من آثر علاقة الجنس ، أو كان غير حريص على دين لم يفقه فيه ، في حين أنه قد كانت منهم طائفة انحازت على حذر ، فلم تكن مع هؤلاء ولا مع أولئك ، متربصة حتى يتبين لها لمن الغلبة ، فتكون مع الظافر وهي آمنة . ومهما يكن من الأمر فقد كانت صلة الجنس تجعل رجحان الميل إلى المسلمين .

ولعلنا نجد عذراً إذا نحن سقنا بعد ذلك رأياً آخر نمهد به مجملين ؛ وذلك أن فوز المسلمين كان له سبب آخر ألا وهو ما حل بالمسيحيين من الخذلان والوهن، وهو يعدل في شدته ما كان عند المسلمين من إيمان وقوة . قال (فيدرينوس) « على حين كانت الكنيسة تحتوشها الملوك ومن لا يخشون الله من القسوس خرج من الصحراء عملاق ليعاقبنا على ذنوبنا » هذه كلماته التي ذكر فيها نشأة الإسلام ، وهي كلمات قليلة ولكنها تدل على أن المسيحيين كانوا يشعرون أن محمداً كان رسولاً من الله ، أو هو على الأقل سوط من الله

---

(١) كان القديس (سيميون استيليتس) عربي المولد وهو مثل من أمثلة التعصب في المسيحية وإنا والحق نشعر بشيء من التردد في وصفه بهذا الوصف لأنه قد ضحى تضحية مدفوعاً بدافع طيب وإن كان مخطئاً.

(٢) انظر مثلاً رواية (أوكلي) عن وقعة اليرموك صفحة ١٩٤ وما بعدها وانظره كذلك لما جاء عن العرب المسيحيين في صفحات ١٤٤ - ١٤٥ ، ١٧٢ ، ٢٢٨ - ٢٢٩ ، ٢٣٢ . . . إلخ . ويحكي (حنا مسكوس) قصة رجل غريب لقي امرأة أعرابية فسألها عفواً قائلاً « مسيحية أم وثنية ؟ » (Pr. Spir. Cap. 136) وهذا كان بالطبع قبل الإسلام ولكن بعض طوائف العرب المسيحيين بقيت في فلسطين إلى ما بعد فتح العرب لها فإن (أبا الفرج) يذكر أسقفاً لقبائل المسيحيين في أول القرن الثامن (كتاب أبي الفرج تاريخ الكنائس) (الجزء الأول المجموعة ٢٩٤) .

أرسله عليهم . وهذا شعور يظهر على لسان كثير ممن كتب من المسيحيين في ذلك الوقت ، أمثالِ (سبيوس) الأرمني[1] . وإنه لأمر معروف أنه إذا نزلت بقوم نازلة من هزيمة قالوا إن ما أصابهم كان عقاباً على ذنوبهم . وإن من فكر وجد أن هذا القول لم يخطىء الصواب ولم يبعد عن الحقيقة ولكن يلوح لنا أن في قول هؤلاء الكتاب شيئاً من الحزن المبرح أكثر ممن نراه في مثل هذه الأحوال . فإنهم يحسون أن النصارى قد وزنوا والعرب في كفتين فرجح العرب وَمَالت كفتهم ، وأن المسيحيين قد أصبحوا غير جديرين بأن يكونوا دون غيرهم هداة الناس إلى سبيل الله . وليس من العسير أن ندرك كيف قوي الإسلام بما وقع في قلوب المسيحيين من هذا الخوف وتوقع البلاء ، فقد كان قسوسهم وجندهم في ذلك سواء وقد كان (لوقا) الذي أسلم مدينة حلب للعرب ممتلىء القلب بما كان يبشر به قسيس من أنه كان محتوماً أن يفتح العرب البلاد ، وكان (بازل) الذي أسلم مدينة صور قد أخذ عن الراهب (بحيرَى) ما جعله يترك الروم ويوصي أهل الدولة الرومانية[2] بدين الإسلام . وهاتان الروايتان قد جاءتا عن طريق العرب ، وقد تكونان هما وأمثالهما أقاصيص وهمية لا حقيقة لها ، ولكنها تدل على أمر واحد لا شك فيه ولا يكذبه التاريخ ، وذلك أنه قد شاعت نبوءة بين بعض المسيحيين فارتجفت لها أفئدتهم ، وهي أن الإسلام حق وأن نصره محقق .

---

(١) نورد قوله وهو قول عجيب : «في ذلك الوقت ظهر رجل من ولد إسماعيل اسمه محمد كان تاجراً وقال للناس إن الله أرسله بدعوة الحق ـ ولما كانت الدعوة من الله اجتمع الناس بأمره ودانوا لشريعته وهجروا عبادة الأوثان الباطلة ونابوا إلى الله الحي القيوم الذي ظهر لأبيهم إبراهيم وقد أمرهم محمد ألا يأكلوا الموقوذة ولا يشربوا الخمر ولا يكذبوا ولا يزنوا» والعجب في أن (سبيوس) كان مسيحياً وكان فوق ذلك أسقفاً .

(٢) كتاب (أوكلي) صفحة ٢٣٠ و٢٥٢ .

الفصل الثاني عشر

فتح العرب للشام

هرقل لا يدع فرصة تفوته ـ رحلته إلى أذاسة ـ اضطهاده للخارجين على مذهب الدولة ـ يولي (صفرونيوس) بطريقاً لبيت المقدس ـ وفود التهنئة إلى (هرقل) ـ حلف العرب واليهود ـ فتح دمشق ـ (خالد) يهزم (تيودور) ـ وداع هرقل للشام ـ استنقاذ الصليب الأعظم ـ تسليم بيت المقدس لعمر .

لما انقضى مقام هرقل في بيت المقدس وعاد أدراجه إلى الشمال في (فلسطين) ، لم يكن بعد قد بدا له ما في الإسلام من خطر عليه . وقد كان النبي (عليه الصلاة والسلام) عند ذلك قد فاز ونشر الإسلام في جزيرة العرب ، وبلغ ظل الإسلام أكناف الدولة الرومانية . ولكن الإمبراطور لم ير في ذلك إلا ما اعتادت الدولة أن تصمد له من غارات أهل الصحراء ، وكان هذا أمراً مألوفاً . فإنه لو أدرك عند ذلك حقيقة ما في ثنايا الإسلام من الخطر ، لكان قد سارع إلى منازلته ، ولعله كان يستطيع أن يقضي على دولة العرب في أول نشأتها ويمحو أثر الإسلام[1] من التاريخ لو كان اتخذ الحيطة وأعدّ العدّة قبل فوات وقتها . وكانت قوّة عقله تمكنه من ذلك وعنده موارد المال لا تزال مع ما نزل بها من ضعف كافية لما كان دونه .

ولكن قضى الله أن ذلك لا يكون . فإن واجبه كان يناديه أن يسرع بالسير من الجنوب ، وكان قلبه مهموماً بأمر البلاد التي في أكناف الدولة حريصاً على

(١) جاء في الأصل : « ويمحو اسم محمد » .

تنظيمها حسب نصوص المعاهدة مع الفرس ، وكذلك كان عليه أن يدبر أمر الأموال وأمر الحكم في كل البلاد الشرقية التي اضطربت أمورها في سنوات الحرب الست . وكان فوق كل ذلك يحب أن ينفذ ما اختمر في ذهنه منذ زمن طويل من أمر الديانة المسيحية وتوحيد مذاهبها ، حتى يقوم التوحيد على الوفاق لا على الجبرو والإضطرار . وكان يظن أن زعماء الكنيسة يستطيعون أن يخلقوا صورة جديدة من المذاهب تخلب الألباب وتسحرها ، فإذا ما تم له صهر مذاهب الخارجين وأهل الشقاق والخلاف وأخرج منها مذهباً خالصاً مصفى لا يدخل إليه الخلاف من بين يديه ولا من خلفه ، كانت عند المسيحيين قوّة لا تقف دونها قوّة أعداء الدولة والصليب !

وسار الإمبراطور عند منصرفه من بيت المقدس إلى جزيرة ما بين النهرين[١] وكان طريقه عن دمشق فحمص فمدينة (بيرويه) فهيرابولس فأذاسة ، وكانت (أذاسة) موطن آبائه وكانت موطن القديس (أفريم) أبي الكنيسة (السورية)[٢] ، وكذلك كانت مشهد اليعاقبة (المونوفيسيين) لأنها كانت مقر (يعقوبوس بارودايوس) . وكان ذلك المذهب هو السائد في الأديرة المجاورة وعدّتها ثلثمائة ، وفي معظم بلاد أرمينيا والشام رمصر . وكانت أذاسة فوق كل ذلك موضعاً ذا خطر عظيم في السياسة لوقوعها بين دجلة والفرات ، وقربها من بلاد الأرمن والفرس وسوريا ، فلم يكن بلد أصلح منها لما عزم عليه الإمبراطور من الأمور .

وحوادث هذه المدة ذات عقد يتعذر على المرء أن يحلها ، فإنه قد يستبين خيطاً منها في ديوان من الدواوين ، وبضعة خيوط أخرى في ديوان سواه ، ولكن تلك الخيوط لا صلة بينها ، ولذلك يصعب على الإنسان مهما أوتي من الصبر والأناة أن يسويها ويجمع بينها . وعلى كل حال فإنا نستخلص أنه في سنة ٦٣١ ذهب الإمبراطور إلى (هيرابولس) وبدأ فيها تحقيق ما كان يرجو إنفاذه من

---

(١) سبيوس .

(٢) داربيرون صفحة ٢٨٦ وانظر كذلك صفحة ٢٩٩ لما سيأتي بعد .

توحيد الكنيسة ، واختار (أثناسيوس) رئيساً لأساقفة (أنطاكية) وجعل (قيرس) رئيساً لأساقفة الإسكندرية . غير أنه أخطأ خطأ كبيراً في اختيار (قيرس) هذا ، وسنصف بعد قليل سيره إلى مصر ، ونرى أي نكبة حلت في تلك البلاد بما كان الإمبراطور يسعى لتحقيقه من الآمال . فإنه لقي مقاومة ومخالفة من كل جانب ، فخالفه الزعيم الملكاني (صفرونيوس) وشيعته ، وخالفه كذلك كل القبط قسوسهم وعامتهم . وسنرى بعد ذلك كيف انقلب (قيرس) فقلب للقبط ظهر المجن ، وحارب مذهبهم ، إذ رأى أنه لم يستطع أن يدخلهم بالحسنى في المذهب المونوفيسي ، وشرع يحملهم على الخروج من مذهبهم جبراً واضطراراً بالعسف والإضطهاد .

وكان الأمر في بلاد الشام على ما كان عليه في مصر إذ أخفق سعي الإمبراطور هناك ، فأراد حمل الناس على ما أراد بالإضطهاد ، فكان (قيرس) بعسفه واضطهاده يهدم ما بناه هرقل بحروبه وفتوحه ، ويمهد السبيل للإسلام في مصر ، على حين كان الإضطهاد في الشام يمهد السبيل له هناك . غير أن الأمر في بلاد الشام لم يبلغ من الشدة ما بلغه في مصر ، فقد كان (أثناسيوس) صاحب كياسة وأناة وكان (قيرس) خلواً منهما . وكان لوجود الإمبراطور نفسه في الشام أثر في تخفيف حدة الخلاف ومنع الخروج[1](*) ولكن لم يمض كبير

---

(١) يورد أبو الفرج (ابن العبري) رواية مخالفة لهذه لما كان بين الإمبراطور وأنستاسيوس من العلاقة (تاريخ الكنائس الجزء الأول المجموعة ٢٧١ ـ ٤) ويقول : إن الإمبراطور حرم من الاتصال بالمؤمنين في أذاسة وأن في (مبوج) جاء (اثناسيوس) ومعه اثنا عشر أسقفاً وعرضوا مذهبهم على (هرقل) فقرأه ومدحه ولكنه أوعز إليهم أن يقبلوا مذهب (خلقيدونية) ولما أبوا ذلك كتب (هرقل) أمراً لكل الدولة قال فيه :
« كل من يأبى الطاعة للمجمع يجدع أنفه وتصلم أذناه ويهدم منزله » فدخل كثيرون عقب ذلك في مذهب المجمع وسار أهل حمص وسواها فارتكبوا كثيراً من أعمال الوحشية وأحرقوا كثيراً من الكنائس والأديرة وإن من الصعب أن نفهم سبب هذا ولكن هذه الرواية جاءت في كتاب رجل لا يعرف عنه ميل إلى آراء المونوثيليين التي كانت تعزى إلى (اثناسيوس) والتي كان بلا شك يعتقدها ولكنه قد خرج عليها فيما بعد . وأما فيما يتعلق =

زمن حتى ظهر الضرر المحقق الناشىء من سعي الإمبراطور في أمر الكنيسة . وقد توسل الحبر القدير (صفرونيوس) إلى (قيرس) توسلاً حاراً ليعدل عن عسفه فلم يجده ذلك شيئاً ، فسافر إلى القسطنطينية لكي يخاطب البطريق (سرجيوس) في ذلك الشأن ، وكان (سرجيوس) من خير من ولي أمر الكنيسة الشرقية وأوضحهم عقلاً . ولكنه كان صاحب المذهب المونوثيلي الذي أراد به التقريب بين المذاهب ، ولم يكن ليستطيع إنكار ذلك المذهب ، وحاول أن يقنع (صفرونيوس) أو يستميله بكل ما أوتيَ من قوة في الحجة وبلاغة في الخطاب وخلابة في الخلق ولكنه لم يفلح وعاد (صفرونيوس) إلى الشام آسفاً كئيباً .

ولعله ذهب بعد ذلك إلى (هرقل) ليبذل معه من الجهد مثل ما بذل مع (قيرس) و (سرجيوس) ، ولكن لا يذكر التاريخ حدوث ذلك اللقاء بينهما . أما نحن فنرى أنه لا بدّ أن يكون قد حدث ذلك اللقاء فهو يتفق مع سائر ما نعرف من الحوادث ، وبغير حدوثه لا يمكن أن نفسر العلة التي من أجلها اختار (هرقل) (صفرونيوس) ليكون كبير أساقفة (بيت المقدس) . وقد بقي ذلك المنصب شاغراً منذ مات (مودستوس) في سفره إلى الشمال مع الإمبراطور . ومهما يكن من الأمر فإنه من المحقق أن (صفرونيوس) لم يخفف من وطأة عداوته للمذهب المحدث مذهب الوفاق ، وكان من أول ما قام به بعد ولايته أنه جمع رجال الكنيسة وقال فيهم كلمة طعن فيها بدعة الإمبراطور وندّد بها في غير

= بالصعوبة الأخرى وهي أن (اثناسيوس) كان بطريق أنطاكية قبل أن يتفق أي اتفاق مع (هرقل) فقد رأينا أن زيارته لمصر بصفته بطريق أنطاكية كانت سنة ٦١٥ ونظن أن تفسير الأمر كله يأتي : لما فتح الفرس بلاد الشام في سنة ٦١٤ عزل (اثناسيوس) عن ولايته للدين فعلاً وإن لم يكن شرعاً وما كان ليعود إلى ولايته إلاَّ بعد الصلح بأمر من (هرقل) وقد رضي الإمبراطور بإعادته مع أنه (مونوفيسي) على شروط الاتفاق الذي وقع بينهما فرضي (أثناسيوس) بهذا ولكنه بعد رجوعه إلى الولاية رأى أنه لا يستطيع أن يحمل الناس على ما ركب هو فرجع عن الاتفاق رجوعاً صريحاً ـ فقابل الإمبراطور ذلك بأن أمر بالاضطهاد .

حيطة ولا هوادة ، وحكم بالخروج على البطارقة الذين اتبعوها[1] ، لأن (صفرونيوس) لما قبل أن يلي إمرة الدين في بيت المقدس كان يظن من غير شك أن الإمبراطور سيعدل عن بدعة (المذهب المونوثيلي) ويعود إلى مذهب السنة (الأرثوذكسي) ، في حين أن الإمبراطور كان يظن أنه سيستميل (صفرونيوس) باختياره للولاية الدينية كما استمال (أثناسيوس) من قبل . ولعل هذه كانت أشأم زلة زلها (هرقل) لا تفوقها إلا زلته الأولى وهي اختيار (قيرس) . وليس من المبالغة أن نقول إنها تكاد تكون السبب في ضياع فلسطين كما كان اختيار (قيرس) سبباً في ضياع مصر .

إنه من الممكن أن نلتمس لهرقل العذر في زلاته هذه إذا نحن ذكرنا أنه إنما اقتحمها اقتحاماً وهو يقصد إلى غاية سامية ويدفعه باعث نبيل . ولكن على أي حال قد أدّى الأمر في مصر والشام إلى أن الإمبراطور عندما أخفق في سعيه عمد إلى التضييق على معارضيه تضييقاً مراً ، ولم تبق إلا خطورة واحدة بين هذا التضييق وبين الإضطهاد . ولم تكن نفسه الوثابة لتتردّد في أمرها وقد جرح الفشل عزتها فأثارها . قال أبو الفرج : « ولما شكا الناس إلى هرقل لم يجب جواباً ، ولهذا أنجانا الله المنتقم من الروم على يد العرب فعظمت نعمته لدينا أن أخرجنا من ظلم الروم وخلصنا من كراهتهم الشديدة وعداوتهم المرة[2] . على

---

(١) انظر ما كتبه صفرونيوس في مقالة (Epistola Synodica ad Serguim) وقد ذكرها ميني في كتابه (Pat. Gr.) الجزء ٨٧ ـ ٣ المجموعة ٣١٩٣ .

(٢) أنظر الكتاب المذكور في موضع ذلك القول صفحة ٢٧٤ فإن أبا الفرج كتب كرجل (مونوفيسي) سوري . ويظهر الكاتب نفس الروح في مواضع أخرى (أنظر مجموعة ٢٦٦ و ٢٦٧) وفيها يقول إن كسرى انضم إلى المونوفيسيين السوريين فطرد أتباع مذهب خلقيدونية من الأساقفة من الأرض وأعاد كل الكنائس التي كان (دومتيان) أسقف (ملتينا) قد أخذها من المونوفيسيين في أيام موريق فمحا ذكر الخلقيدونيين من حدود الفرات شرقاً ، فإن الله قد أخذهم بجريرتهم فنالوا على يد الفرس جزاء ما جنوه من الآثام . وهذه هي القصة القديمة للمسيحيين إذ يضحون ببلادهم وشعبهم ودينهم لكي يفوزوا على شيعة منافسة لهم من شيع المسيحيين . وهكذا نجد مطراناً نسطورياً بعد أخذ دمشق بخمسة عشر عاماً يقول في كتابه « وهؤلاء العرب الذين أعطاهم الله السلطان في =

أن كنائسنا لم ترجع إلينا لأن العرب أبقوا كل طائفة من المسيحيين على ما كان في يدها عند فتحهم للبلاد » . وإنه لمن المحزن أن يقرأ الإنسان مثل هذا الترحيب من قوم مسيحيين بحكم العرب وزعمهم أن ذلك كان تخليصاً لهم ساقه الله إليهم ليخرجهم به من حكم إخوان لهم في المسيحية . ولكن ذلك يظهر بجلاء قاطع أن سعي الإمبراطور في توحيد طوائف الكنيسة كان سعياً باطلاً غير ممكن وأنه لا شك جر عليه الدمار والوبال .

بقي علينا أن نذكر الزلّة الثالثة الكبرى وقد سبق أن أشرنا إليها وهي مقتلة اليهود ، وكانت تلك أولى زلاته من الوجهة التاريخية ، وكانت كذلك أول ما جنى منه الثمر الوبيل . فإنه بعد احتفال إعلاء الصليب في بيت المقدس بزمن يسير أمر بنفي اليهود أو قتلهم فأتى بعضهم نبأ ذلك فهرب من استطاع إلى الصحراء فيما بعد نهر الأردن وتربصوا هناك الدوائر بأعدائهم . وكانت قلوبهم تتقد بنار الغيظ وطلب الثأر وهم على تربصهم هذا ، حتى لاحت لهم أعلام الإسلام وهي طالعة فرحبوا بهذه الجموع التي جاءت تطلب قتال الدولة الرومانية .

وفيما كانت السحب الدكناء تتعالى بعضها فوق بعض على أفق الدولة كانت أعمال هرقل قد طبقت شهرتها الخافقين ، وصار الملوك من أقاصي الأرض في الشرق والغرب من الهند ومن فرنسا[1] يرسلون إليه الرسل والهدايا الثمينة وآيات الإعجاب . ولكن الإمبراطور ما لبث أن عرف أن القضاء يسخر منه ، فإنه ما كادت تمثل بين يديه آيات خضوع العالم وإعجابه حتى كان العرب يقرعون أبواب الشام قرعاً عنيفاً وحتى كان ابنه من صلبه (أثالاريك) يكيد له

= أيامنا لا يحاربون دين المسيح بل هم يدافعون عن ديننا ويجلون قسوسنا وقديسينا ويهبون الهبات لكنائسنا وأديرتنا » وكانت الكنيسة الكبرى في دمشق إذ ذاك يستعملها المسلمون والمسيحيون على حد سواء (أنظر كتاب دي غويه « Conquête de la Syrie » صفحة ٨٤) .

(١) (Drapeyron) صفحة ٢٨٨ .

مشتركاً مع ابن أخته (تيودور) وجماعة من الأرمن يريدون خلعه ثم قتله . وقد فشا أمر المتآمرين ، أفشاه أحدهم ، وكان عقاب المجرمين أن قطعت أنـوفهم وأيديهم[١] اليمنى إلا من نم عليهم فإنـه جوزي بحكم أخف وطـأة وهو النفي وذلك لأنه لم يوافقهم على أمر قتل هرقل[٢] .

ويلوح لنا أنه قد حدث بعد هذا وبعد سفر هـرقل إلى أذاسـة أن اجتمع اليهود في تلك المدينة ، وقد روى (سبيوس) أن قبائل اليهود الإثنتي عشرة كان لكل منها من ينطق بلسانها في ذلك الإجتماع . ورأى اليهود أن المدينة خـالية من الجنـود ، فإن جنـود الفـرس خـرجـوا منهـا ولـم تحـل محلهم مسلحـة من الرومان ، فأغلقوا أبواب المدينة وأصلحوا حصونها وحادوا الإمبراطور وجنوده . فحـاصرهم هـرقل ولم يلبثـوا أن نزلـوا على حكمـه فَمَنَّ عليهم ولم يشتط في شرطه ، بل سمح لليهود أن يعودوا آمنين إلى موطنهم . ولكنهم لم يطيعـوا بل ذهبـوا إلى الصحـراء واتفقـوا مـع جنـد الإسـلام وصـاروا لهم أدلاء في تلك البلاد[٣] . ولا بد أن ذلك كان في سنة ٦٣٤ حين كان العـرب قد دخلوا بـلاد الفرس بقيادة خالد بن الوليد .

---

(١) إذا أردت قراءة شيء عن فظاعة بعض هذه العقوبات التي لا تزال في القانون إقرأ كتاب الأستاذ (Bury) « Later Rom. Emp. » الجزء الثـاني صفحة ٣٩٠ وكـذلك مـا جاء في هامش ص ٥٢٩ من كتاب جبون الذي نشره الأستاذ بـوري الجزء الخـامس تعليقاً على القانون الروماني الإغريقي .

(٢) جاءت هذه القصة بتفصيل عظيم في كتاب سبيوس .

(٣) ورد هذا الخبر في (سبيوس) ويوافق مؤرخ آخر أرمني اسمه (جيفوند) على أن اليهود دعوا العرب ليخرجوا الروم من فلسطين وكان (جيفوند) من أهل القرن الثامن وقد طبعت من كتـابه تـرجمة فـرنسية في بـاريس نشرهـا (شاه نـزاريـان) في سنة ١٨٥٦ ويقـول (درابيرون) صفحة ٣٢٧ أنه حدثت مذبحة جديدة لليهود في (أذاسة) ويروي الخبر عن سبيوس ولكني لم أجد مثل هذا الخبر في سبيوس ويظهر أن ثـورة اليهود هـذه هي ثورة العرب التي وصفها قيدرينوس وقال إنها حدثت بعد موت النبي . وكان هؤلاء العرب في خدمة الإمبراطور لكي يحرسوا طرق الصحراء فلما قطعت عنهم وظائفهم « أساءهم ذلك =

فلما اتفق اليهود مع العرب طلب إلى هرقل أن يعيد أرض المعاد إلى أبناء إبراهيم ، وهدد أنه إن لم يفعل أخذوا منه تراثهم وزيادة ، ولم يكن لهذا الطلب إلا رد واحد وهو الحرب . وهزم الروم بقيادة (تيودور) في (جبته) وأعقب ذلك انهزامهم الأكبر عند (اليرموك) في أول سبتمبر سنة ٦٣٤ ، وقد مات أبو بكر قبل ذلك في شهر يوليه وولِيّ الأمر بعده الخليفة عمر بن الخطاب ، وكان العرب قد فتحوا (بصرى) وجاءوا بعد اليرموك إلى دمشق وهي العاصمة القديمة لبلاد الشام ، فحاصرها خالد حتى أسلمها لهم حاكمها (منصور) على عهد ضمن لأهلها سلامتهم وما يملكون ، وأبقى في أيديهم كنائسهم لا ينازعهم فيها منازع ، وكان هذا في سنة ٦٣٥ . وقد روى أحد المؤرخين[١] « أن جميع المطارنة والبطارقة في كل البلاد لعنوا (منصوراً) هذا لأنه ساعد المسلمين » ، وكان هرقل قبل تسليم المدينة قد أرسل جيشاً عظيماً بقيادة أخيه (تيودور) وكان جيشه أكبر عدداً من جيش المسلمين ، فقاتل خالداً أشد قتال وظل النصر متردداً بين الفريقين حتى انتهى الأمر بفوز المسلمين وانهزمت جيوش الروم فلم يبق لها أثر . وجاءت أنباء الهزيمة إلى هرقل وهو في أنطاكية[٢] فعرف أن الأمر قد انفلت من يده وأن الله قد خذل الإمبراطورية وأصبح غالب الفرس الوثنيين وقد غلبه العرب الذين لا يتبعون دين المسيح[٣] . ومما زاد ألمه شدة علمه أنه

= ونزحوا إلى قومهم وذهبوا إلى أرض غزة قاصدين إلى الصحراء التي في طريق جبال سيناء »*(٢٣) .

وعلى أي حال قد ساعدت هذه الثورة التي قام بها العرب جيوش المسلمين كما ساعدهم خروج اليهود على الدولة ، وإذا أردت أن تقرأ عن اضطهاد هرقل لليهود إضطهاداً مطرداً فاقرأ كتاب الأستاذ بوري « Later Rom. Emp. » الجزء الثاني صفحة ٢١٥ .

(١) هو سعيد بن بطريق .

(٢) لعل هذه هي الرواية المحتملة ولكن (قيدرينوس) يقول إن تيودور عاد بعد هزيمته إلى ملك أذاسة ويقول جبون وقوله عجيب : « وقد أيقظته غزوة الشام من سباته في قصره في القسطنطينية أو في أنطاكية » (الفصل ٥١) .

(٣) جاء في الأصل كلمة (The unbelieving Saracens) وهذه لا يمكن ترجمتها حرفياً لأن ذلك بغير الحقيقة .

ارتكب خطيئة بزواجه من ابنة أخته (مرتينة) ، وأن جسمه آخذ في الإعتلال والإنحلال . ولسنا نجد تفسيراً غير هذا نبين به سبب قعوده وتهاونه ، فقد كان من قبل رجلاً تلقاه أبداً في الصدر كلما ثارت الحرب ودعاه الناس لائذين بسطوته في القتال ودرايته بكل أموره . ولو لاقاه خالد بن الوليد « سيف الله » منذ ست سنوات للقي فيه قرناً كفيئاً ، ولكان في حربه أغزر حيلة وأبرع مكيدة ، ولصمد لشجاعة قواد العرب البدوية فزلزلها وأوقع بها . ولكنه في ذلك الوقت الذي جاء فيه العرب لم يتحرك ولم يقد جيشاً ليلقاهم به . فكأن يده كانت عند ذلك مغلولة وكأن عقله كان مفلوجاً . وقد جمع كبار قومه في حفل حافل في كنيسة أنطاكية يستشيرهم فيما يعمل ، فقام شيخ أشيب وقال : « إن الروم يعذبون اليوم لعصيانهم كتاب الله وتطاحنهم فيما بينهم وتخاذلهم ولما يرتكبونه من الربا والقسوة ـ وكان حتماً عليهم أن يؤخذوا بذنوبهم » فكان قوله هذا فصل الخطاب ، فأحس الإمبراطور من نفسه بضعف الجسم ووهن العقل ، ورأى الحظ يتعثر به ، وعرف أن مقامه بالشام قد أصبح لا غناء فيه ، فرحل عنها إلى القسطنطينية في البحر في شهر سبتمبر من سنة ٦٣٦[1] ، وقال إذ هو راحل : « وداعاً يا بلاد الشام وداعاً ما أطول أمده ! » . وإن في تلك المقولة المعروفة التي قالها لرنة من الأسى ، وكأننا بها تحمل ما كان يدور في نفسه من أن مجده الغابر ونصره الباهر قد انتهيا بغد بالخذلان والعار ، وإنه إذ يقولها ليودع عزه وسطوته . وإن ذلك ليذكرنا بنابليون وما أحس به من الألم إذ هو على ظهر السفينة (بلريفون) ينظر إلى وطنه فرنسا نظرته الأخيرة[2] . والحق أن فيما بين ذينك القائدين العظيمين لشبهاً من وجوه عدة في اضمحلال جسمهما وضياع قوتيهما على القتال . ولكن نابليون ظل إلى آخر مواقعه وهو ملك يقود جيوشه ، في

(١) أنظر كتاب (De Goeje) وهو (Conquête de La Syrie) صفحة ١٠٢ وقد جاء فيه أن تاريخ سير هرقل كان في شعبان سنة ١٥ للهجرة . ولكن الدليل على أن سفره كان في البر غير قاطع .

(٢) أنظر كتاب لورد روزبري « نابليون » صفحة ١١٢ (طبعة لندن ١٩٠٠) .

حين أن هرقل أضاع قواه سدى في نضال لا فائدة فيه أراد به توحيد الكنيسة ، فلم يستطع أن يجمع ما بقي من قوى الدولة أو يقود جندها إذا ما أزفت ساعة الخطر واشتدت الأزمة . فبقي من شدته ثلاث سنين خبت فيها آماله وذوت قوته وصوح نشاطه ، وعلا أمر الإسلام تحت بصره وسمعه ولم يتحرك لمقاومته ، فما زال الإسلام يعلو حتى طوى دولته تحت ظله .

ويذهب معظم المؤرخين مذهب مؤرخي اليونان ، أو لعلهم أخطأوا تأويل ما قصدوه في رواياتهم ، فيقولون إن هرقل صحا بغتةً من سباته واندفع إلى بيت المقدس لا يلوي على شيء لكي ينجي الصليب المقدّس من أيدي أعدائه[٢] .

---

(١) قال درابيرون في صفحة ٣٢٩ : « وقد جرى هذا الطريد القوي إلى جبل الزيتون فنزع الصليب المقدس من البطريق صفرونيوس صاحبه وسار في لبنان بين الناس الذين أدهشهم صنعه » وقد أخذ نبذاً من نيقفوروس وتيوفانز وقيدرينوس وسويداس ـ ويذهب (ليبو) إلى هذا الرأي ويقول الأستاذ (بوري) في كتاب الدولة الرومانية المتأخرة (الجزء الثاني صفحة ٢٦٦) « إنه استطاع مع قرب العرب أن يسرع إلى بيت المقدس ويأخذ الصليب إذ عزم على أن يحول بينه وبين الوقوع في يد الذين لا يؤمنون بالمسيح » . وإني أجرؤ فأقول إن هذا كله وهم ولنبدأ بما قاله نيقفوروس فإن كل ما قاله عن حركات هرقل خطأ في خطأ فإنه يقول إن هرقل أخذ الصليب إلى بيت المقدس قبل أن يعود ظافراً إلى القسطنطينية ويقول إنه أسرع بالاحتفال بإعلائه ثم حمله بعد ذلك إلى القسطنطينية ! ويقول إن هرقل جاء إلى الشرق عندما جاء العرب وخربوا ما حول أنطاكية ، وفيما كان لا يزال في الشرق فتح العرب مصر . وواضح أن نيقفوروس لا يمكن أن يعتمد عليه في ذلك العصر لما يقع فيه من الخلط الذي لا رجاء معه في الإعتماد عليه ومع ذلك فإنه لم يذكر العبارة التي نسبت إليه . وكذلك الإشارة إلى تيوفانز فإنها لا مبرر لها فإنه يقول إن الإمبراطور لما غادر الشام يائساً « أخذ معه الخشب المقدس (الصليب) وذهب إلى القسطنطينية »*[٢٤] ولم يذكر في ذلك كلمة عن سفره إلى بيت المقدس .
ولما نقل قيدرينوس عن تيوفانز أضاف بعد كلمة (أخشاب)*[٢٥] كلمة (من بيت المقدس)*[٢٥/] ولكن هذه الإضافة ناشئة من محض استنتاج منذ عرف أن الصليب ترك في بيت المقدس .
وقال (سويداس) بعد ذكر حفلة إعلاء الصليب «ثم أرسله الإمبراطور إلى القسطنطينية» وعلى ذلك فلا يبرر ممن نقل عنهم درابيرون رأيه الذي ذهب إليه . =

وليس ثمة ما يدل على تلك الرحلة إلا ما رويَ من أن هرقل حمل معه الصليب وهو عائد إلى القسطنطينية . ولا شك في أنه فعل ذلك ، غير أنه لم ينقذه بأن ذهب إلى بيت المقدس ، ولا يمكن أن نتخذ من قول (قيدرينوس) وأمثاله ممن يسوقون القول جزافاً لا يتحرّون فيه الدقة دليلاً يقوم لحظة واحدة في وجه رواية (سبيوس) وهي رواية واضحة دقيقة . فإن (سبيوس) يقول إن العرب بعد وقعة اليرموك جازوا نهر الأردن ، وكانت هيبتهم تسبقهم فتقع في قلوب أهل تلك البلاد ، فكانوا يذعنون لهم خاضعين . وقال « وفي تلك الليلة » يقصد الليلة التي أعقبت بلوغ أنباء قدوم العرب إليهم « أخذ أهل بيت المقدس الصليب الأعظم وكل ما كان في الكنائس من الآنية وجعلوا كل ذلك عند الساحل ثم وضعوها في سفينة وبعثوا بها إلى دار الملك بالقسطنطينية » ولم يذكر في روايته كلمة واحدة عن هرقل . ولكن لا شك أن تلك السفينة التي كانت تحمل الكنوز المقدسة سارت إلى الشمال ولحقت بالإمبراطور . وكان لحوقها به إما في بعض الثغور التي مر بها في طريقه إلى عاصمته إذا كان سفره بحراً ، وإما لحقته بقصره في (هيبيريا) على مقربة من خلقيدونية وكان قد أقام بها مدّة من الزمن وهو في إضطراب ومرض[1] يفتت عليه الأكباد . فلما سار إلى العاصمة حمل معه الصليب فأعاده إلى كنيسة القديسة صوفيا . وكان الناس قد فرحوا من قبل أشد الفرح بذلك الصليب ورحبوا بمقدمه ظافراً ورأوا فيه سر نجاح هرقل ، ثم عاد إليهم بعد ذلك والحزن مخيم على الناس وهم يرون في عودته إليهم رمزاً لإخفاق مليكهم وخيبته . ويقيننا أن الأقدار لم تسخر من هرقل

= ويجدر بي أن أقول أن تيوفانز لا يزيد شيئاً على نيقفوروس فكلاهما لا يصح الإعتماد عليه في تاريخ هذه السنوات القلائل فإنه مثلاً يجعل هرب هرقل قبل وقعة اليرموك وقبل فتح العرب دمشق ويجعل غزو مصر بعد فتح دمشق مباشرة وأن وصف تيوفانز لما حدث بمصر كله غير صحيح فوق أنه ناقص . فالحقيقة أن هؤلاء المؤرخين البيزنطيين في وصفهم فتح مصر يضللون التاريخ أكثر من هدايتهم له .

(١) كان مرضه الذي يسمونه (Hydrophobia) أو « كره الماء » قد أصابه في (هيبريا) وكانت علته في الحقيقة الخوف من الفضاء الفسيح أياً كان وليس الخوف من الماء .

سخراً أقطع حداً ولا أمر مذاقاً من هذا على كثرة ما أنزلته به من النكبات .

إذن تتضح لنا الحقيقة وهي أن الصليب لم ينزع نزعاً من يد صاحبه البطريق صفرونيوس بل إنه أرسله مختاراً مع سائر تحف الكنيسة ، نزل عنها للإمبراطور لكي يحفظها عنده ، ولم تكن ثمة وسيلة لحفظها غير هذه . فقد كان بالإسكندرية عدوه قيرس لا يزال على ولايته ، وكانت مصر فوق ذلك قريبة العهد بغزو الفرس وكان يتهددها الخطر من فتح العرب . ولكن القسطنطينية صمدت لكل عواصف الحدثان في الحروب الماضية ولم يستطع عدو أن ينال منها ، فكانت على ذلك هي البلد الذي لا يقهر فوق أنها كانت عاصمة الدولة .


وإذا صح أن إرسال الصليب والتحف كان عملاً يقصد به صفرونيوس أن يدل على ولائه لهرقل ، لكان ذلك آخر ما قدمه له في حياته من الولاء ، فإن مدينة بيت المقدس كانت عند ذلك يحاصرها خالد ، ثم جاء له أبو عبيدة بعد بضعة أيام ممداً . وكان بالمدينة شيء كثير من المؤونة وكانت أسوارها قد أصلحت وحصنت بعد خروج الفرس منها ، فلما جاء العرب إليها ظلوا حولها عدة أشهر يحيطون بأسوارها ، ويرامون جندها بالسهام ، ويقاتلون من خرج إليهم منهم . ولكنهم لم يستطيعوا أن يرزأوها إلا يسيراً لأنهم كانوا لا عهد لهم بالحصار في حروبهم ، ولم تكن لهم عدة لصدع الأسوار . ولم يستغرق الفرس في فتحها من قبل أكثر من ثمانية عشر يوماً ، وأما عند ذلك فقد ظل خالد بن الوليد نفسه مقيماً حولها وهو يحرق الأُرَّم غيظاً لا يستطيع شيئاً إذ يتطلع إلى حصونها وآطامها . وقد اختلف الرواة في مدة حصاره ، والظاهر أنها استطالت مدة الشتاء كله ، شتاء سنة (٦٣٦ ـ ٦٣٧) ولعلها كانت أطول من ذلك . ولكن لم يكن عند أحد شك في نهاية الأمر ، فإن العرب إن عجزوا عن فتح المدينة عنوة بالهجوم فإن أهل المدينة لم تكن بهم قوة على رفع حصارهم عنها ، ولم تأت من قبل الرومان أنباء تجعلهم يؤملون في النجدة ، بل كانت الأنباء تترى بالمصائب والنكبات . فحل في قلوب أهل بيت المقدس من الخيبة واليأس مثل ما حل من قبل في قلب هرقل .

فلما أن صار الأمر إلى ذلك فاوض البطريق الشيخ صفرونيوس[1] قواد العرب من فوق الأسوار ، ولعله كان يحس عند ذلك أن المدينة لن تستطيع المقاومة بعد ذلك طويلاً ، لنفاد المؤونة وقرب وقوع المجاعة بها ، واتفق على أن يسلم المدينة على شرط أن يأتي الخليفة عمر بنفسه ليكتب عهدها .

ولا حاجة بنا أن نعيد هنا القصة المعروفة قصة مجيء عمر إلى الشام على جمل ، وكان أشعث أغبر خشن الملبس والهيئة ، حتى اقتحمته عيون مترفي الروم ، ثم ختم العهد وزار الأماكن المقدسة يصحبه صفرونيوس . فالتفت ذلك البطريق إلى أصحابه وقال لهم باللغة اليونانية : « حقاً إن هذا هو الرجس الآتي من القفر الذي ذكره النبي دانيال» وكانت هذه آخر مقولة وردت عن ذلك البطريق « صاحب اللسان المعسول في الدفاع عن الدين »[2] وقد شهد مرة ثانية في آخر حياته أسر بلاد صهيون ، وكان حزنه وألمه لذلك الأسر الأخير سبباً في الإسراع به إلى قبره .

(١) كان صفرونيوس بحسب ما يصوره لنا (حنا مسكوس) فوق السبعين عند ذلك .

(٢) كان هذا لقباً لصفرونيوس . أنظر كتاب Mansi وهو (Conoiliorum Nova Collectio) (الجزء العاشر مجموعة ٦٠٧) .


Bibliotheca Alexandrina
1240016